اللغة العربية

مجلة نصف سنوية محكمة تعنى بالقضايا الثقافية والعلمية للغة العربية

العدد السابع خريف 2002

اللغة العربية

مجلة نصف سنوية محكّمة تعنى بالقضايا الثقافية والعلمية للّغة العربية.

مجلة اللغة العربية

دورية تعنى بقضايا العربية وترقيتها يصدرها المجلس الأعلى للغة العربية.

المجلة منبر حر، وليس كل ما ينشر فيها معبرا بالضرورة عن موقف المجلس

التحرير والمراسلة : المجلس الأعلى للغة العربية
6، شارع العقيد أحمد بوقرة، الأبيار – الجزائر
ص.ب . 575 ديدوش مراد– الجزائر
الهاتف : 25/24 07 23 21 (00213)
الناسوخ :07 07 23 21 (00213)

الترقيم الدولي الموحّد للمجلاّت (ر.د.م.م) : 3575–1112
الإيداع القانوني : 2002/2361

المقالات التي ترد إلى المجلة لا تردّ إلى أصحابها، نشرت أم لم تنشر.

محتويات العدد

كلمة رئيس التحرير

نقدّم إلى القرّاء العدد السابع من " مجلّة اللغة العربيّة " راجين أن يجدوا فيه بعض مبتغاهم، كلّ حسب اختصاصه وميوله، آملين أن يكون في خدمة اللغة ويساهم في الرقيّ بمستواها في شتّى ميادين المعرفة، شاكرين لمحرّريها جهودهم.

المقالات المنشورة في هذا العدد متنوّعة؛ تعالج مواضيع لصيقة بـأهمّ قضـايانا الرّاهنة في الميادين الاجتماعيّة والثقافيّـة والتربويّـة والفنّيّـة والعلميّـة الخالصـة الدقيقة التي ما زال أكثره، ولزمن طويل، حكرا لغيرنا. لكنّنا فُخُرٌ، وحقّ لنا أن نفخر، بأنّ الباحثين في بلادنا بـدأوا يلجـون الصـعب ويعرفـون أنّ العـبء ثقيـل والطريق شاقّ والهدف نبيل ويدركون ما يكلّف ذلك مـن معانـاة وصـبر وحصـافة وبعد نظر.

البحث النّـزيه مهما بلغ عمقه وبعُـدَ مرمـاه لا يـأمن الزلـل، لأنّ الإنسـان، مهما بلغ من العلم، يخطئ ويصيب. إنّما الأهمّ العطاء الفكريّ المتواصل الرّامي إلى خدمة الوطن والإنسان والعلم والحضارة البشريّة. الوطن في أمسّ الحاجة إلى أبنائه ليضمن أصالته ويتحرّر من العزلة بالتفتّح على آفاق رحبة منعشة ويرتفع مستواه إلى مصافّ العالم المتحضّر.

رأيي المتواضع، كما يقال، أنّ المباحث في هذا العدد من المجلّة، تنحو هذا المنحى بمواضيعها المختلفة ومحتوياتها ومقاصدها. أصيل يبحث عن التجديد والتحسين ليساير العصر ويُسْتَثْمَرَ بنجاعة؛ ومستحدث يعبّد الطريق للتعامل مع الدخيل وبخاصّة في التكنولوجيا وما شاكلها؛ وأدبيّات ولسانيّات؛ وتعريف ببعض الآثار الأجنبيّة؛ وغير ذلك ممّا هو من صميم اهتماماتنا في العصر الرّاهن.

من أهداف المجلس الأعلى للّغة العربيّة نشر هذه اللغـة علـى أوسع نطـاق ممكن وترقيتها بكلّ ما أتيح له وما هيّـأ لنفسـه مـن وسـائل. ومـن هـذه الوسـائل

مجلّته التي هي مرآة له والتي يأمل أن ترقى إلى ما نيط به من مهامّ ساميَة وتحقّقَ مطامحه، وما أنبلها ! لذلك نسمح لأنفسنا بأن نلفت أنظار الناشئة غير المتمرّسة باللغة أو بالبحث، إلى بعض النقاط التي نعدّها ركنا أساسا لكلّ عمل مثمر.

تعاقبت علينا منذ قرون ظروف اجتماعيّة تاريخيّة سياسيّة أورثتنا تخلّفا ثقافيّا كبيرا وتبعيّة لغويّة مرهقة في المجالين الفنّيّ و العلميّ. ولا أدلّ على ذلك من حركة الترجمة التي عرفناها منذ عصر النهضة والتي تتقدّم بسرعة ويتّسع مجالها وتطالعنا كلّ يوم بجديد. لكنّ قلّة زادنا من اللسان العربيّ جعل غيره من الألسنة ينتقصه من أطرافه ويتحكّم في معاييره بما يشينها. نعم ! لا بدّ من أن تتطوّر اللغة وتساير العصر وتكون قادرة على استيعاب المفاهيم الحضاريّة الجديدة وعلى تمثّلها تمثّلا حقيقيّا يزيدها ثراءً واستعدادا لكلّ طارئ. لكنّ التطوّر المجدي واعٍ، مدرك لحقيقته ولسنن الطبيعة. أمّا أن يكون نتيجة لجهل أو قلّة اكتراث فذلك وهْمٌ وإيهام لا مراء فيهما. علينا أن نحافظ على سلامة لغتنا لأنّنا حماتها؛ ولنا أن نطوّرها وفقا للمتطلّبات على أن نكون واعين لذلك كلّ الوعي. لذلك نرجو من المتخرّجين حديثا من الجامعات ألاّ يحرّروا مقالاتهم إلاّ والمعجمات ، قديمها وحديثها ، بين أيديهم وألاّ يقطعوا الصلة بينهم وبين الدّراسات اللغويّة، قديمها وحديثها أيضا، وأن يكونوا حذرين فيما يقدّمون إلى القارئ. فقد كثر تداخل اللغات بسبب حركة الترجمة الواسعة التي لامناص منها لفكّ العزلة عن مجتمعاتنا، و كثر اللحن في الصيغ وفي التراكيب العربيّة الأصيلة

بل خضعت الأساليب العربيّة السلِسة الناصعة إلى أساليب لا تمتّ إليها بصلة فشابتها الهجنة في المسموع والمقروء على اختلاف مجالاتهما.

نَلْفِتُ النظر أيضا إلى أنّ بعض الباحثين الناشئين يفرطون في الاستشهاد أو في الإحالة على المراجع ظنّا منهم أنّ كثرتها تزيد في قيمة البحث وفي إبراز الجهد المبذول. بل لاحظنا أنّ كلّ فقرة قصيرة كانت أم طويلة وكلّ فكرة سطحيّة أو عميقة تحيل إلى مرجع أو مراجع. والحقيقة أنّ البحث بأصالته و عمقه وبعد غايته ونتيجته المتوخّاة وفائدته المحقّقة بالفعل. والمرجع توثيق وأمانة علميّة ودليل يرشد القارئ إلى المظانّ التي يجد فيها حاجته إن أراد إثراء الفكرة المطروحة. أمّا الإحالة في البديهيّات وفي ما لاكته الألسن فسذاجة، والإكثار منها إلى التجميع أقرب منه إلى الأصيل الفارض نفسه على العقول.

د. مختار نويوات
أستاذ بجامعة عنابة

حركة العاصفة والاندفاع الألمانية

"العبقرية تاج من الشوك، والذوق معطف
أرجواني، يغطي الظهر المنهوش".

يوهان جيورغ هامان

د. أبو العيد
دودو
أستاذ بجامعة الجزائر

كانت حركة العاصفة والانـدفاع Sturm und Drang ثـورة عارمـة في الأدب الألماني، أبرزت مفكرين و شعراء كبـارا، وكـان لهـا دور كـبير في بلـورة بعـض نواحي تكوينهم، وفي مقدمتهم هيردر وغوته وشيلر، وقد جرت العادة على اعتبار هذه الحركة، التي كانت في واقع الأمر مجرد مرحلة انتقاليـة، إعـدادا للمرحلـة الكلاسيكية، التي تلتها، وقد تجلت إنجازاتها في ميداني الأدب و الشعر. ومـن المعروف أن جذور هذه الإنجازات تكمن في الانقلاب، الذي عصف بجميع القـيم والمعتقدات الفكرية، وولد لدى الأدبـاء والشـعراء إحساسـا عاطفيـا آخـر، ورؤيـة كونية أخرى، وخيالا جامحا، تجاوز الحدود المعروفة. ولم تـترك هـذه الحركـة أثرها البالغ العميق في الثقافة الألمانية فقط، وإنما تركـت أثرهـا أيضـا في الثقافـة الأوربية، وذلك من خلال المفاهيم الجديدة، التي أعطتها للفكر والطبيعة والشـعر والحياة وما إلى ذلك. على أن هذا لا يعني أنـها لم تكن هي الأخرى قد تأثرت في نشأتها بالثقافات الأجنبية، ولا سيما الثقافتان الإنجليزية والفرنسية[1].

حركة التنوير

قد يكون من المناسب أن نعطي قبل ذلك لمحة عن حركـة التنـوير، الـتي سبقتها وهيأت لها ظروف نشأتها، فكانت الحركة الجديدة ثورة عليها بأتم معنى الكلمة، حتى وإن هي لم تعمّر طويلا كما كان متوقعا لهـا، إذ لم تتجـاوز المـدة، التي تمت لها فيها السيطرة الكاملـة علـى الموقـف الأدبـي، العشـر سـنوات أو الخمس عشرة سنة، إذ هناك من يجعل بدايتها بمسرحية غوتس فون بيرليخنغن

1. H.A. Korrf, Die Dichtung von Sturm und Drang, Leipzig, 1928, p. 34

(Götz von Berlichingen 1771) لغوتــه ونهايتهــا بمســرحية اللصــوص (Die Räuber 1781) لشيلر، وهنـاك أيضـا مـن يجعـل بـدايتها مرتبطـة بصـدور كتاب "شذرات (1767)" لهيردر ونهايتها ببداية المرحلـة الكلاسـيكية (1785)، وكانت رغم قصر مدتها جسرا يمتد من عصر الزخرفة إلى الحركة الرومانسية[1].

تطلق كلمة التنـوير Aufklärung في الألمانيـة علـى الحركـة الفكريـة، الـتي امتدت على التقريب من سنة 1700 إلى 1770، من ناحية، و على بعض المذاهب والاتجاهات، التي قام عليهـا التطـور الأوربـي بصـورة عامـة منـذ نهايـة العصـر الوسيط، الذى يكون مرحلة هامة من حركـة التنـوير هـذه، مـن ناحيـة أخـرى. والتنوير، كما عرفه كورف، يعني الاعتراف بالحق الطبيعي لكل إنسان في تقرير مصيره وفي تحقيق حريته الشخصية. وكان هذا الاعتراف، إذا ما نظـر إليـه مـن جانبه التاريخي، بما عرفته طبيعة التنوير نفسها من تطور بطيء. فالعصر الوسيط لم يكن يعرف شيئا عن هذا الحق، إذ كان جوهره يقـوم علـى حقـوق مـن كـانوا يعتبرون أنفسهم قوامين على الشخصية الفرديـة، وهـم رجـال الـدين، والنـبلاء، ورؤساء النوادي والجمعيات وغيرها. وقد كانت كلها تعد سلطات أرفع مكانة من الشخصية الفردية، فكان الفرد عضـوا في الكـل، وكـان الكـل يتخـذ قيمتـه مـن جمعيته ومن طبقته ومن سيده ومن معتقده[2].

كان هذا كله طبيعيا في ذلك الحين، ومن ثم تغيرت نظرة حركة التنوير إلى العصر الوسيط، إذ تنبـه دعاتهـا إلى أن الأمـور سـارت وتسـير فيـه بصـورة غـير

1. E. Berenner, Deutsche literaturgeschichte,Wels, 1956, p. 43.

2. Pascal, Roy, Der Sturm und Drang, Stuttgart, 1963, باسكال، ص. 7 وما بعدها

طبيعية، فليس من الطبيعي أن يرتبط وجود الفرد بوجود الجماعة الفكرية والسياسية والاجتماعية، وإنما الطبيعي أن يكون له الحق في تقرير مصيره. ولهذا كانت حركة التنوير تعني تحطيم ثقافة العصر الوسيط بواسطة فكرة الحق في تقرير المصير، وهي فكرة تقوم على أن من حق كل إنسان أن يؤمن بما يراه مناسبا له، ويفكر بالطريقة، التي يحلو له أن يفكر بها، وأن يعمل ما يريد هو عمله لا ما يريده غيره على أن يعمله، إلا أن عليه أن يتحمل في الوقت نفسه مسئولية أعماله سواء أكان ذلك في دنياه أم في آخرته، وأن زعامة الجمعيات والهيئات على اختلاف أنواعها ليس لها أي اعتبار إلا إذا اعترف الفرد بها وآمن بضرورة وجودها ومنفعتها، ولعل بذور الوجودية فيما يتصل بالحرية والمسئولية قد استمدت من هذا الاتجاه التنويري الجديد !

لم تقتصر حركة التنوير على جانب واحد، وإنما شملت الفكر والدين والسياسة، وامتدت إلى العلاقات السياسية والاجتماعية[1]. ومن ثم يستطيع الباحث أن يتتبع حركة التنوير في تاريخ العقيدة المسيحية وفي تاريخ الفلسفة، والحياة السياسية والاجتماعية، والتطورات العلمية بصورة عامة وكذلك في تاريخ الشعر والأدب، وذلك على الوجه الآتي :

أ ـ كان التنوير من الوجهة العقائدية يعني الحرية الدينية، وهو تقريبا نفس ما عبر عنها الماركيز بوزا في مسرحية شيلر عن الحرية حين خاطب الملك في مسرحية دون كارلوس قائلا : "سيدي الملك، امنحنا حرية الفكر! "[2]. وقد كان

1. كورف، ص. 3.
2. قاموس كيندلر، ج 15، 6633 ,Kindlers Literatur Lexikon, München, 1974

الأمر في الفترة، التي سبقت الإصلاح الديني، على خلاف ذلك، إذ كانت السيطرة للعقيدة، التي كانت تفرضها الكنيسة الكاثوليكية، لكن المصالحة الدينية، التي تم إبرامها في أورسبورغ، فرض صيغة أخرى للعقيدة، مؤداها cuius regio eius relegio ومعناها أن من له الأرض له الدين، أي أن ما يعتقده الإنسان يقرره مالك الأرض. أما التنوير فدعا إلى الحق في حرية العقيدة والتسامح مع العقائد الأخرى في الوقت نفسه. وقد عبر عن هذا الاتجاه الجديد "ناتان الحكيم Nathan der Weise" لليسينغ حين ركز على الدعوة إلى الاعتراف بالديانات الثلاث ودعا إلى التعايش السلمي فيما بينها، زيادة على ما نادى به من أنه ليس لأي دين الحق كل الحق في أن يدعي أن الحقيقة الموضوعية بجانبه وحده، فالمهم أن تكون للإنسان عقيدة لا غير، لأن حقيقة الأديان نسبية، لذلك ينبغي أن يترك الفرد وشأنه مع الديانة، التي يرتضيها لنفسه[1].

لقد ادعت الكنيسة في العصر الوسيط أن الحقيقة بيدها، وبناء على ذلك جندت نفسها لمحاربة كل من خالفها ورفض الخضوع لسلطتها. على أن التنوير لم يكن يعني الحرية الدينية فقط، وإنما كان يعني أيضا نشوء ديانة جديدة. وكان لمعنى التنوير في المجال الديني شيئان :

1. الحق في ديانة خاصة بصورة عامة،
2. استعمال هذا الحق في إنشاء دين جديد أو بعث ديانة متنورة.

---

1. كورف، ص. 8.

ب ــ بدأت حركة التنوير في القرن السادس عشر، ووصلت إلى مرحلة النضج في المثالية الألمانية مع نهاية القرن الثامن عشر، حين أصبحت الخلفيـة الفكريـة لعصر غوته من خلال بروز أفكارها في فورة العاصفة والاندفاع، واتساع هذه الأفكار ونفوذها في الحركة الرومانسية. فالفكر هو أصل الوجود وخلفيتـه الدائمـة ومعنـاه النهائي، وهو مركز القوة، الذي يمسك نظـام العـالم العضـوي المتصـور في وحـدة متناسقة. لقد قامت حركة التنوير على الربط بين ثلاثة عوالم فكرية، هي الديانة المسيحية، والفلسفة الإغريقية، والعلوم الطبيعية الناشئة، لكن هذا الربط لم يكن ليتم إلا بعد إبراز العناصر المتقاربة فيما بينها وإبعاد بقية العناصر الأخرى، التي لا تمت إليها بصلة.من المعروف أن هذه العملية قد تمت في تاريخ الفكر الأوربي فيما بين 1500 و1800، تم الواحد منها بعد الآخر: الديانة المسيحية، التي تمثلت في الإصلاح الديني، والعلوم الطبيعية، والفلسفة، وكان الفضل في ذلك يعـود علمـاء وفلاسفة كبار، كان آخرهم جيـورج فريـدريش فيلـهلم هيغـل (Georg Freidrich Wilhelm 1831-1770)، الذى يعد وريث الفكر العالمي كله. ومن الممكن إضافة إلى هذا الجمع بين هذه المسائل الثلاث، أي: المسيحية، والفلسفة الإغريقية، والعلوم الطبيعية، على أنه منحى جديد في التفكير قام على أساس من العلوم الطبيعيـة، وكانت له طريقته الفلسفية، حتى إنه استطاع أن يشكّل في النهاية نزعة دينيـة. وقد تم تكوين هذه النزعة من ثلاثة خطوط مختلفة، تمثلت في[1] :

1. تطور العلوم الطبيعية،
2. قيام العلوم الطبيعية على أساس من المعرفة النقدية،

1. نفسه، ص. 9.

3. تحويل العقيدة الدينية إلى نوعٍ من التدين الحر.

وارتبطت هذه الخطوط بعضها ببعض، رغم أنها بدت في أول الأمر وكأنّ كل واحد منها يسير في اتجاه معاكس، وذابت أخيرا في العلوم الطبيعية عند يوهان فولفغانغ فون غوته (Johann Wolfgang von Goethe 1749-1832) من خلال بحوثه المتعلقة بالطبيعة وبنظرية الألوان، وفي نظرية المعرفة أو النقدية عند كانت، وفي النزعة الدينية عند يوهان غوتفريد هيردر (Johann Gottfried Herder 1744-1804) . وطبيعة هذا المذهب في العلوم الطبيعية لا تنطلق من الإله، الذي كان منطلق اللاهوت أو العقيدة الإلهية في العصر الوسيط، وإنما تنطلق من الطبيعة نفسها، فالطبيعة هي الواحد الكل، فالإله في الطبيعة، والطبيعة في الإله، ولا معنى لإله يأتي من الخارج كما يقول غوته[1] .

ومن ثم لم يعد حل ألغاز الحياة جميعها ممكنا إلا عن طريق التعمق في معرفة الطبيعة، وبذلك أصبحت العلوم الطبيعية ترى أنها تنفرد بالحقيقة، التي كانت الكنيسة في العصر الوسيط تدعي الانفراد بها. وإذا كنا لا نستطيع أن نعرف العالم ونفهم الحياة عن طريق العلوم الطبيعية، فإن موهبة الخيال تكمل ما نفتقده من معرفة اعتمادا على تجارب الحياة. ومعرفة الطبيعة تساعدنا هي الأخرى على إنارة دائرة حياتنا الطبيعية، أي أن ذلك يتم على أساس من المعرفة المتبادلة[2] . بناء على ذلك صار هذا المذهب دنيويا طبيعيا، وهو ما لم تصل إليه

1. نفسه، ص. 10.

2. Goethe. Faust Der Tragödie erster und zweiter Teil Urfaust, München, 1978, p. 360.

الكنيسة في العصر الوسيط، ولم يكن التنوير ليعني أكثر من تنوير قيم الحياة الحقيقية، وهي لا تكمن في الحياة الأخرى، التي تقوم على التصور المجرد، وإنما تكمن في هذه الحياة ذاتها. فبعد أن اخترق فاوست حدود العلوم المدرسية، طمح إلى التجربة، التي اعتبرها منبع العلوم والقيم الحقيقية. لم تكن السعادة تهمه، كل ما كان يهمه هو أن يشعر أنه يحيا، ولهذا يقول□ :

أحس الجرأة على دخول الدنيا
وأتحمل ألم الأرض وسعادتها،
ومصارعةَ العواصف بكل عنف،
ولا توئسني طقطقة السفينة الغارقة.

هكذا عبّر في هذه الأبيات الأربعة عن رغبة الإنسان المستنير في الدنيا، وعندما نسمع آخر اعتراف لفاوست القديم، نحس في عبارته نغمة الإيمان المطلق بالدنيا وإرادة الدنيا عند الشاعر□ :

قد اتجهت أنظارنا إلى هناك،
وغبي هو من يوجه بريق عينيه عاليا
ويتخيل مثيلا له فوق السحب !
قد قضي الأمر، فلينظر ها هنا حوله،
فما هذا العالم بأبكم في نظر الماهر!

ويقول غوته عن الحياة :

كيفما كان الأمر فإن الحياة جميلة !

---

3. كورف، ص. 12.
1. نفسه، ص. 13.

والإحساس بجمال الحياة يعني التمتع بها، وهو ما أشار إليه فاوست القديم، حين حصر رغبته بين سؤالين :

أيحيط بنا هاهنا عبير سحري ؟

هناك ما يدفعني إلى المتعة الفورية،

وأحسني ذائبا في أحلام الحب !

أيعبث بنا كل ضغط هوائي ؟

وكان عصر التنوير يدعو إلى التفاؤل، كما نجده في دعوة غوته إلى التغلب على آلام الحياة، بقدر ما كان يدعو إلى التشاؤم كما نجده عند آرثور شوبنهاور (Arthur Schopenhauer 1860-1788)، الذي لم يكن يرى هدفا لطموح الإنسان، ولا حدا لآلامه، ولا معنى لحياة يائسة بائسة، ومن ثم لم يكن التفاؤل عنده سوى طريقة من طرق التفكير الدنيء[1].

ج ـ قام المنهج الاجتماعي والسياسي لحركة التنوير على شعارات الثورة الفرنسية، ولكن الحرية احتلت فيه مكان الصدارة، وتلتها المساواة في درجة أقل منها، بينما احتلت الأخوة أدنى درجة. وقام التنوير بعدئذ على الحق في تقرير المصير بالنسبة إلى الفرد في الدولة، وكان الفرق بين الدولة الحديثة والدولة في العصر الوسيط يتجلى في أن فكرة الأولى تقوم على ما للإنسان من حقوق، بينما تقوم الثانية على ما للإنسان من واجبات. فكان التنوير السياسي يعني إذن إطلاع الفرد على حقه في تقرير مصيره، وهو الحق الذى كان العصر الوسيط قد حرمه منه. وقد أدى ذلك إلى ما يلي :

---

1. نفسه، ص. 26.

أ- دعوة الإصلاح الديني إلى الحرية، كما نجدها عند لوثر.

ب- بداية التطور الفلسفي من فرضيات غير دينية (غير مسيحية) وغير كنيسية.

ولكن هذه الفرضيات لم تكن لتصل بالضرورة إلى نتائج تتنافى مع المسيحية. فقد حاولت فلسفة القرنين السابع عشر والثامن عشر بطرقها الخاصة الإجابة عن الأسئلة، التي أجابت عنها الديانة المسيحية. وكانت البرهنة على وجود الإله وإلهية العالم وخلود الروح من المسائل الأساسية في الفلسفة الحديثة كما كان شأنها في الكنيسة أيضا. وقد أطلق على هذا المذهب، للتفريق بينه وبين الدين المنزل، اسم الدين الطبيعي. فقام الصراع باسم هذا الدين الطبيعي بين الفلاسفة المستنيرين، الذين فقدوا إيمانهم بتضحية المسيح بمعناها اللاهوتي، وبين معارضيهم، وكان فولتير قد سبقهم إلى ذلك، ومن المعروف عنه أنه كان صديقا للملك البروسي فريدريك الأكبر، الذى كان قد استدعاه إليه، لأنه كان يريد أن ينشيء معه دولة يقودها الفلاسفة، كما تصورها أفلاطون قديما، وكان الناقد والفيلسوف الألماني غوتهولد إفرائيم ليسينغ (Gotthold Ephraim Lessing 1729-1781) قائد هؤلاء الفلاسفة، لكن تنكر الملك لأبناء وطنه، واحتضانه للأجانب من الفرنسيين، على ما عرف به بعضهم من تحايل وسمسرة، لم يكتشفهما إلا في فترة موالية، لم يمكناه من ذلك. وكانت فكرتهم، التي عبر عنها ليسينغ في كتابه "تربية الجنس البشري (Die Erziehung des Menschengeschlechts)"، هي : التغلب على

الدين العقائدي بواسطة الإنسان نفسه. ويفرق ليسينغ في الدين بين ثلاث درجات[1] :

1. تربية الصغير على أساس من الجزاء والعقاب المرتبطين بطاعة الإله.
2. حث الكبير على عمل الخير نظير الجزاء والعقاب السماويين.
3. وصول الإنسان إلى الكمال يدفعه إلى عمل الخير وتجنب الشر والسلوك الحسن لا من أجل الجزاء والعقاب، وإنما بدافع من إرادته الطبيعية. وهذه الدرجة يسميها ليسينغ المملكة الثالثة، وفي هذه المملكة تصبح الديانة، أي تصور الإنسان أن هناك قاضيا للدنيا والجنة والنار عديمة الجدوى نتيجة للتأثير التربوي الذي أحدثه الدين في الإنسانية منذ آلاف السنين. الدين العقائدي في نظر ليسينغ شر لا بد منه ما دام الإنسان يتصور دوما أن هناك إلها ينتقم من العصاة وينزل العقاب بهم، وهو شر لأنه كان سببا للحروب الدينية، التي قامت في أماكن مختلفة من أوربا وغيرها وزلزلت أركانها الثابتة. وأجمل ديانة عنده هي تلك الديانة التي تجعل الإنسانية نبيلة إذ تصبح هي نفسها لا طائلة من ورائها ولا يبقى منها في النهاية إلا ما للأديان الأخرى : الدين الطبيعي.كان هدف التنوير تجريد المسيحية مما يميزها وتحويلها إلى دين ليس فيه شيء عقائدي من جهة، ويتناسب مع التصورات الحديثة عن العالم من جهة أخرى، كما نجدها عند غوته وهيردر وفريدريش شلايرماخر-1834 (Friedrich Schleiermacher

1. بول هازار، الفكر الأروبي في القرن الثامن عشر، ترجمة الدكتور محمد غلاب، القاهرة 1959، ج 2 ص. 168 وما بعدها.

(1768، حيث يتخذ التفكير شكل المفهوم والحكم، ويفترض وجود أحدهما وجود الآخر.

ج ـ نشوء صورة العالم الحديث بعيدا عن الكنيسة وارتبطت بالعلوم الطبيعية الحديثة وبالفلسفة. وكانت الفلسفة هي التي أخذت على عاتقها تحديد معارف العلوم الطبيعية وتطهيرها مما يدخل في مجالات العلوم العقلية. ومن هذه اتجه الفكر الألماني إلى المثالية، التي تكمن فيه. والصراع من أجل حياة مثالية تم في القرن التاسع عشر، وتمثل أولا عند كانت في فلسفته الأخلاقية، ثم بصورة أشمل عند غوته في نزعته الإنسانية[1].

حركة العاصفة والاندفاع

استمدت حركة العاصفة والاندفاع، وتدعى أيضا "عصر العبقرية Geniezeit" أو "فترة العبقرية Genieperiode"، اسمها من مسرحية "الفوضى Wirrwar" لفريدريش ماكسيميليان كلينغر (Friedrich Maximilian Klinger 1772-1831)، مواطن غوته وصديقه في أيام شبابه[2]. وكان كريستوف كاوفمان (Christoph Kaufmann)، هو الذى أطلق عليها اسم العاصفة والاندفاع على الحركة كلها، وكان أحد دعاة العبقريات الجديدة، ومع ذلك لم يعد له من ذكر اليوم إلا عند ما يدور الحديث حول نشأة هذه الحركة الأدبية، التي كانت انتفاضة، تحولت إلى ثورة، مثلها شبان من مواليد منتصف القرن

---

1. Biese, Alfred, Deutsche Literatur Geschichte, München, 1922, p. 605.

2. نفس المرجع السابق.

علـى التقريـب، اتخـذوا لأنفسـهم اسـم العبقريـات الأصـيلة، وقـد تفرعـت إلى مجموعتين، تكمل إحداهما الأخرى[2].

1. المجموعة الراينية، نسبة إلى نهر الـراين، ويتسـم نتـاج أفرادهـا بالصـبغة الوطنية والاجتماعية، ويحتل المركز منها كل من فولفغانغ غوته ويوهان هـيردر أيـام إقامتهما في مدينة شتراسبورغ بصورة خاصة، وشيلر، ثم ياكوب لينتس (Jakob Lenz 1751-1792)، وما كسيميليان كلينجر، وفريدريش مـولر (Maler Friedridh Müller (Müller 1759-1825)) في مسـرحيتيه "غينوفيفـا Genoveva" وفاوسـت Faust، وهاينريش ليوبولـد فـاغنر (Hienrich Leopold Wagner 1747-1779) في مسـرحيته "قاتلة الطفل"، وكريستيان شوبارت (Christian Schubart 1739-1791)، الذي كان له تأثير كبير في شيلر.

2. المجموعة الغوتينغية، نسبة إلى مدينة غوتينغن، ويتسم اتجاهها بالصبغة الوطنية والدينية، ومـن ممثليها الشاعـر لودفـيغ هاينريش كريستوف هولتي (Ludwig Heirich Christoph Hulty 174-1776)، والشـاعر ماتيـاس كلاوديـوس (Mattias Claudius 1740-1815)، والشـاعر يوهـان هـاينريش فـوس (Johann Heinrich 1751-1826)، الذى اشتهر قبل كـل شـيء بترجمتـه الرائعـة للحمتي هومير، وكـذلك غوتفريـد أوغوسـت بـورغر (Gottfried August Bürger 1747-1794)، مبدع القصة الشعرية الألمانية، وتعـد قصـة "إليونـوره" مـن أشـهر قصصه. وكانت حظوظ هؤلاء الكتاب والشعراء من العبقرية والشهرة متفاوتـة إلى

2. برينر، ص. 83 وما بعدها، ومعجم غوته، ص. 1032.
Gero von Wilpert, Goethe-Lexikon, Stuttgart, 1998.

حد كبير في بعض الأحيان، وإن التقوا كلهم حول موضوع واحد، هو صراع العبقري مع الحواجز التي أقامها العالم القائم حوله، فجعلت منه بطلا ثائرا أو مجرما في كفاحه من أجل الحرية السياسية، والحرية الفردية، والحرية الدينية، ورفع الحدود والسدود والخنادق بين الطبقات، والحق في تقرير المصير.

ما الذي كانت تعنيه حركة العاصفة والاندفاع ؟ هل تعد يا ترى تجسيدا لمرحلة العبقرية ؟ وهل كان المراد منها العبقريات الأصيلة؟ بمثل هذه الجمل تقريبا يبدأ المؤرخ الأدبي الألماني المعروف فيلهلم شيرر حديثه عن هذه الحركة، ولكنه لا يضع أمام هذه الصيغ الثلاث علامة استفهام، وإنما يضع أمامها علامات تعجب، قد تعبر عن الموقف الذى اتخذه منها ! ويصفها بعد ذلك بأنها جلبت الأنظار إليها في فترة تاريخية معينة، يؤكد أن الناس تعودوا أن يطرحوا أسئلة من هذا القبيل سواء تعلق الأمر بالاحتفاء بها أم بالسخرية منها باعتبارها حركة شعرية دينية[1].

ويفهم من العاصفة والاندفاع ذلك الغليان الكبير، الذى عرفه الفكر الألماني، والفكر الأوربي عموما، بصورة تقريبية فيما بين سنتي 1770 و1780، وتمثلت آثارها المهمة في مؤلفات شبان تلك الفترة، ولا يتسع المجال للحديث عنهم جميعا، ولذلك نكتفي بالحديث عن أعظم ممثلين لهذه الحركة، وهما غوته

---

1. Scherer, Wilhelm, Geschichte der Deutschen Literatur, Berlin , شيرر، ص. 550

وشيلر، اللذان عبرا في كتاباتهما الأولى عن هذا التحول الفكري في الميدان الشعري خاصة[1].

وحركة العاصفة والاندفاع تعني بصفة عامة الفكر الألماني في تلك المرحلة، التي وصفت في تاريخ الفكر الحديث بمرحلة عصر التنوير الوسيط. هذا مع أن حركة العاصفة والاندفاع تعد، من عدة نواح في واقع الأمر، الجانب المتطرف من حركة التنوير. ويتميز عصر التنوير بفهمه للعالم والحياة على أساس فكري واقعي تحت انتصار العلوم الطبيعية والفلسفية[2]. ولا يصح في الحقيقة أن يدعي أي واحد من الباحثين والدارسين أن حركة التنوير لم تقم بأعمال جليلة في ميدان العلوم الطبيعية والعلوم التقنية والطبية وما إلى ذلك، إلا أنه كان هناك من تشاءم من الثقافة الجديدة ورأى أنها تقود إلى الفساد العام.

والمعروف أن نقطة التحول بالنسبة للإنسانية المتنورة في القرن الثامن عشر، قد بدأها ثلاثة رجال، هم روسو، الذى كان قد دعا إلى الفردية، والبروسيان يوهان غوتفريد هيردر، الذى كان يرى أن التاريخ الإنساني ما هو إلا تطور حدث في الطبيعة ولا يفهم إلا في الوسط الطبيعي، وقد قال بهذا الصدد : "لقد أضاع قرننا نفسه في الورشات المعتمة لما يقوم على الفن والعقل، حتى إن الضوء القوي الوسيع للطبيعة الأصلية في العصور الماضية لم يعد من الممكن معرفته[3]". ومن هذا القبيل يوهان جيورغ هامان، الذى كان يرى أن الإله والإنسان، والروح

---

1. كورف، ص. 34.
2. نفسه، ص. 35.
3. برينر، ص. 84.

والطبيعة، والعقل والإلهام، والمثالية والواقعية، والمادة والشكل وما أشبه ذلك لا يمكن في الحقيقة فصل بعضها عن بعض. واختصر دعوته في صيغة الأمر: "ليكن تفكيرك أقل وعيشك أكثر.Denken Sie weniger und leben Sie mehr ! لقد حملت هذه الجملة نبرة ثورية عنيدة في عصر أطلق عليه اسم "عصر التنوير" لأنه خضع للعقل، وقواعد السلوك اليومي، والأخلاق، وفن الشعر، ولم يستطع رؤية ما بين الطبيعة والعقل من فرق، فكان أن حلت "الطبيعة" محل العقل، وحل "العيش" محل التفكير"[1].

لقد استطاع هؤلاء الثلاثة أن يهزوا الغرور الثقافي للإنسانية الأوربية بصورة لم يسبقهم إليها أحد، فأصبحت الثقافة نفسها مشكلة كبيرة. وحركة العاصفة والاندفاع تقوم في الأغلب على النهضة التي أحدثها هؤلاء في الفكر الأوربي. وقد نشأت بمثابة صراع جيل الشباب مع مشكلة الثقافة، بمعنى ذلك النوع من الثقافة، الذى يقوم على روح العلم ولا يتجاوز حدوده، وما من انقلاب اجتماعي تاريخي إلا يحمل معه، كما يقول لوكاش، إنسانا جديدا، يناضل ضد الإنسان القديم[2]. وقد يتساءل المرء هنا ما هي أسس هذا التشاؤم الفكري؟ ما هي أسبابه الخارجية؟ على أنه يجد الجواب على مثل هذه الأسئلة في مؤلفات روسو نفسها.

لقد انتقد في أول كتبه ما تتركه العلوم والفنون الجميلة، بعبارة مختصرة انتقد ما تتركه الثقافة الراقية في الجنس البشري من آثار، فقد كانت للعلوم في رأيه آثار معاكسة، والتطور الفكري، الذى عرفه الإنسان الحديث، لم يجعله في وضع

1. نفسه، ص. 85.
2. كورف، ص. 36.

أحسن، ولم يمنحه السعادة، التي كان يطمح إليها. لقد سلبه وضعه الطبيعي الهادئ ليملأه وعيا بألغاز الحياة، ولكنه لم يقدم له شيئا مما يساعده على حل ألغاز الحياة[1]. وبذلك دفن سكينته الروحية، التي كان ينعم بها، وحرمه من الرفاهية. ومن هنا فإن الإنسانية عموما ليست سعيدة كما يتصور أنبياء الثقافة، بل هي ساخطة وشقية، ويعود ذلك إلى ما نجم عن التطور الفكري المبالغ فيه من تحطيم التوازن الطبيعي للقوى الروحية.

وقد ظهر التوازن الداخلي من خلال الشعور بالحياة كله، الذي تطور إلى الشعور بالضيق بالدنيا، والضيق بالدنيا إنما هو مرض الإنسان الحديث. وكان لكتاب إميل التربوي لروسو أثره في الفكر الألماني،فقد دعا فيه إلى تربية الشباب تربية طبيعية دون حاجة إلى ثقافة واسعة. فالإنسان خير بطبيعته وأن ما يعانيه من شقاء يكمن في ظروف الحياة، التي يحياها لا في ذاته هو نفسه، والمربي الفاضل هو الذي يسمح بالتطور الطبيعي دون أن يعرقل سيره ويلحق الضرر به عن طريق ما يقدمه له من ثقافة مفسدة. كان ينادي بالعودة إلى الطبيعة، العودة إلى الإحساس الطبيعي، والعودة إلى نظام الحياة الطبيعية، وبالتالي العودة إلى الإنسان الطبيعي[2].

كان هذا الإنسان الطبيعي المثل الحقيقي الأعلى لحركة العاصفة والاندفاع. ولهذا عالج الشعر في هذه الفترة مشاكل الأبرياء من الأطفال والنساء الساذجات والفلاحين والعمال البسطاء، ومن الأمثلة على ذلك غوتس فون بيرلخنغن لغوته،

---

1. نفسه، ص. 39.
2. نفسه، ص. 40.

فهذا البطل ينتمي إلى عصر الإصلاح الألماني، وكان صديق الشعب، حتى إنه عبر عن صداقته هذه بحضور حفلة زواج أحد الفلاحين . ولكن رواية فيرتر لغوته، التي اعتبرها جورج لوكاش تاريخا مهما لا بالنسبة للأدب الألماني فقط، وإنما بالنسبة إلى الأدب العالمي أيضا، تعد أفضل مثال وأجمله لشعراء هذا العصر وأدبائه. فالقصة تدور أحداثها في البادية، وفيرتر لا يخفي إعجابه بأطفال الفلاحين، وبمنظر الفتيات وهن بصدد جلب الماء من البئر. وقد وجد غوته الفتاة المثالية لعصره في شخصية لوتّه، التي تمنح فيرتر الشعور بالسعادة قبل كل شيء. أما الشخصية الثانية في فيرتر، فهي ليست الإنسان الطبيعي الساذج، بل الإنسان المثقف الباحث عن الطبيعة، أو الإنسان المرهف الحس، الذي تنقصه الطبيعة والسذاجة، اللتان لا يملكهما سوى الإنسان الطبيعي. إلا أن رهافة الإحساس وإدمان حب الطبيعة يحلان عنده محل بساطة الإنسان الطبيعي المفقودة، إذ هو ينتمي إلى المثقفين، الذين خدعتهم الثقافة ولعبت بعقولهم وأبعدتهم عن الجوانب الفطرية في سلوكهم وتصرفاتهم .

على أنه يجب بهذا الصدد التفريق بين الإنسان الطبيعي الساذج، وبين الإنسان الطبيعي المرهف الحس، وهما النموذجان، اللذان يتردد ورودهما في شعر هذا العصر، الذى يدور الحديث حوله، ففيرتر يقابل لوته، وفاوست يقابل غريتشن، وهذه الأخيرة تمثل الطفلة الطبيعية الساذجة بكل ما لبراءتها من سحر، ولكن يمثل فاوست النموذج الأعلى للطموح العقلي، ولذلك تمزقه المشاكل

---

3. برينر، ص. 91.

1. Lucàs, Georg, Faust und Faustus ; Berlin, 1965, لوكاش، ص. 6 وما بعدها

العقلية، ويشعر بالشوق إلى الطبيعة، ولم يكن هناك من أحد يستطيع أن يثير شوقه إليها إلى هذه الدرجة مثلما أثارته غريتشن، الطفلة الطبيعية الساحرة، التي تملك كل شيء دون أن يكون لها علم بذلك، بينما يطمح هو إلى التناسق والمشاركة الوجدانية والارتياح والانبساط[2].

كانت حركة التنوير تنظر إلى الإنسان على أنه إنسان مفكر، أما حركة العاصفة والاندفاع فقد نظرت إليه على أساس أنه إنسان تسيره غرائزه، ولا يعود ذلك إلى أن حركة التنوير كانت تنكر الحياة الغريزية أو إلى أن حركة العاصفة والاندفاع كانت تنكر الواقع، وإنما يعود ذلك إلى أنه كان لكل منهما مذهب يعاكس نظيره في تقويم العقل والحياة الغريزية. لئن كانت الحركة الأولى قد رأت أن أثمن ما في طبيعة الإنسان هو قدرته على استعمال عقله، الذي يمثل طبيعته، فإن الحركة الثانية، أي العاصفة والاندفاع، كانت ترى أن أثمن ما في الإنسان هو ما في غريزته من قوة لاشعورية، وأن هذه الغريزة اللاشعورية إنما هي شكل أعلى للعقل، عقل الطبيعة أو العقل الإلهي، أو هو الإله نفسه. وإذا ما نحن أردنا أن نستعمل تعبيرا فلسفيا متأخرا، فإن في إمكاننا أن نقول إن الاكتشاف الأكبر لحركة العاصفة والاندفاع هو : عقل اللاشعور أو بصورة أعم هو العقل اللاشعوري للطبيعة[1].

كان هامان هو أول من هزته هذه الفكرة، فقد كان يرى أن صوت الإله الحقيقي لا ينطلق من عقل الإنسان بل ينطلق من نزواته على نحو أصوب وأعرق

2. كورف، ص. 42.
1. نفسه، ص. 44.

وأكثر مباشرة، بينما تعد الأعمال التي يشعر بها الإنسان تزويرا للحقيقة الفعلية العميقة[2]. فالعقل المحدود ليس له القدرة على فهم العقل الحقيقي للطبيعة من حيث هو مفهوم العقل الإلهي. وهذا المذهب يعدّ خطوة هامة، تجاوزت حركة التنوير، ولكنها كانت، كما يقول الناقد الألماني كورف، الذي جعلنا كتابه "شعر العاصفة والاندفاع في سياق تاريخ العصر (1928)" من المصادر الأساسية لهذه الدراسة، تحتوي على خطر كبير. ذلك أن الاعتراف بقداسة الحياة الغريزية يعني بالضرورة ظهور الحياة الغريزية بمظهر مصطنع، يجعلها حياة غير غريزية، فالذى يوجهه ويعبّر عنه هنا ليس عقل الطبيعة، وإنما هو اللاعقل في أبعد حدود جموحه.

تقوم العاصفة والاندفاع على الضرورة المصطنعة للحياة الغريزية، وأقوى ما يتجلى ذلك في طباع شخصياتها الشعرية. فالشخصيات الطبيعية في أشعار شعرائها تمتلك طبيعة الأقوياء، الذين يدعون أن لهم غرائز لا يمكنهم تحديدها وتقييدها ولا التحكم فيها والسيطرة عليها بأية صورة من الصور. وما من إنسان من هذا النوع يعد إنسانا طبيعيا، وإنما يعد إنسانا مصطنعا، ولذلك لا نجد مثلا لهؤلاء عند القادة الحقيقيين للجيل الناشئ، عند غوته مثلا، بل نجدها عند الأنبياء المزيفين، وخصوصا عند شاعر من نوع فريدريش كلينغ، الذى اتخذ

---

2. Ermatinger, Emil, Deutsche Dichter 1700-1900, Bonn,1948, ايرماتنغر، ج1 ص.318 وما بعدها

مظهر الإنسان الأعلى، وصورة بروموثيوس في صراعه مع القوة الأكثر منه سموا وعلاء[1].

وقد وقع شيلر في خطإ مماثل في مسرحياته الأولى، فكان على بطله أن يتغلب على فورة الجامحة قبل أن يصبح قائدا لأمته. ويتجلى عقل الحياة الغريزية اللاشعوري لدى الإنسان الطبيعي الحقيقي في شعر العاصفة والاندفاع، على أنه لا يتجلى طبعا إلا في القوة المتكبرة والجمال المقنع عند هذه الشخصيات كلها، وهو ما يجعلها تفشل تمام الفشل وتكون لها نهاية مأساوية.

كانت حركة العاصفة والاندفاع ترى أيضا أن الفلسفة قد فشلت في مهمتها، وأخذت تدعو إلى تغيير المجتمع من جميع نواحيه الثقافية والسياسية وأنظمة الحكم. وتمثلت هذه الفكرة عند هيردر وغوته في فكرة التربية، وكانت التربية متصلة بالشعر في زمن غوته اتصالا وثيقا. فكما أن الأعمال الشعرية الكبيرة في هذا الوقت، مثل فاوست و"فيلهلم مايسترليرياره" وغيرهما، تعالج موضوع التربية، كذلك يمكن اعتبار الفلسفة الإنسانية عند هيردر أو التربية الجمالية عند شيلر أعمالاً شعرية، وهذه الحركة قريبة من الثورة الثقافية إلى حد كبير[1].

وتقدم المسرحيات من خلال أشكال متجددة على الدوام الصراع الكبير الذى يحدث أثناء العرض بين الإنسان الطبيعي والثقافة،سواء تعلق الأمر بنقد نظام المجتمع أم بانتصار الطبيعة الحرة أم بتغلب الإنسان الطبيعي على حواجز الثقافة

---

1. كورف، ص. 52.
1. نفسه، ص. 55.

الضيقة□. أما الدوافع السياسية في أعمال شعراء العاصفة والاندفاع، فليست في الواقع سوى ذلك الاستمرار المتطرف للأفكار السياسية لعصر النهضة، التي لم تكن قد دخلت ميدان الشعر. فالذى دعا إليه كل من روسو ومونتيسكيو يجد صورته الشعرية في مسرحيات شيلر التي كتبها في شبابه، حتى إن الثورة الفرنسية اعتبرت شيلر واحدا من رجالاتها. والحق أن مسرحياته مليئة بالكراهية للطغاة وحب الحرية بشكل لم توح به بقدر كاف حتى مسرحية ليسينغ السياسية المعروفة "إيمليا غالوتي Emilia Galotti"□. وفي مسرحية "فياسكو Fiesko" (1783) لشيلرلا يذهب الطاغية الحقيقي ضحية التعصب للحرية، وإنما البطل المتآمر نفسه يخون فكرة الحرية ويمد يده لقبعة الأمير. _ أما في مسرحية "الحب والدسيسة Kabale und Liebe " فتلقى الأضواء على الأوضاع السياسية فحسب، أما السخرية فتقع على حاشية الأمير لا على الأمير نفسه□. ولا يبدو الأثر القوي في أي عمل من أعمال شيلر في شبابه مثلما يبدو في هذه المسرحية، التي تصور الصراع بين قوة الحب الطبيعية وقوة الامتيازات الطبقية غير الطبيعية، التي يخرج منها البطل منتصرا، ولكنه لا ينتصر بقوته الخاصة، وإنما بضعف وتخاذل الشعب الذي لم يساعده المذهب الموروث على التطور، وفرديناند لا يهلك بسبب خبث أبيه، وإنما بسبب ما كان متمكنا من البطلة لويزه من غباء وورع.

---

2. نفسه، ص. 58.
3. بيرنر، ص. 69.
1. كورف، ص. 59.

والحديث عن الطغاة في مسرحيات حركة العاصفة والاندفاع له ما يـبرره في حياة الكتاب والشعراء، فقد عاش يوهـان يـاكوب مـوزر (Johann Jakob Moser 1701-1785) خمس سنوات، وشوبارت عشر سنوات في المعتقل دون محاكمة ودون أن يكون هناك مبرر لاعتقالهما، كل ما في الأمر أن الأمـير أراد أن يلجـم الأفـواه ويسجن الأقلام، ولو لم يلجأ شيلر نفسه إلى الفرار، لكان مآله السجن هو الآخر. وإذا كان يوهان كريستوف غوتشـيد (Johann Christoph Gottsched 1700-1766) قبل ذلك قد مجد الانتحار على الطريقة الرواقية، فقد كان شيلر يمجد مفهوما آخر للحرية الشخصية حين قال: " يجب أن يموت القيصر في كل مكان يعـيش فيـه بروتس!"[2]

على أن أعظم مسرحية تناولت قضـية الحريـة، أنتجتهـا حركـة العاصـفة والاندفاع، هي مسرحية دون كارلوس، ففيها ترتبط حرية الشعب بحريـة الـدين ارتباطا لا انفصام له. فلفكرة الحرية هنا تبريرات أكثر عمقا، فهـي تقـتحم قلـب الطاغية نفسه، وهذه هي الصفة العقلية، التي تميـز هـذه المسـرحية عـن جميـع المسرحيات الثورية الأخرى، ولكنها لا تفعل ذلك إلا لمدة قصيرة ـــ هـي المـدة، التي يستغرقها الحلم الجميل عادة ـ إذ يسترد الواقع القاسي حقه ثانية ويحطـم بكل قسوة جميع الآمال الخادعة، التي لم تجرد من فكـرة الحريـة فقـط، وإنمـا جرد منها حاملها الإنساني أيضا، وهـذا مـا جعـل فكـرة الحريـة تبـدو في هـذه المسرحية مثل شهاب لامع لا يلبث أن تختفي آثاره في الفضاء الفسيح[1].

---

2. برينر، ص. 117.

1. نفسه، ص. 94.

وإذا ما نحن انتقلنا إلى مسرحية "إغمونت" لغوته، التي يعالج فيها بدوره موضوع حب الحرية، والنضال من أجلها في الأراضي المنخفضة ضد الهيمنة الإسبانية، نجد أن عجز البطل كان هو السبب في نهايته المأساوية. وعلى العكس من ذلك تقدم لنا مسرحية "فيلهلم تيل" لشيلر الصورة الكبيرة لحركة التحرر، التي يتحقق فيها، من خلال ثورة السويسريين على حاكميهم من النمساويين، ما كانت تجسمه أشواق حركة العاصفة والاندفاع[2].

لم تكن فكرة الحرية السياسية هي أهم ما يميز حركة العاصفة والاندفاع، فقد كانت النهضة تشاركها في هذه الفكرة، ولكن ما يميزها على الخصوص هو تمجيدها للمجرم النبيل، الذي بدأه غوته في مسرحية غوتس وشيلر في مسرحية اللصوص، وهو موضوع كان مستحيلا بالنسبة لعصر الأنوار، لكنه هنا يجسم ثورة الإنسان الطبيعي ضد الثقافة، ضد المجتمع وقوانينه، كما يجسم الاعتقاد الجازم بفساد المجتمع وانهياره وانحطاط قيمه ومعتقداته. لقد ناضل غوتس ضد الدولة الثقافية القادمة، التي يبرز فيها الأوغاد وأصحاب الأموال إلى القمة، بينما يكون نصيب الطيبين منها الضمور والهلاك. فهذه الدولة الثقافية تقوم على الحيل والمناورات، لا يقع في حبالها ولا يسقط في شباكها غير السوي النبيل. أما في لصوص شيلر، فيبدو الأمر على العكس من ذلك، فقد تحقق بعد مائة وخمسين سنة ما كان يخشاه غوته وتحدث عنه على لسان غوتس، وهو أن الدولة الثقافية أصبحت حقيقة واقعة. فمن يثور الآن، فإنما يثور على المجتمع القديم، ويتصرف تصرفا ثوريا، يدفعه إلى تحطيم كل شيء دون خوف حتى من الأعمال التي تبررها فكرته. فذلك ما فعله مور

2. نفسه، ص. 111.

في اللصوص، فبعد أن ارتكب عدة جرائم، شعر بالضيق بها في اللحظة التي اكتشف فيها خطأه المضاعف: 1) النظام الطبيعي لا يمكن تغييره بقطيع من اللصوص.2) الفرضيات الخاطئة تؤدي حتما إلى فشل الثائر. والمعنى الأعمق للنضال هو نضال الإنسان الطبيعي ضد الطبيعة غير الطبيعية، نضال الحق الطبيعي ضد الحق التاريخي. ويتضح هذا بصورة أكثر في النضال، الذى تفضل خوضه حركة العاصفة والاندفاع، وهو النضال من أجل تحرير الحب من استبداد الأخلاق البرجوازية وكبتها للرغبات الجنسية، وأروع شخصية في هذا المجال هي شخصية غريتشن لغوته. والأمر هنا يتعلق أيضا بتعاطف الشاعر مع مجرمة نبيلة ــ فتاة بريئة تصبح بسبب الحب مجرمة أمام المجتمع، لأنها لم تستطع احتمال تخلي حبيبها عنها ونبذها لها، فتقتل طفلها وتغدو رهينة سجنها وجنونها. هنا يصطدم حق الحب الطبيعي بالأخلاق المسيحية والبرجوازية المتصلة بهذا الموضوع. وتعاطف الشاعر هنا مع الشخصية الأولى في المسرحية، مع البطلة، لا ينكر أن الأخلاق الجنسية والطبيعة الساذجة هما اللتان دفعتا غريتشن إلى فعل ما فعلته، وتتمثل عظمة غوته عند النقاد في أنه منحها عفة وأخلاقا تفوق الأخلاق، التي كانت البرجوازية تدعو إلى صيانتها والتمسك بها[1].

ولا يقوم الشعور بالحياة عند حركة العاصفة والاندفاع على التناقض بين الطبيعة والثقافة فقط، وإنما يقوم كذلك على التناقض في الطبيعة نفسها بين النهاية واللانهاية. إن الشعور بالحياة،كما نحسه في فاوست، يعني الطريقة، التي يشعر بها الإنسان في حياته، وما هي في الواقع إلا مذهبه في الحياة.لقد كان

1. كورف، ص. 65.

الإحساس بالحياة في عصر الطبيعية مرتبطا بالإحساس بالطبيعة نفسها. إذا أحس الإنسان بأنه كائن طبيعي، فإنه يحس بالطبيعة كما يحس بنفسه، والإحساس بالطبيعة إنما هو الإحساس بالحياة الذي يخلعه الإنسان على الطبيعة، فهما إذن الشيء ذاته[1].

هذا الإحساس بالحياة يقوم عندها في الصراع الخاص بين الإحساس الأكيد بقيمة النهايات جميعها، بمعنى ما يقوم عليه الواقع اليومي المستمر، وبين الإحساس المقابل باللانهائية الدخيلة في الطبيعة وفي الحياة، التي تتحطم إزاءهما كل النهايات. إن ما يميز العاصفة عن التنوير هو إحساسها القوي بالواقعي والشهواني والخصوصية الفردية وانعدام النظير Einmaligkeit. فالفرد يسعد بما يكنه لكل المخلوقات من حب بصورة عامة، وله رغبة متزايدة في أن يتمتع بكل مستويات الحياة ويعيش كل ذلك بنوع من الوعي التام. وهو لا يحس بالطبيعة بصورة أقوى فقط، بل إن الطبيعة نفسها تقوي إحساسه بها، فيصبح لحياته غنى آخر، ويشعر هو نفسه بما فيها من وفرة وثراء وامتلاء. وهذا الجانب من الشعور بالحياة يؤدي داخليا إلى وعي الفرد المتزايد بخصوصيته، بعودة شخصيته إليه، بتماسكه، وبإعجابه في الوقت ذاته بالصورة التي تتسم بها الشخصيات الأخرى. وهذا يعني في المجال الشعري الإقبال على فعل ما هو متميز متفرد، والرغبة في التعبير عنه بصورة قد تصل حد الرسم له بصورة ساخرة.

غير أن هناك في الجانب الآخر شعور الإنسان المقابل باللانهائية الداخلية للطبيعة، التي تتحقق في أشياء مفردة دون أن تتحقق في الواقع الفعلي، وهو الإحساس بالطبيعة السامية للحياة ــ وبطبيعة امتداد الحياة في الطبيعة كلها. وفي

---

1. نفسه، ص. 71 وما بعدها.

مقابل هذا هناك الشعور بأن حقيقة الحياة هو لا نهائيتها الداخلية وأن وراء صيغها النهائية لانهائية لا تحصرها أية صيغة من الصيغ، ولا يحتويها أي نظام من الأنظمة. والحياة ليست حقيقة بسيطة منتهية، وإنما هي تأثير متواصل، ليست وجودا خالدا وإنما هي صيرورة مستمرة، تقوم على الخلق وإعادة الخلق. يقول روح الأرض في فاوست القديم لغوته :

في أمواج الحياة، في عواصف المآثر
أفور صعودًا وهبوطًا،
أنسج هنا وهناك !
ولادة وقبر،
بحر سرمدي،
وحياة متغيرة !
هكذا أنسج في نول الزمن العاصف
وأصنع ثوب الألوهية الحي.

الطبيعة كيان فاوستي لا تحصره نهاية، ولا يحوزه واقع، فالطبيعة تخلق وتبدع، وهي الفنانة الكبرى. جوهر الحياة يتمثل في ذلك الاندفاع الخالد المنطلق من الصراع بين لا نهايته الداخلية ونهايته الخارجية (فهو داخليا إحساس بالشباب الخالد، بالقوة الخالقة، والحرية الإلهية، التي لا تنفصل عن الإحساس الحقيقي بالحياة) وقوته هي كل شكل يتكاثف بالضرورة وينحل وينتقل وينطلق نحو العلاء[1].

يقوم مذهب عصر غوته كله على الإحساس بلا نهاية الحياة، ففي الإنسان الطبيعي ينشب الصراع بين اندفاع النهائية واندفاع اللانهائية، بين الفردية

1. فاوست غوته، ص. 371.

والعمومية، بين البحث عن الصيغة المثلى وبين الهروب منها. لقد حاول غوته تجسيم فكرة الفردية، وهي فردية لا تتغير مع الإنسان في مظهره وطبيعته الداخلية، التي هي بالنسبة إليه المصير والمآل، ليست من حقه الطبيعي فقط، وإنما هي من واجبه أيضا، وما من حياة إلا ولها هذا المعنى. لذلك قال ويلهلم مايستر: "ولأقل لك ذلك في كلمة واحدة، لقد كان هدفي منذ أيام شبابي أن أثقف نفسي على الصورة التي أنا عليها الآن". بمعنى أن أصبح ما أراد لي إلهي أن أكونه. فالفردية إذن هي أعمق حق وأنبل واجب عند الإنسان ـ كل ما يتصل بشخصية الإنسان من فوز وإحباط، وتأثر وتأثير، وتطور وتخاذل، وثقافة، وقلة دراية يساهم في كل ما يتعاقب على حياته من سعادة وشقاء، وتعاسة وهناء.

وللفردية في حركة العاصفة والاندفاع طبيعة أكثر تطرفا مما كانت عليه في عصر التنوير، فقيمة الفرد عند ليسينغ وفريدريش غوتليب كلوبستوك (Friedrich Gottlieb Klopstock 1803-1724) بما كانت تحمله من قوانين أخلاقية معترف بها عموما لا علاقة لها بهذه الفردية[1]. فليست الفردية هي التي تجسم القيمة، وإنما الفضيلة هي التي تجسمها إذا ما هي تمثلت في شخصية ما. ولكن الفردية كما منحتها الطبيعة أصبحت الآن مقدسة – وراء الخير والشر كما أوجدها الإله في تفردها و انعدام نظيرها. لقد أصبحت لهذا الإنسان الطبيعي، الذى لم تكن له قيمة عند أصحاب مذهب التنوير، قيمة ميتافيزيقية في حركة العاصفة والاندفاع، وبذلك صارت الأخلاق تنبع من الفرد

---

1. برينر، ص. 72.

نفسه ولا تملى عليه إملاء من الخارج، وما ينطوي عليه الفرد، لا يتعلمه من خارج ذاته، وإنما يطوره من شعوره الخاص ومن ضميره الأخلاقي المتفرد.

الأخلاق أمر شخصي، أمر فردي، فريد من نوعه، لا ينقله فرد إلى آخر، وما الطبيعة الأخلاقية إلا حق من حقوق الفردية وواجباتها القديمة. عندما يطلب غوتس السماح له بالخروج من القلعة، التي احتمى بها، يسمح له بذلك، ولكن رجال الحاكم يغدرون به، ويلقون عليه القبض، ويرغمونه على أن يقسم، لكي يستعيد حريته، بعدم رفع السلاح مرة أخرى[1]. وحين يتم إطلاق سراحه، يثور الفلاحون ويطلبون منه أن يكون قائدهم، فيتردد أولا ثم يقبل ذلك، مع أنه كان يعلم أن في قبوله لذلك نقضا لعهد كان قد قطعه على نفسه، وهو عدم رفع السلاح. لقد كان يرجو أن يجعل ثورتهم تسير في طريقها السليم الصحيح، الأمر الذى سمح له بنقض كلمته، التي كان يبدو أنها ستحول بينه وبين عمل الخير، ذلك أن مثل هذا التصرف يقوم على أساس من خلق شخصي أو استقلال خلقي. وبذلك لا تتحقق نية غوتس الحسنة، إذ يفهمه قضاته فهما سيئا، فيموت كسير القلب بعد أن عجز عن تحقيق ما كان يريد تحقيقه بناء على إخلاله بما كان قد تعهد به[2].

وكان استقلال إيغمونت الخلقي من نوع آخر، فهو يرفض الحياة بصورة قاطعة إذا هو لم يستطع أن يحياها على النحو الذى ينسجم مع طبيعته الداخلية، بمعنى أن يكون حرا مستقيما له ما للإنسان في الأراضي المنخفضة من

---

1. كورف، ص. 79، بريتر، ص. 90.
2. بريتر، ص. 94.

إباء وأنفة. ففي إمكانه أن يعيش فيها في حالة ما إذا انهـزم أمـام هرتسـوغ ألبـا وألزم نفسه بما نصحه به أصدقاؤه مـن مغـادرة بروكسـيل[1]. لكنـه اختـار البقـاء فيها، فأمر هيرتسوغ ألبا باعتقاله والحكم عليـه بالإعـدام .لقـد حاولـت حبيبتـه كليرشن أن تحرض الشعب، الذي كان يعتبره بطله وأمله في الخلاص مـن الـنير الإسباني، على الثورة لانتزاعه من يـد جـلاده بـالقوة، وحـين فشـلت في ذلـك، قررت أن تضع حدا لحياتها. وفي الليلة الأخيرة تظهر له في حلمـه " الحريـة في لباس سماوي، تعلوهـا ملامـح كليرشـن"، وتلمـح لـه بـأن موتـه سـيكون طريـق الهولانديين إلى الحرية، وتقدم له إكليلا من الغار. وهكذا ذهب إغمونت ضـحية إبائه، وحرصه على أن يكون كما هـو، ورفضـه إنكـار مـا نسـب إليـه مـن تهـم سياسية.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الفردية في حركة العاصـفة والانـدفاع بمثابـة تكثيـف لعصر التنوير وتعميق له، فقد كان هذا العصر ينظر بدوره إلى الحياة على أسـاس مـن الفردية. ولا نصل إلى عمق الشعور بالحياة عند حركة العاصفة والاندفاع إلا إذا نحـن عرفنا الجانب الأخر، الجانب المتمثل في الشعور بالنهائية، وعرفنا النموذج الإنساني الفاوستي الذي نشأ عنها. ويتمثل جوهر هـذا الإنسـان النمـوذج في اتسـاع الشخصـية والفردية، إذ هـي تصبح عموميـة، وفي التغلـب علـى حـدود الفرديـة الضـيقة، بـل المحدودة على الخصوص[2]. فقد ظهرت له في أشكال محدودة، ولكن كيانه يتمثل في تحطيم هـذا الشـكل الفـردي وتوسـيعه، وهـذا هـو الانـدفاع الغـامض عنـد الإنسـان

---

1. كورف، ص. 81.
2. نفسه، ص. 84.

الفاوستي، فهو لا يبرهن على وجدوده بنفسه فقط، وإنما يريد التغلب على "النفس" لتشمل الكون كله وتنضوي عليه. فاوست يحس بأنه واقع تحت سطوة شيطانية داخلية، تتعدى محيط قوة العقل المحدود وترغمه على فعل شيء لا يفهمه العقل. هذا هو الإحساس بالحياة عند حركة العاصفة والاندفاع، وهي تقوم في أعماقه على تنمية الإحساس ثانية بما للحياة من شيطنة، فالإنسان كبير حين تتسامى نفسه حتى تبلغ شيطان حياته. ولغوته في هذا نموذجان : نموذج فاوست، الذى تظهر لانهائيته في الاندفاع نحو الواقع، لأنه إنسان العمل والمتعة، وتتمثل لانهائيته في تجربة جميع أنواع الحياة الممكنة. أما نموذج فيرتر فتظهر لا نهائيته في الخيال، في الشخصية الفنية الحالمة، ولذلك يعتبر فيرتر أول رومانسي ألماني، وهذا الرومانسي هو الإنسان الذى يرى جميع أشياء العالم عن طريق إحساسه بالبعد الميتافيزيقي للعالم في ضوء من الألق الشعري، ولذلك يؤلمه اصطدامه بعالم الحقيقة أو بعالم الواقع[1]. والطبيعة لها جانبان، جانب محدود، وجانب غير محدود، جانب غير خاضع للإرادة، وجانب فكري. لوته في فيرتر وغريتشن في فاوست تمثلان جانبا من الطبيعة، وفاوست وفيرتر يمثلان الجانب الآخر. المرأة تمثل نزعة الطبيعة إلى الاحتفاظ بالشكل، والرجل يمثل النزعة إلى تدمير الشكل، أو الرجل يتجه إلى الحرية، والمرأة تتجه إلى الصمت. Nach Freiheit geht der Mann, das Weib nach Stille[2].

1. لوكاش، ص. 17 وما بعدها.
2. كورف، ص. 89.

وهكذا يتحول التشاؤم من الثقافة في حركة العاصفة والاندفاع إلى التشاؤم في الطبيعة، بسبب نهائيتها ولانهائيتها وما يقوم بينهما من الصراع عنيف□. ومن هذا الإحساس الجديد بالمشكلة الداخلية في الطبيعية والحياة ينشأ صراع في حركة العاصفة والاندفاع. و يعد كتابا غوته في شبابه، وهما فيرتر وفاوست في صورته الأولى، شاهدين على هذا الصراع. فآلام فيرتر ناتجة عن شقائه في حبه لفتاة مرتبطة بغيره، إلا أن أسبابها العامة تعود إلى الواقع، فالحب ما هو إلا لحظة تنضاف إلى ذلك وتتولى حمل أعباء تطور المرض في حياة فيرتر، التي كانت قد تحطمت منذ مدة. فآلامه تعود إلى خيبته في الحياة العامة، إذ هي آتية من حياته الطبيعية بقدر ما هي آتية من اختلاطه بالمجتمع المثقف. ومن ثم كان يميل إلى أن يشغل خياله، الذي تصدع في عمق أعماقه، بمواضيع أخرى تدور حول الموت، فينظم إحساسه بذلك في قوالب شعرية ساحرة،وتظل فكرة الموت تنمو إلى أن تنتهي به إلى الحضيض. وهكذا ينتهي الشعر الذي أضاء الدنيا بنور شعري لم يضئه بها غيره كشكوى صامتة من العالم، الذي لم يحتفظ في نهائيته بما تعده به لا نهائيته□.

وفاوست القديم يختلف عن فاوست الجديد، فالأول لا يوقع عقدا مع الشيطان، وكان قوامه استحضار روح الأرض ومأساة غريتشن. وهنا يظهر اندفاع الحياة اللانهائي عند ه، ويمكن وصفه بروح الحياة، وهو ينبع من نفسه لا من غيره، لذلك يندفع إلى الحياة، ولكن اندفاعه إلى اللانهاية يسعى إلى الكشف عن

3. فاوست غوته، ص. 461 وما بعدها.
1. لوكاش، ص. 179.

منابع الحياة كلها، إلى الكشف عن لانهائية الحياة الداخلية نفسها، لذلك كان عليه أن يستحضر روح الحياة نفسها. وهو، رغم اندفاعه نحو اللانهاية، ليس إلها، وإنما هو أحد تلك المخلوقات، التي تسحر كل من يسعى إلى تحويل اندفاع الحياة اللانهائية الإلهية إلى شكل نهائي يتصل بمخلوق أرضي. وهذا المخلوق لا يحتمل الحياة ولا يفهمها إلا في أشكالها المحدودة لا في عظمة لا نهائيته الداخلية. وتكون نهاية استحضار روح الأرض مأساوية، لأن فاوست النهائي لا يستطيع إدراك لا نهائية الحياة الداخلية، ولكن حبه لغريتشن ينتهي نهاية مأساوية لأن هيأتها المحدودة لا يمكن أن تفي بمطالبه اللامحدودة، التي تشمل الكون وتريد أن تستقطب سعادة الحياة كلها، وهنا تكمن مأساته ومأساة محدودية طبيعته[1]. لكن حركة العاصفة والاندفاع لم تكن وضعا مستمرا، ومن ثم استطاع غوته وشيلر مثلا التغلب عليه، في حين لم يستطع غيرهما ذلك فانتهى معها كما انتهت معه. وقد عبر غوته عن ذلك بشكل عام[2] :

هيا ! أطع إشارتي،
واستغل أيامك اليافعة،
وتعلم مبكرا أن تكون ذكيا :
فعلى ميزان السعادة الكبير
نادرا ما يقف اللسان ضامنا.

---

1. Martini, Fritz, Deutsche Literaturgeschichte, Stuttgart,1968 مارتني، ص. 245 و267 وما بعدها

2. كورف، ص. 99.

عليك أن تصعد أو تنزل،
عليك أن تحكم أو تكسب
أو أن تخدم وتفقد،
أو أن تعاني أو تنتصر،
أن تكون السندان أو المطرقة.

الترجمة في تجربة المغرب العربي

د. علي القاسمي
أستاذ جامعي وكاتب،
مستشار مكتب تنسيق التعريب بالرباط.

100. تقديم

الترجمة ضرورة حضارية ونشاط فكري وعملية لغوية، يحتمها الاحتكاك بين شعوب ذات ألسنة متباينة، سواء أكان هذا الاحتكاك مقصوداً لذاته أو حاصلا عرضا، وسواء أكان مباشرا كما في الحروب والهجرات والاستعمار أو غير مباشر كذلك الذي يتم عبر وسائل الإعلام والاتصال.

وتتطلب ترقية الترجمة وتحويلها من مجرد عملية لغوية شكلية إلى عملية حضارية عواملَ ووسائل يجب السعي إلى إيجادها بوعي وإدراك مسبقين، لكي تكون هذه الترجمة مؤثرة في تأويل المعرفة المنقولة وتأصيلها وتيسير الهجرة الحقيقية للأفكار والمناهج والأساليب إلى المجتمع المتلقي.

ولما كان تأسيس المعارف يحتاج إلى الإحساس والعقل معا، فبالإحساس نلاحظ الأشياء والحقائق بصورة موضوعية، وبالعقل نبذل جهداً ذهنياً لإحداث التغيير والتطوير، فإن الغرض من هذه الورقة إلقاء نظرة سريعة على تجربة الترجمة في المغرب العربي، وتحسس المشكلات والصعوبات القائمة، ثم إعمال الفكر في الطرائق التي من شأنها جعل الترجمة تقوم بدورها الحضاري الطليعي. (ليفي : 183)

ويشمل نطاق هذه الدراسة تجربة الترجمة في تونس والجزائر والمغرب منذ بداية القرن التاسع عشر وحتى بداية القرن الحادي والعشرين. وقد اقتصرت الدراسة على هذه الأقطار الثلاثة من أقطار المغرب العربي لتشابه ظروفها التاريخية، وتماثل أوضاعها اللغوية، وتقارب تجاربها الثقافية. وسنتناول بالعرض الوجيز أهداف الترجمة في هذه الأقطار، والعوامل المؤثرة في تنمية الترجمة ومدى توفرها فيها، ونتاج الترجمة من حيث الكم والكيف، وبعض الاقتراحات التي من شأن الأخذ بها ترقيةُ الترجمة وتفعيلها.

وغني عن القول إن تجارب المغرب العربي في الترجمة والتعريب " كثيرة لا يمكن رصدها وعرضها جميعا، وما التركيز على بعضها، هنا، إلا لاستخلاص الخصائص البارزة لتجارب محدودة عددا ولكنها متنوعة في سياقها وأوضاعها وفي دوافعها وأولوياتها ونتائجها" كما جاء في مخطط هذا المؤتمر.

200. أهداف الترجمة

من دراستنا لحركة الترجمة وطبيعة مؤسساتها في أقطار المغرب العربي نستخلص أن الأهداف المتوخاة منها قد اختلفت طبقا للفترات التاريخية المتعاقبة، وفي ضوء الظروف الاجتماعية والثقافية، وحسب سياسات السلطة الحاكمة المتباينة. ويمكن تلخيص هذه الأهداف فيما يلي :

210. الترجمة وسيلة اتصال بالدول الأجنبية

في أوائل القرن التاسع عشر، وقبل أن تقع أقطار المغرب العربي فريسة للاستعمار الفرنسي، مهما اتخذ هذا الاستعمار من تسمية كالحماية وغيرها، فإن الهياكل الإدارية الوطنية في هذه الأقطار لم تكن بحاجة إلى ترجمة للتواصل مع الأهالي، ولهذه فإن الحاجة إلى الترجمة آنذاك كانت محدودة على المستوى المركزي وتنحصر في الاتصال بالدول الأجنبية أو ممثليها أو مؤسساتها في عواصم تلك الأقطار. وفي حين كان المغرب في تلك الفترة مستقلا، كانت تونس والجزائر تخضعان شكليا للباب العالي وتتمتعان باستقلال ذاتي داخل الإمبراطورية العثمانية. ولهذا كانت مراسلات السلطة المركزية في هذين القطرين مع الاستانة تجري عادة باللغة الرسمية للإمبراطورية وهي اللغة التركية□. وكان نظام التعليم في هذه البلدان تقليديا يعتمد في

□. وكان بعض البايات يكاتب الباب العالي باللغة العربية متعللا بأنه "لا يضع خاتمه إلا على ما يفهم خصائص تركيبه". (مواعدة : 112).

بنيته على الكتاتيب والربط والزوايا وبعض المعاهد الإسلامية القديمة كجامع الزيتونة في تونس وجامع القرويين في فاس. وكانت المناهج في مرحلتها المتقدمة تنحصر في دراسة اللغة والفقه والتوحيد والأصول والتفسير. ولم يكن لدراسة اللغات الأجنبية أو الترجمة مكان في مناهج هذا النوع من التعليم.

ونتيجة لذلك فإن الترجمة كانت محدودة، وكانت أعداد المترجمين ضئيلة، وكان يجري إعدادهم على نطاق ضيق كذلك.

220. الترجمة وسيلة للاقتباس من النهضة الأوربية

عندما تولى محمد على باشا الكبير مقاليد السلطة في مصر عام 1805، أتجه إلى تنمية البلاد اجتماعيا واقتصاديا، فأرسل البعثات العلمية إلى أوربا واهتم بالترجمة بوصفها وسيلة لنقل المعارف والعلوم من الحضارة الأوربية. وكان للإصلاحات التي أحدثها والمؤسسات التعليمية التي أنشأها في مصر صدى كبيرا في أقطار المغرب العربي. كما وصلت مؤلفات رواد النهضة العربية في مصر مثل كتاب " تخليص الإبريز في تلخيص باريز" لرفاعة الطهطاوي (1801-1873) إلى مثقفي المغرب العربي وتأثروا بها. (مواعدة : 37-51)

ففي تونس مثلا نجد أن أحمد باي ـ باي تونس (1837-1855)، يسافر إلى أوربا ويتأثر بما يشاهد من نهضة سياسية واقتصادية وعلمية، ويؤسس بعد عودته مدرسة باردو العسكرية سنة 1840. وإذا كانت تلك المدرسة ليست متخصصة في الترجمة فإنها كانت تدرس العلوم العصرية باللغات الأجنبية، وقام المشرفون عليها وأساتذتها بنقل عدد من الكتب الأوربية العلمية والتقنية إلى اللغة العربية. ونجد بعد ذلك الوزير المصلح خير الدين التونسي (1810-1890) صاحب كتاب "أقوم

المسالك في معرفة أحوال الممالك" قد أشرف بنفسه على ترجمة عدد من الكتب الأوربية إلى العربية، وكان هو نفسه يجيد اللغة الفرنسية. وقد أسس هذا الوزير المصلح المدرسة الصادقية عام 1875 لتدريس اللغة العربية والعلوم العصرية واللغات الأجنبية (التركية والإيطالية والفرنسية) ليتمكن خريجوها وأساتذتها من نقل العلوم والتقنيات إلى العربية. ويتأثر الشيخ السنوسي التونسي بكتاب الطهطاوي عن باريس فيؤلف كتاب "الاستطلاعات الباريسية" الذي يدعو فيه إلى ترجمة الكتب العلمية الفرنسية للاستفادة منها في نهضة البلاد التونسية (مواعدة : 44-49).

وفي المغرب نجد أن السلطان عبد الرحمن بن هشام (1823-1859) يقوم بإرسال البعثات الطلابية إلى القاهرة وبعض البلاد الأوربية، وإنشاء مدرسة الهندسة بفاس الجديدة، وتأسيس "مدرسة الألسن" في طنجة، والدعوة إلى إصلاح مناهج التعليم في جامعة القرويين، ويشرف ولي عهده الأمير سيدي محمد على ترجمة موسوعة لالاند في الفلك التي كانت قد صدرت عام 1793. كما اضطلع أحمد السوسي بترجمة بعض كتب الحساب والهندسة من اللغة العربية إلى الفرنسية. (التازي : 76-77). وإذا كان بعض النقّاد يرى أن تلك الترجمات كانت "مجرد إرهاصات أولية، ارتبطت أساسا بتلبية حاجيات طارئة، لا تمثل أية استمرارية لحركة الترجمة في الأندلس" (علوش : 10)، فإن ذلك لا ينفي أن القادة ورجال الإصلاح آمنوا بأن التعليم والترجمة هما من وسائل نقل ثمار النهضة الأوربية إلى البلاد العربية.

وعلى الرغم من أن الجزائر كانت تمر في فترة سياسية مضطربة ووضع اقتصادي متدهور خلال الثلث الأول من القرن التاسع عشر، ما حرمها من الاقتباس من العلوم والتقنيات الأوربية بل أدى إلى سقوطها تحت السيطرة الفرنسية، فإننا لا نعدم أن نجد بعض رواد التجديد الإسلامي، مثل حمدان خوجة (1775-1840) الذي تعلم الفرنسية والإنجليزية إضافة إلى اللغة التركية، ونقل كتاب "إمداد الفتاح" في المذهب الحنفي من التركية إلى العربية، وألف كتابا باللغة الفرنسية بعنوان "المرآة : لمحة تاريخية وإحصائية عن دولة الجزائر"، ودعا في كتابة "إتحاف المنصفين" إلى "وجوب الأخذ بالحضارة الأوربية." (عقاب : 25)

230. الترجمة وسيطة بين الإدارة الاستعمارية والأهالي

استعمرت فرنسا الجزائر عام 1830، ثم دخل جيشها تونس عام 1881، وفرضت حمايتها على المغرب عام 1912.

وكانت الإدارة الفرنسية في هذه الأقطار بحاجة إلى المترجمين ليكونوا وسطاء بين السلطة الفرنسية وأهل البلاد. ولهذا فإنها اهتمت بالمترجمين ورفعت من شأنهم، فكانوا يحملون رتبا عسكرية في الجيش الفرنسي بالجزائر. كما هيأت لهم هذه الإدارة وسائل العمل، وألف مستعرب فرنسي هو شربونو أوغست Auguste "قاموس عربي فرنسي" عام 1876، كما ألف لوي ماشويل Louis Machuel، الذي كُلف بإدارة التعليم العمومي في تونس عام 1883 - أي بعد دخول الجيش الفرنسي البلاد بأقل من سنتين - كتاب "دليل الترجمان" إلى جانب كتب أخرى في تعليم اللغة الفرنسية. وما إن دخل الجيش الفرنسي المغرب عام 1912 حتى أمر المقيم الفرنسي العام الجنرال ليوطي بإنشاء (المدرسة العليا للترجمة) "لإيجاد وسطاء بين الفرنسيين والمغاربة." (علوش : 25)

240. الترجمة طريقة لتعليم اللغة الأجنبية

تطورت طرائق تدريس اللغات الأجنبية ومرت بمراحل مختلفة منذ القرن التاسع عشر حتى الآن. ويمكن أن نذكر هنا أربع طرائق رئيسة هي :

أ- طريقة الترجمة والنحو، التي كانت شائعة في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين

ب- الطريقة المباشرة، التي كانت مستعملة في النصف الأول من القرن العشرين

ت- الطريقة السمعية النطقية التي كانت معروفة في أواسط القرن العشرين

ث- الطريقة التواصلية التي استعملت منذ الربع الأخير من القرن العشرين. (القاسمي، 1970 : 20-27)

وقد استخدمت طريقة الترجمة والنحو في تعليم اللغة الفرنسية في أقطار المغرب العربي في القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين. وتتلخص هذه الطريقة في ترجمة المفردات والنصوص والتراكيب، وتحفيظ الطلاب القواعد النحوية للغة الأجنبية التي يراد تعلمها. وليس المقصود بترجمة المفردات والنصوص من اللغة الأجنبية إلى اللغة الأم وبالعكس تدريب الطلاب على الترجمة، وإنما وسيلة لتعليم اللغة الفرنسية والتمكن من فهمها والتعبير كتابيا بها.

فقد كان نشر الثقافة الفرنسية وتعميم استعمال اللغة الفرنسية في طليعة أهداف الاستعمار الفرنسي. ولهذا يقول محمد مواعدة: "إن دخول الجيش الفرنسي إلى تونس وإقامة نظام الحماية في 12 ماي 1881 لا يمثل حدثا عسكريا وسياسيا فقط، بل هو أيضا منعرج مهم في الميدان الفكري واللغوي ما دام انتشار لغة من

اللغات مرتبطا أشد الارتباط بقوة أهلها... وللوصول إلى هذه الغاية أعدت حكومة الحماية منذ السنوات الأولى لانتصابها بتونس برنامجا تعليميا يهدف إلى جعل أبناء السكان مهما اختلفت جنسياتهم يتعلمون اللغة الفرنسية" وجعل أذهانهم تتكيف والنظريات الفرنسية" (مواعدة : 70). ويعلق الناقد المغربي سعيد علوش على هذا بقوله: "ولم يكن الأمر يقتصر على تونس وحدها بل سبقتها الجزائر ولحق بهما المغرب." (علوش : 29)

ولكن الإدارة الفرنسية في بلدان المغرب العربي وجدت أن إدخال دروس الترجمة (من الفرنسية إلى العربية وبالعكس) في مناهج المدارس والمعاهد يخدم غرضين من أغراضها، في آن واحد، هما: تعليم اللغة الفرنسية ونشرها في هذه البلدان، وإعداد العناصر الضرورية من المترجمين لتكون وسيطة بينها وبين الأهالي في الإدارة والقضاء والجيش سواء في المستوى المركزي أو المحلي. وهكذا أصبحت وظيفة مترجم من الوظائف البارزة والهامة في هياكل إدارة الحماية الفرنسية في بلدان المغرب العربي. (مواعدة : 112- 113)

250. الترجمة وسيلة لتعريب التعليم والإدارة

حصلت تونس والمغرب على استقلالهما عام 1956 وانتزعت الجزائر استقلالها عام 1962. وفي الحال اتجهت نية هذه الأقطار إلى التخلص من لغة المستعمر القديم التي كانت اللغة الرسمية لهذه البلدان، وإحلال اللغة الوطنية محلها في التعليم والإدارة والقضاء وجميع مرافق الحياة الاجتماعية والاقتصادية، ليكون الاستقلال السياسي مدعما بالاستقلال الثقافي. ويتطلب هذا الأمر إعداد المترجمين

القادرين على تعريب الإدارة ووثائقها، وتكوين المختصين المتمكنين من تعريب التعليم ومناهجه، وتوفير المصطلحات العلمية والتقنية اللازمة باللغة العربية.

وهكذا نجد أن الجزائر تقرر سنة 1963 – أي بعد عام واحد فقط من استقلالها- إنشاء "المدرسة العليا للترجمة" لإعداد مترجمين "مخصصين لمصالح العلاقات الخارجية والإرشاد الإداري والمصالح العمومية والمنظمات ولجان التسيير والمقاولات الصناعية والتجارية." (بن عيسى : 47)

وفي تونس حيث انتعشت بعد الاستقلال آمال في تعريب الإدارة والتعليم أُنشئ "معهد بورقيبة للغات الحية" بمقتضى الأمر عدد 51 لسنة 1964 الذي نصّ على الغرض من إنشائه : "لتعليم اللغات والنقل والترجمة" (عبيد: 86)

وما إن تستقل المغرب حتى تسارع إلى إنشاء معهد الدراسات والأبحاث للتعريب ثم المكتب الدائم لتنسيق التعريب في الوطن العربي من أجل توفير المصطلحات العلمية والتقنية وإجراء الداسات والبحوث اللغوية اللازمة لتعريب الإدارة والتعليم.

260. الترجمة أداة للتواصل في العمل الدولي

إن تكاثر المنظمات الدولية والإقليمية كمنظمة الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة ومنظمة المؤتمر الإسلامي والمنظمات العاملة في إطارها، وتزايد مكاتبها وفروعها في عواصم المغرب العربي ومدنه الكبرى، وتفاقم أنشطتها من مؤتمرات وندوات واجتماعات ومطبوعات، أدى إلى تعاظم الحاجة إلى الترجمة التحريرية والفورية. وهكذا أصبحت مهنة المترجم الدولي مهنة مربحة تحظى بإقبال النابغين باللغات. ومن هنا نجد أن أحد أحدث معاهد إعداد المترجمين في المغرب العربي، وهو مدرسة

الملك فهد العليا للترجمة في طنجة التي بدأت عملها خلال العام الدراسي 86–1987، تضع في طليعة أهدافها تخريج المترجمين القادرين على العمل في المنظمات الدولية والإقليمية. وقد تمكن عدد لا بأس به من خريجيها من الالتحاق فعلا بالمنظمات الدولية والإقليمية. (دليل المدرسة : 1–18)

300. العوامل المؤثرة في تنمية الترجمة

لأن الترجمة ليست مجرد عملية نقل لغوي، وإنما هي ضرورة حضارية وحركة ثقافية ونشاط علمي كذلك، كما ذكرنا، فإن العوامل المؤثرة فيها إيجابا وسلبا لا تقتصر على العوامل اللسانية، وإنما تتعداها إلى العوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية. ويمكن تلخيص أهم هذه العوامل بما يلي :

1. الوضعية اللغوية في البلاد

ويشتمل هذا العامل على شقين أساسيين، هما :

أ– تعميم استعمال اللغة الوطنية

ب– تعليم اللغات الأجنبية

2. توفر العناصر البشرية المؤهلة

ويتطلب ذلك الإعداد التقني الجيد للمترجمين في معاهد متخصصة في تعليم تقنيات الترجمة.

3. وجود مؤسسات البنية التحتية للترجمة

والمقصود بها نوعان رئيسان من المؤسسات، هما :

أ– المؤسسات اللغوية والمعجمية والمصطلحية

ب– المؤسسات الوطنية للترجمة

4. التشريعات المشجعة على الترجمة

وتتناول هذه التشريعات جوانب مختلفة من عملية الترجمة أهمها :

أ– التشريعات المتعلقة بتعميم استعمال اللغة العربية وتنميتها

ب– التشريعات المتعلقة بحقوق المترجمين واتحاداتهم

ت– التشريعات المتعلقة بنشر الترجمات وتشجيعها

5. البحوث العلمية في نظرية الترجمة والترجمة الآلية

وسنتناول هذه العوامل بإيجاز فيما يلي :

310. الوضعية اللغوية في المغرب العربي

311. تعميم استعمال اللغة العربية

لقد فرض المستعمر الفرنسي لغته الوطنية على بلدان المغرب العربي، وعمم استعمالها في مختلف مرافق الحياة : في التعليم والإدارة والقضاء والجيش والقطاعات الاقتصادية، بل ونجح في تشجيع الأسر المغربية على تلقينها لأطفالها منذ ولادتهم. كما أبعد اللغة العربية بوصفها لغة ميتة لا تصلح إلا في الصلاة في المساجد كما تُستعمل اللاتينية في طقوس العبادة في بعض الكنائس الأوربية. وذهب إلى أبعد من ذلك عندما أصدرت السلطات الفرنسية في الجزائر مرسوما يوم 1938/3/8 أعلنت فيه أن اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر (الهلالي : 62). وهذا مجرد مثل يساعدنا على تصور الصعوبات التي واجهتها أقطار المغرب العربي في محاولاتها لاستكمال تعريب التعليم والإدارة فيها بعد الاستقلال.

ونظـرا لأن هـذه الأقطـار – شـأنها شـأن أقطـار المشـرق العربـي – لا تمتلـك استراتيجية تعريب وطنية ثابتة، وإنما تمارس تعريبا ظرفيا معرضا للتغيير والتعديل حسب السياسات المتحولة، فإن عملية التعريب فيها قد انتكست عدة مرات.

وهكذا يمكن القول إن الوضعية اللغوية في هـذه الأقطـار قـد انتهـت إلى ثنائيـة عربية فرنسية، على الرغم من أن دساتير أقطار المغرب العربي تنص علـى أن اللغـة العربية هي اللغة الرسمية للبلاد[1]. وفي الوضع اللغـوي الحـالي في هـذه الأقطـار، لا يمكن وصف اللغة الفرنسية بأنها لغة أجنبية وإنما هي لغة ثانية تستعمل إلى جانب اللغة العربية في مجالات معروفة في الحياة الثقافية والاقتصـادية والاجتماعيـة. ففـي الإدارة مثلا نجد الفرنسية تستعمل في الإدارات الاقتصادية والتقنية. وأمـا في التعلـيم فـإن العربيـة هـي لغـة التعلـيم في المـرحلتين الابتدائيـة والثانويـة وكليـات العلـوم الإنسـانية، في حـين تسـتعمل الفرنسـية لغـة في التعلـيم الجـامعي العلمـي والمهـني والتقني، ما عدا تونس التي قصرت التعريـب علـى المـرحلتين الابتدائيـة والمتوسـطة وبعض التخصصات الإنسانية في التعليم العالي.

وللوقوف على مدى صعوبة التعريـب في هـذه الأقطـار يكفـي إلقـاء نظـرة علـى المعارك الصحفية التي تدور حول التعريب باستمرار[2]. وقد تحدّث بالتفصيل عن مثل

---

1. ينص الدستور التونسي الحالي في فصله الأول علـى أن العربيـة هـي لغـة الدولـة التونسـية، ويـنص الدسـتور الجزائري الحالي (1996) – شأنه شأن سابقيه دستور 1976 ودستور 1963 – على ان العربية هي "اللغة الوطنية والرسمية" للبلاد، كما ينص الدستور المغربي الحالي (1996) كالدساتير التي سبقته منذ سـنة 1962 على رسمية اللغة العربية.

2. نضرب مثلا من إحدى المعارك الصحفية التي تدور باستمرار حول التعريب منذ استقلال هذه الأقطار قبـل مـا ينيف على أربعين عاما. فقد أحال مؤخرا وزير الوظيفة العمومية في المغرب على الأمانة العامة للحكومـة مشـروع مرسوم تصبح بمقتضاه الإدارة المغربية والجماعات المحلية والمؤسسات العمومية ملزمة باستعمال اللغة العربية، وإن عدم الاستعمال يعتبر خطأ مهنيا تترتب عنه المسألة التأديبية. وفي اليوم التالي تقريبا تصدى لهذا الأمر مقال المحرر المنشور في الصفحة الأولى من جريدة "الاتحاد الاشتراكي"المغربية ليوم (2001/9/7) ومديرها السيد عبد الرحمان اليوسفي، الوزير الأول المغربي، وكاتب المقال هو السيد حسن نجمي، رئيس اتحاد كُتّاب المغرب . وورد فيه ما يلي

: " يبدو الأخ محمد خليفة، وزير الوظيفة العمومية متحمسا لفرض صيغة قانونية تلزم الإدارات المغربية باستعمال اللغة العربية في مجموع إدارات الدولة والجماعات المحلية والمؤسسات العمومية. والوزير... يعلم جيدا أن هناك منشورا سبق وأصدره الوزير الأول الأستاذ عبد الرحمن اليوسفي في نفس الموضوع يحتاج إلى تفعيل. لذلك تقدم الوزير... بمشروع مرسوم إلى الأمانة العامة للحكومة يعتبر فيه عدم استعمال اللغة الرسمية للدولة (أي العربية) "خطأ مهنيا خاضعا للمساءلة التأديبية"... لكنني أتصور أن الأمر ليس بنفس السهولة التي نتصورها... هناك وضع ثقافي ولغوي معقد في المغرب. وهناك حساسية معلومة في الحقل اللغوي تحديدا تبلورت ضمن سيرورة تاريخية وثقافية وإثنية. كما أن هناك مصاعب تطبيق لا ينبغي تجاهلها بحكم مكونات ونسيج الإدارة المغربية كما تمت "عصرنتها" خلال المرحلة الاستعمارية ومراحل تأسيس عهد الاستقلال..." (نجمي : 1)●●●

●●● وفي اليوم نفسه (2001/9/7) صدر تعليق بعنوان "التعريب" في جريدة (ليكونوميست) وهي جريدة مغربية مفرنسة جاء فيه :

"إن كلمة التعريب لها رنة سيئة في آذان المغاربة وإنها مجرد شعار وطني كان له مغزى عند الاستقلال وبني عليه تعليم متدهور ودبلومات ضعيفة، وإنه مجرد ديماغوجية لا يمكن أن تغالط أحدا... وإن هناك موظفين، كبارا وصغارا، لا يشتغلون إلا بالفرنسية، لا لأنهم يحبونها أو متمكنون منها، وإنما لأن تخصصهم في الإعلاميات وفي قنوات المياه لا يوجد، سواء على مستوى التكوين أو التطبيق إلا بالفرنسية. فإذا فرضنا عليهم التعريب فإن أغلبيتهم ستصبح مجمدة ومضافة إلى صفوف الموظفين المتقاضين للمرتبات بدون أن يقوموا بأي عمل، الأمر الذي سيضعف مردودية الخدمات وبالتالي سيضر بالمواطنين."

وفي يوم 2001/9/18، صدر مقال طويل في جريدة (العَلم) كتبه نقيب المحامين يردّ على الصحيفتين المذكورتين، جاء فيه :

"نرى أن مشروع المرسوم بإلزامية استعمال اللغة العربية ما هو إلا تطبيق قانوني لمقتضيات الدستور المغربي الذي يعتبر أعلى قانون في البلاد... ورغم مرور أكثر من أربعين سنة على صدور أول قانون ينص على رسمية اللغة العربية، فإن الإدارة المغربية والمؤسسات العمومية التابعة لها ظلت ولا زالت تتعامل داخليا ومع بعضها ومع المواطنين بالفرنسية غير آبهة بالدستور ولا بالمنشورات العديدة المتوالية الصادرة من الوزراء الأولين (رؤساء الوزارات) التي تحثها على استعمال اللغة العربية ومن بينها، على وجه المثال المنشور رقم 1 الصادر في 1966/3/17 عن نائب الوزير الأول المكلف بالتنمية إدريس المحمدي، والمنشور رقم 69 المؤرخ في 1972/2/16 الصادر عن الوزير الأول محمد كريم العمراني، والمنشور رقم 122 الصادر في 1973/10/5 عن الوزير الأول أحمد عصمان، والمنشور رقم 58/98 المؤرخ في 1998/12/11 الصادر عن الوزير الأول عبد الرحمن اليوسفي. كما لم تنفع حتى الآن عشرات من الأبحاث والمقالات والنداءات التي تدعو إلى استعمال اللغة العربية، كتراث وطني وحضاري وقومي في جميع مجالات الحياة بما فيها الإدارة... إن رسمية اللغة، أية لغة، مسألة قانونية ولا علاقة لها بالحساسيات. وغالبا ما تختار الدولة أو الأمة، عبر استفتاء، إحدى لغاتها الوطنية الأكثر رقيا وتقدما، والأكثر معرفة وانتشارا بين مواطنيها من أجل ترسيمها وبالتالي استعمالها رسميا للتواصل داخليا ودوليا..." (بن عمرو : 6)

وفي يوم 2001/9/20، كتب مدير جريدة العلم الأستاذ عبد الكريم غلاب، في عموده اليوم المشهور "مع الشعب" مقالا حول الموضوع ختمه بالفقرة التالية : "فإلغاء العربية من الإدارة مخالفة دستورية وقانونية يعاقب عليها القانون. ولذلك أصبحت الحكومة ملزمة بأن تطبق الدستور الذي فرض وطنية اللغة العربية منذ نحو أربعة

هذه الصعوبات التي تحول دون التعريب الناجز في الإدارة والتعليم العالي لغويّ جزائريّ. (بلعيد: 238-268)

ويتساءل المرء ما إذا كان عدم استكمال تعريب التعليم، وخاصة التعليم الجامعي العلمي والتقني، هو نتيجة قصور في المنهجية وانتكاس في العملية التعريبية، أم أنه خيار سياسي معلن أو غير معلن. ويرى عبد اللطيف عبيد أن الثنائية اللغوية، في تونس مثلا، هي خيار وطني قديم حتى قبل الحماية الفرنسية، وهدفه استخدام اللغة الأجنبية وسيلة لاستيعاب علوم الغرب وتقنياته. فعندما أنشأ المشير أحمد باشا باي مدرسة باردو الحربية عام 1840 استعملت اللغات الأجنبية في تدريس العلوم العصرية في تلك المدرسة، وعندما أنشأ الوزير المصلح خير الدين باشا المدرسة الصادقية عام 1875 جعل اللغة الفرنسية لغة لتدريس العلوم العصرية في تلك المدرسة (عبيد: 72-73)

وسواء أكانت الثنائية اللغوية في أقطار المغرب العربي اختيارا مسبقا أو قصورا في استراتيجية التعريب، فإن هذه الوضعية اللغوية، إضافة إلى عرقلتها للتنمية الاجتماعية الاقتصادية في هذه الأقطار، تلحق الضرر البين بالترجمة ذاتها، لأن المادة المترجمة سلعة ثقافية تخضع ـ كبقية السلع ـ لقانون العرض والطلب، فإذا تضاءل الطلب عليها لتمكن المستعمل من قراءة المادة بلغتها الأصلية، فإنه لا ضرورة لإنتاجها.

ومن الضروري أن نضيف هنا أن تعميم استعمال اللغة العربية لا يعني تعريب الإدارة والتعليم فحسب وإنما يعني كذلك محو الأمية بحيث تستطيع نسبة عالية من أبناء البلاد القراءة والكتابة، فكلما ازدادت هذه النسبة ازداد الإقبال على قراءة الكتب موضوعة كانت

عقود، ولا تعبأ بأي فرنكفوني يدافع عن "رزقه" بالتنكر للعربية. فليس من حق فرد يجهل العربية أن "يفتي" بعدم استعمالها أو يوجّه الحكومة إلى عدم تنفيذ المشروع الذي بين يديها لتعريب الإدارة." (غلاب : 1)

أو مترجمة. وتدلنا الإحصائيات التربوية أن نسبة الأمية عالية في أقطار المغرب العربي بحيث تناهز الـ 40٪ وتزداد هذه النسبة لدى النساء والكبار فتبلغ حوالي 50٪.

312. تعليم اللغات الأجنبية

تتطلب الترجمة في جانبها اللغوي إتقان المترجم اللغة المترجم منها واللغة المترجم إليها معا، كما تتطلب في جانبها المعرفي تضلّع المترجم في تخصص المادة المترجمة، أو كما قال أبو عثمان الجاحظ : "ولا بد للترجمان أن يكون بيانه في نفس الترجمة في وزن علمه في نفس المعرفة وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول إليها حتى يكون فيهما سواء وغاية." (الجاحظ 1:76)

وهكذا فإن تعليم اللغات الأجنبية في النظام التربوي إرهاص بظهور عدد ممن يتقنون هذه اللغات الأجنبية إلى جانب لغتهم الوطنية ما يساعدهم على الاضطلاع بالترجمة في المستقبل، إضافة إلى فتح نافذة لهم تطل على حضارات الناطقين بتلك اللغات. وهذا معنى متداول في الثقافة العربية حتى قيل : "كل لسان بإنسان" ونظمه بعضهم فقال :

بقدر لغات المرء يكثر نفعه ... وتلك له عند الشدائد أعوانُ
فبادر إلى حفظ اللغات مسارعا ... فكل لسان في الحقيقة إنسان

وقال آخر :

وإذا المترجم حاز أسرار اللغى ... روّى عباداً من إناء عباد

وإذا نظرنا إلى الخريطة اللغوية في النظام التربوي في أقطار المغرب العربي، نجد أنه باستثناء اللغة الفرنسية التي تُدرس في التعليم العام (المرحلتين الابتدائية

والثانوية)، فإن عدد اللغات الأجنبية التي تُدرّس في التعليم الثانوي محدود كما أن الساعات المخصصة لها محدودة. وتنفرد تونس في تعليم لغتين أجنبيتين (الفرنسية والإنقليزية) في المرحلة الإعدادية. وفي المرحلة الثانوية (أي السنوات الثلاث أو الأربع الأخيرة من التعليم العام) يُوجَّه التلميذ في تونس والمغرب إلى تعلم لغة أخرى يختارها من بين اللغات التالية : الإنكليزية، الإسبانية، الألمانية، الإيطالية. ويتحكم في الاختيار عوامل متعددة منها، مثلا، تخصص الطالب، فطلاب الشعبة العلمية يميلون إلى اختيار اللغة الإنجليزية، ومنها توفر المدرسين المختصين بهذه اللغات في مدرسة الطالب، ومنها المنطقة التي ينتمي إليها، فطلاب شمال المغرب مثلا يفضلون اللغة الإسبانية لانتشارها هناك لأسباب تاريخية، ومنها وجود أقارب للطالب هاجروا إلى أحد الأقطار الأوربية، وهكذا. أما في الجزائر فإن جميع الطلاب في المرحلة الثانوية يدرسون اللغة الفرنسية وبعضهم القليل يُتاح له إضافة الإنجليزية.

وفي التعليم العالي، نجد أن تونس قد أحدثت عام 1964 "معهد بورقيبة للغات الحية" لتعليم اللغات الأجنبية للتونسيين وتعليم العربية لغير الناطقين بها. وفي عام 1976 أصبح هذا المعهد تابعا للجامعة التونسية (جامعة تونس 1 للآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية) وأضيفت إليه مهمة تنظيم التعليم في النقل والترجمة. وتُدرس في هذا المعهد اللغات الفرنسية، والإنجليزية، والألمانية، والإسبانية، والإيطالية، والروسية، واليابانية، والصينية، والتركية. ويمنح شهادات فيها. وإضافة إلى ذلك فإن كليات الآداب في جامعة صفاقس وجامعة الوسط (سوسة) وجامعة القيروان، تشتمل على أقسام لدراسة الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية والإيطالية، وتمنحان الإجازة، والأستاذية، والدكتوراه في هذه اللغات.

أما في الجزائر فقد تأسس في جامعة الجزائر عام 1981 مركز التعليم المكثف للغات، وكذلك في جامعات أخرى، ولكن هذه المراكز لا تمنح الإجازة بل تقوم بهذه المهمة معاهد اللغات الأجنبية الموجودة في كل من جامعة تلمسان، وجامعة تيزي وزو، وجامعة عنابة، وجامعة فرحات عباس في سطيف، وجامعة العلوم والتكنولوجيا في وهران، وجامعة قسطنطينة، وجامعة وهران السانية. وتدرّس في هذه المعاهد اللغات الفرنسية، والإنجليزية، والإسبانية، والإيطالية،والروسية، والألمانية. ويستطيع الطالب الحصول على الإجازة الجامعية في إحدى هذه اللغات.

أما المغرب فلا تشتمل جامعاته على معاهد للغات الأجنبية، ولكن كليات الآداب والعلوم الإنسانية في بعض هذه الجامعات تشتمل على أقسام لتدريس اللغات الفرنسية والإنجليزية والإسبانية والألمانية والإيطالية، وتمنح شهادة الليسانس. كما تُعطى بعض الدروس الاختيارية في لغات أخرى من غير أن يحصل الطالب على شهادة الليسانس فيها وهذه اللغات هي الفارسية والعبرية والأردية والتركية واليابانية والروسية.

وخلاصة القول إن تدريس اللغات الأجنبية محدود في النظام التربوي في المغرب العربي، ويقتصر على عدد قليل من اللغات الأوربية، ويغفل لغات آسيا وأفريقيا، ولا تدرس لغة بعمق وإحاطة إلا اللغة الفرنسية التي تبدأ دراستها من المرحلة الابتدائية، بحيث لا نتوقع وجود مترجمين من لغات غير الفرنسية إلا نادرا. ولهذا نجد أن معظم الكتب المعرّبة في المغرب العربي منقولة من الفرنسية.

320. توفر العناصر البشرية المؤهلة

بصورة عامة، بقيت الترجمة في أقطار المغرب العربي، لمدة طويلة، يمارسها مثقفون أتقنوا لغات أجنبية ولكنهم لم يتلقوا إعدادا خاصا في الترجمة وتقنياتها. وسنعرض هنا ثلاث تجارب مختلفة ذات أهداف متباينة نوعاً ما :

321. المدرسة العليا للترجمة في الجزائر

كانت الغاية من قرار إنشاء هذه المدرسة عام 1963 (أي بعد عام واحد من الاستقلال) هي إعداد المترجمين الذين سيعملون في مختلف مرافق الدولة الإدارية والتربوية للمساعدة على تعريب تلك المرافق. فقد نص مرسوم إنشاء هذه المدرسة على أهدافها على الوجه التالي :

1. تكوين هيئة مترجمين معربين من ذوي الأهلية العليا من حيث علم اللغة متوفرين على ثقافة عامة متينة، ومخصصين لمصالح العلاقات الخارجية والإرشاد الإداري والمصالح العمومية والمنظمات ولجان التسيير والمقاولات الصناعية والتجارية.

2. تكوين هيئة مترجمين اختصاصيين من ذوي الأهلية العليا من حيث اللغة حائزين على دراية من المستوى العالي في الاختصاصات العلمية الرئيسية، ومخصصين للمصالح الفنية ومصالح الإرشاد أو التبادل والمنظمات الصناعية العلمية ومراكز الأبحاث والمختبرات والمدارس الاختصاصية.

ولهذا كانت هذه المدرسة تمنح شهادتين : الأولى، أهلية الدراسات العليا للترجمان، والثانية أهلية الدراسات العليا للترجمان المتخصص. وكانت مؤسسة تعليمية شبه مستقلة وفي عام 1970، أُلحقت هذه المدرسة بمعهد اللغات الأجنبية في جامعة الجزائر، وأصبحت دائرة من دوائر هذا المعهد، وأخذت تمنح شهادة ليسانس جامعية في الترجمة (بن عيسى : 47-48).

322. قسم الترجمة في معهد بورقيبة للغات الحية

أُنشئ عام 1976 قسمٌ لتكوين المترجمين في معهد بورقيبة للغات الحية (الذي أصبح اسمه الآن المعهد العالي للغات وهو تابع حاليا لجامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية بتونس). والدافع لإنشاء هذا القسم هو الحركة الاقتصادية المتنامية في السبعينات من القرن العشرين التي كانت تستدعي التعامل مع المؤسسات الاقتصادية والمالية الأجنبية في الخارج والداخل. وكانت مدة الدراسة في هذا القسم، للحاصلين على شهادة المدرسة الثانوية، أربع سنوات، ينال الطالب بعدها على الأستاذية (الإجازة) في الترجمة. ومنذ عام 1993، أصبحت الدراسة في هذا القسم سنتين بعد مباراة دخول يتقدم إليها الطلاب الناجحون في المرحلة الجامعية الأولى في مختلف الاختصاصات (وهذه المرحلة تتكون من السنتين الأولى والثانية في الجامعة). وتستعمل في تخصص الترجمة اللغات العربية والفرنسية والإنجليزية، علما بأن العربية هي اللغة الرئيسية ثم يختار الطالب اللغتين الثانية والثالثة. وإضافة إلى الدروس اللغوية وتقنيات الترجمة العامة، يدرس الطلاب الترجمة الاقتصادية والعدلية (القانونية)، والترجمة العلمية والتقنية. وقد تخرج في هذا القسم منذ إنشائه أكثر من ألف مجاز، ولكن أغلبهم يعمل في تدريس اللغات في المدارس الثانوية، بسبب الثنائية اللغوية السائدة في تونس وعدم حاجة المؤسسات الحكومية التي تستخدم الفرنسية إلى مترجمين (بن حميدة : 39-41، وعبيد : 86-87)

323. مدرسة الملك فهد العليا للترجمة في طنجة

لا علاقة لهذه المدرسة بالمدرسة العليا للترجمة التي أنشأتها الإدارة الفرنسية بالرباط عام 1912 لغايات مختلفة والتي انتهت مهمتها بانتهاء الحماية الفرنسية.

ولكن اختيار طنجة مقراً للمدرسة الجديدة يحمل دلالة خاصة إذ إنه يـذكّر بمدرسـة الترجمة التي أنشأها السلطان الحسن الأول في طنجة أواخر القرن التاسع عشر.

لقد تقرر إحداث مدرسة الملك فهد العليا للترجمة بطنجة عام 1983 وافتتحت خلال السنة الدراسية 1986-1987 بوصفها مدرسة تابعة لجامعة محمد الخامس بالرباط، ثم أُلحقت عام 1990 بجامعة عبد المالك السعدي في تطوان.

ويُقبل في هذه المدرسة – بعد النجاح في مباراة دخول – الطلاب الحاصلون على شهادة المرحلة الجامعية بتخصص لغات أو الحاصلون على الإجازة الجامعية في الآداب أو العلوم أو الاقتصاد أو الحقوق. وتتوفر المدرسة على ثلاث تشكيلات لغوية :

- عربية (أ) فرنسية (ب) إنجليزية (ج)
- عربية (أ) إنجليزية (ب) فرنسية (ج)
- عربية (أ) إسبانية (ب) فرنسية (ج)

ومدة الدراسة ثلاث سنوات لحاملي شهادة المرحلة الجامعية الأولى، أو سنتين لحاملي الإجازة الجامعية. ويحصل الطالب عند التخرج من المدرسة على دبلوم مترجم تحريري. ويشتمل البرنامج الدراسي على دروس في القانون والاقتصاد والقانون الدولي العام والعلاقات الدولية والمنظمات الدولية، إضافة إلى الدروس اللغوية وتقنيات الترجمة. وتعتزم المدرسة فتح سلك عال مدة الدراسة فيه سنتان وينتظم فيه خريجو المدرسة الراغبون بعد اجتياز مباراة دخول للحصول على دبلوم عال في الترجمة الفورية أو دبلوم عال في الترجمة التحريرية.(نشرة المدرسة التعريفية).

وبصرف النظر عن الأهداف المسطرة في قرار إنشاء هذه المدرسة، فإن نظرة فاحصة على برنامجها الدراسي والجهات التي استخدمت خريجيها، تدلنا على أن هذه المدرسة تعد المترجمين للعمل في المنظمات الدولية والإقليمية، ومكاتب الترجمة المهنية، ووكالات الأنباء والمؤسسات ذات الطابع الدبلوماسي، والبنوك وغيرها من مؤسسات القطاع الخاص. وتمكنت هذه المدرسة من تخريج 173 مترجما خلال السنوات العشر الأولى من عملها (أي من عام 1986 إلى عام 1996).

330. مؤسسات البنية التحتية للترجمة

المترجم كالبناء، لا يستطيع إنجاز عمله بالاعتماد على قدراته الذاتية فقط. وكما يحتاج البناء إلى ما تنتجه معامل الحدادة والنجارة والزجاج وغيرها لإمداده بأدوات عمله وبالمواسير والأبواب والشبابيك وما إلى ذلك، فإن المترجم يعتمد في عمله على ما تنتجه المؤسسات اللغوية والمعجمية والمصطلحية. ويمكن تسمية هذه المؤسسات بمؤسسات البنية التحتية للترجمة. وأهم هذه المؤسسات ما يلي :

331. المؤسسات اللغوية والمعجمية والمصطلحية

يُعدّ المعجم بأنواعه المختلفة، الأحادي اللغة والثنائية اللغة، اللغوي والمتخصص، الورقي والإلكتروني، وسيلة لا غنى عنها للمترجم. فهو أداته الرئيسة في عمله. وكلما توفرت المعاجم وتعددت أصنافها، وجد المترجم ضالته فيها، وتيسرت عملية الترجمة. ويحتاج المترجم بصورة خاصة إلى المصطلحات العلمية والتقنية في عمله خصوصا إذا كان يترجم في ميدان متخصص. والمصطلحات توجد

عادة في معاجم ورقية أو إلكترونية (الصوري : 16- 17 والقاسمي، 1992: 21-46)

وتقوم بإنتاج المعاجم المؤسساتُ اللغوية والمعجمية والمصطلحية، مثل المجامع اللغوية والعلمية، ومراكز الدراسات المعجمية والمصطلحية، ودور النشر المتخصصة. وتقوم هذه المؤسسات عادة بتصنيف المعاجم، وإصدار الدوريات اللغوية، وعقد الندوات واللقاءات العلمية حول قضايا اللغة والمعجم والمصطلح.

ونلاحظ في المغرب العربي وفرةً في هذا النوع من المؤسسات وجودة في إنتاجها. ويمكن تفسير ذلك برغبة أقطار المغرب العربي في استعادة هويتها اللغوية بعد أن طمسها الاستعمار الفرنسي، ومحاولاتها المتعددة لإنجاز التعريب الشامل وما يحتاجه من مصطلحات ومعاجم 82. وفيما يلي عرض موجز سريع لأهم هذه المؤسسات في المغرب العربي :

أ- تونس

أنشأت وزارة الثقافة عام 1982 " المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات ـ بيت الحكمة " التي كانت تشتمل على خمسة أقسام أولها وأهمها " المعهد الوطني للترجمة الأدبية والعلمية ووضع المصطلحات". وفي عام 1992 أصبح اسمها " المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون ـ بيت الحكمة ". وقد نص القانون عدد 116 لسنة 1992 على أن مهام هذا المجمع " تأليف المعاجم والموسوعات وترجمة المؤلفات." (عبيد: 82 وحميدة 42)

ب- الجزائر

وفي الجزائر اضطرت الدولة إلى إنشاء عدد من المؤسسات اللغوية لإحياء اللغة العربية وإعادة استعمالها في مرافق الحياة العامة. ومن هذه المؤسسات ما يلي :

– "المركز الوطني للترجمة والمصطلحات" الذي أنشأته وزارة التعليم العالي والبحث العلمي عام 1980، وجاء في نظام تأسيسه أن من مهامه "إنتاج قواميس ومعاجم مناسبة للفروع والاختصاصات" و"ترجمة الكتب الوجيزة المنسوخة والدروس المقررة في البرامج الجامعية إلى اللغة العربية..." (بن عيسى 49)

– "مركز ترقية اللغة العربية" في جامعة الجزائر الذي تولى إدارته مدة طويلة اللغوي المعروف عبد الرحمن الحاج صالح والذي تبنى مشروع "الذخيرة اللغوية"، وهو مشروع يرمي أساسا إلى بناء قاعدة للمعطيات النصية, وإنشاء معجم آلي للألفاظ العربية المستعملة، ومعجم آلي للمصطلحات التقنية المستعملة بالفعل. (الحاج صالح : 33–53)

– وأنشأت رئاسة الجمهورية الجزائرية عام 1998 "المجلس الأعلى للغة العربية" للتنسيق بين الهيئات المشرفة على عملية تعميم استعمال اللغة العربية وترقيتها وتطويرها" (كاشة : 257). ويقوم هذا المجلس بنشاط أكاديمي مكثّف، فهو يصدر مجلة فصلية عنوانها "اللغة العربية"، ويقيم مواسم ثقافية تلقى فيها محاضرات ودراسات ثم يصدرها في كتاب سنوي يحمل عنوان "أعمال الموسم الثقافي"، كما يعقد ندوات وطنية وعروبية□، وينشر المعاجم التي تساعد الإدارات

□. من الندوات الوطنية التي عقدها المجلس ندوة في مدينة عنابة صيف 1999 حول " إشكالية المصطلح الإداري"، وندوة أخرى عقدها في الجزائر العاصمة يومي 9و10 أبريل 2000حول " إتقان العربية في التعليم" وأصدر أعمالها في كتاب يحمل العنوان نفسه في العام

على التعريب□ ، إضافة إلى تنفيذ المهام المنوطة به. وتولى رئاسة هذا المجلس منذ تأسيسه حتى منتصف عام 2001، الأديب اللغوي المعروف الدكتورعبد الملك مرتاض، ثم أعقبه اللغوي الدكتور محمد العربي ولد خليفة.

هذا إضافة إلى مجمع اللغة العربية في الجزائر، الذي يتولى رئاسته الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح منذ سنة 2000

ج- المغرب

- في يناير / كانون الثاني 1960 أنشأت المملكة المغربية " معهد الدراسات والأبحاث للتعريب للمساعدة في تعريب الإدارة والتعليم في البلاد، أو كما ورد في نظام تأسيسه : " خدمة اللغة العربية وتحديث أدواتها باعتبارها عنصرا أساسيا في تحديد الشخصية الوطنية والهوية الثقافية لمغرب ما بعد الاستقلال" ويشتمل المعهد على "قاعدة المعطيات متعددة اللغات" التي تضم عشرات الآلاف من المصطلحات باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية، أُصدر قسم منها في معاجم ورقية. ويصدر المعهد دورية " أبحاث لسانية "، كما يجري عددا من الأبحاث اللسانية والمعجمية والمصطلحية، ويعقد الندوات واللقاءات العلمية لتطوير النظريات اللسانية والمعجمية والمصطلحية وتطبيقاتها. ويتولى إدارة المعهد حاليا اللغوي المعروف عبد القادر الفاسي الفهري.

نفسه. ومن ندواته العروبية الندوة التي عقدها في الجزائر العاصمة في المدة من 6-8 نوفمبر 2000 وأصدر أعمالها في كتاب يحمل نفس العنوان في السنة ذاتها.

□. من المعاجم التي أصدرها المجلس : " معجم المصطلحات الإدارية – عربي / فرنسي – فرنسي/عربي (الجزائر : المجلس الأعلى للغة العربية، 2000).

– وفي عام 1961، أنشأ المغربُ المكتبَ الدائم لتنسيق التعريب في الوطن العربي ليقوم بتنسيق جهود الدول العربية في مجال تعريب المصطلحات الحديثة، كي يستفيد المغرب منها في استعمال اللغة العربية في الحياة العامة. وفي عام 1969، أُلحق المكتب بالأمانة العامة لجامعة الدول العربية. وعندما تأسست المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في إطار جامعة الدول العربية عام 1972، أُلحق المكتب بالمنظمة وأصبح اسمه " مكتب تنسيق التعريب." (دليل المكتب: 6)

وإذا كان الهدف الأساس للمكتب هو تنسيق الجهود التي تُبذل في أقطار الوطن العربي لاستعمال اللغة العربية في التدريس بجميع مراحل التعليم وأنواعه في الحياة العامة، فإن المكتب يحقق هذا الهدف عن طريق توحيد المصطلحات العلمية والتقنية في الوطن العربي باتباع المنهجية التالية :

1. اختيار موضوعات المعاجم المتخصصة التي تناظر المواد الدراسية في مراحل التعليم المختلفة.

2. تكليف خبراء بوضع مشروع المعجم المطلوب الذي يضم المصطلحات الإنجليزية ومرادفاتها الفرنسية ثم مقابلاتها المختلفة في البلاد العربية مع اقتراح المقابل الموحد

3. مراجعة مشروع المعجم من قبل مختصين أو ندوة متخصصة تضم خبراء في ميدان المعجم ومصطلحيين ولغويين.

4. عرض مشروع المعجم على أحد مؤتمرات التعريب لدراسته وتعديله وإقراره.

5. إصدار المكتب لذلك المعجم بوصفه معجما موحدا لمصطلحات ذلك العلم.

ويشارك في مؤتمرات التعريب ممثلون عن حكومات الدول العربية، والمجامع اللغوية والعلمية العربية واتحادها، والمنظمات المعنية بالموضوعات المعروضة على المؤتمر، وعدد من اللغويين والمصطلحيين.

وقد عقد المكتب حتى الآن تسعة مؤتمرات للتعريب في الأماكن والسنوات المبينة في أدناه :

الأول، الرباط 1961 ؛ الثاني، الجزائر 1973 ؛ الثالث، طرابلس الغرب 1977، الرابع، طنجة 1981 ؛ الخامس، عَمّان، 1985 ؛ السادس، الرباط 1988، السابع، الخرطوم 1994؛ الثامن والتاسع، مراكش 1998.

ونتج عن المؤتمرات توحيد آلاف المصطلحات في مختلف الموضوعات. وقد نشرتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ومكتب تنسيق التعريب، في ما يناهز أربعين معجما تحمل عنوان " المعجم الموحد لمصطلحات ـــ ". وتتناول هذه المعاجم مصطلحات الموضوعات التالية: الجغرافية والفلك، التاريخ، الفلسفة والمنطق، علم النفس، الصحة وجسم الإنسان، الرياضيات البحتة والتطبيقية، الكهرباء، هندسة البناء، التجارة والمحاسبة، النفط، الجيولوجيا، الحاسبات الإلكترونية، الفيزياء العامة والنووية، التربية، الاجتماع والانثروبولوجيا، الكيمياء، الزراعة، الإحصاء، السكك الحديدية، الاقتصاد، الموسيقى، الآثار، القانون، السياحة، الزلازل، الطاقات المتجددة، البيئة، التقنيات التربوية، الفنون التشكيلية، الإعلام، الاستشعار عن بعد، الأرصاد الجوية، علوم البحار، علوم المياه، المعلوماتية، الهندسة الميكانيكية. (دليل المكتب : 19)

ويتوفر المكتب على بنك مصطلحات له موقع على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) وعنوانه : www.arabization.org.ma، ويستطيع المترجم وغيره أن يحصل منه على المقابلات العربية الموحدة للمصطلحات الإنكليزية والفرنسية، إلى جانب ببليوغرافية مفصلة للأعداد الخمسين من مجلة المكتب "اللسان العربي" وكذلك محتويات هذه المجلة ابتداء من العدد السابع والأربعين.

وما يهمنا هنا هو مدى تقيد المترجمين في المغرب العربي وغيره من أرجاء الوطن العربي بالمصطلحات الموحدة لدى قيامهم بأداء واجباتهم. فقد لاحظنا في دراسة ميدانية ستنشر لاحقا أن قلة قليلة من المترجمين تلتزم بالمصطلحات العربية الموحدة أو تلتزم بأنساق مصطلحية ثابتة في المواد التي تترجمها.

ومن ناحية أخرى فإن المعاجم الموحدة التي أنتجها المكتب تفند الحجج القائلة بعدم توفر اللغة العربية على المصطلحات العلمية والتقنية اللازمة لتعريب العلوم والهندسة والطب في التعليم العالي.

332. المؤسسات الوطنية للترجمة

نعني بالمؤسسة الوطنية للترجمة تلك المؤسسة التي ترعاها الدولة والتي تتخصص في تعريب الكتب وتغريبها وفق خطة مدروسة وتتوفر على المترجمين المتفرغين والمتعاونين لتنفيذها. وبصورة عامة يمكن القول على أن أقطار المغرب العربي لا تمتلك مؤسسات وطنية للترجمة. ولكن مؤسسات ثقافية عديدة تضع الترجمة والتأليف جزءا من أهدافها أو مهامها.

ولقد أعلمني الأخ بدري عثمان عضو المجلس الأعلى للغة العربية في الجزائر في حديث هاتفي معه أثناء إعداد هذه الورقة، أن المجلس يعكف حاليا على إنشاء

مؤسسة وطنية للترجمة. كما أن فكرة تأسيس مثل هذه المنظمة في المغرب قد طرحت بإلحاح في عدد من الندوات المتعلقة بالترجمة.

340. التشريعات المشجعة على الترجمة

من العوامل التي تساعد على انتعاش الترجمة التشريعات التي تضمن تعميم استعمال اللغة الوطنية، وتحمي حقوق المترجمين، وتيسر نشر الأعمال المترجمة. ولكن وجود التشريع لا يعني بالضرورة العمل به بصورة تلقائية. فكثيرا ما تنص دساتير الدول الشمولية على الحرية والمساواة والعدل ولكن حقوق المواطن مهضومة وحريته مصادرة في تلك الدول. وسنتطرق هنا إلى ثلاثة أنواع من التشريعات المشجعة على الترجمة :

341. التشريعات المتعلقة بتعميم استعمال اللغة العربية

تنص دساتير الدول العربية وبضمنها أقطار المغرب العربي على أن اللغة العربية هي اللغة الرسمية للبلاد، كما توجد فيها بعض التشريعات المتعلقة بتعميم استعمال اللغة العربية. ولعل التشريعات الجزائرية في هذا المجال هي أكثر التشريعات المغاربية شمولا وتفصيلا. ولهذا سنتطرق إلى أهمها هنا على سبيل المثال.

1. الدستور

لقد نص دستور 8 سبتمبر 1963 في مادته الخامسة على أن "اللغة العربية هي اللغة القومية والرسمية للدولة." ونصت المادة 76 منه على ما يلي : "يجب تحقيق تعميم استعمال اللغة العربية في أقرب وقت ممكن في كامل أراضي الجمهورية، بيد أنه، خلافا لأحكام هذا القانون، سوف يجوز استعمال اللغة الفرنسية موقتا إلى جانب اللغة العربية."

أما دستور 22نوفمبر 1976 فقد نصت المادة الثالثة منه على أن "اللغة العربية هي اللغة الوطنية والرسمية. تعمل الدولة على تعميم استعمال اللغة الوطنية في المجال الرسمي."

أما دستور 28 نوفمبر 1996 فقد نصت المادة الثالثة منه على أن اللغة العربية هي اللغة "الوطنية والرسمية."

2. قانون تعميم استعمال اللغة العربية

ويحمل هذا القانون الرقم 91-05 بتاريخ 1991/1/6. ومن مواده ما يلي
:

المادة 3 : يجب على كل المؤسسات أن تعمل لترقية اللغة العربية وحمايتها والسهر على سلامتها، وحسن استعمالها.

تمنع كتابة اللغة العربية بغير حروفها.

المادة 4 : تلزم جميع الإدارات العمومية والهيئات والمؤسسات والجمعيات على اختلاف أنواعها باستعمال اللغة العربية وحدها في كل أعمالها من اتصال وتسيير إداري، ومالي، وتقني، وفني.

المادة 5 : تحرر كل الوثائق الرسمية والتقارير ومحاضر الإدارات العمومية والهيئات والمؤسسات والجمعيات باللغة العربية.

يمنع في الاجتماعات الرسمية استعمال أية لغة أجنبية في المداولات والمناقشات.

المادة 15 : يكون التعليم والتربية والتكوين في كل القطاعات، وفي جميع المستويات والتخصصات، باللغة العربية، مع مراعاة كيفيات تدريس اللغات الأجنبية.

المادة 29 : تعدّ الوثائق الرسمية المحررة بغير اللغة العربية باطلة. تتحمل الجهة التي أصدرتها أو صادقت عليها مسؤولية النتائج المترتبة عليها.

المادة 36 : تطبق أحكام هذا الأمر فور صدوره.

ويجب استكمال عملية تعميم استعمال اللغة العربية في أجل أقصاه 5 يوليو 1998. غير أنه يتم التدريس باللغة العربية بصفة شاملة ونهائية في كل مؤسسات التعـــــليم العالي والمعاهد العليا في أجل أقصاه 5 يوليو 2000 مع مراعاة أحكام المادة 23.

والمادة 23 تنص على ما يلي : " يُنشأ مجلس أعلى للغة العربية ويوضع تحت إشراف رئيس الجمهورية."

3. المجلس الأعلى للغة العربية

وقد أُنشئ هذا المجلس بالمرسوم الرئاسي رقم 98-226 بتاريخ 1998/7/11. ويتضمن هذا المرسوم خمسة فصول تشتمل على 35 مادة. وتنص المادة الرابعة المتعلقة بصلاحيات المجلس على الفقرة الرابعة التي تنص على ما يلي:

"ينظر (المجلس) في ملاءمة الآجال المتعلقة ببعض التخصصات في التعليم العالي المنصوص عليها في المادة 7 المعدلة والمتتمة للفقرة الثانية من المادة 36 من القانون رقم 91-05 المؤرخ في 16 يناير سنة 1991 المعد والمتمم والمذكور أعلاه".

ويتساءل المرء ما إذا كانت هذه الفقرة هي الثغرة التي تسمح ببقاء التخصصات العلمية والتقنية في التعليم العالي تُدرّس باللغة الفرنسية، حتى الوقت المناسب. ولكن المادة الخامسة من قانون المجلس تنص على ما يلي :

"يجب أن يعمل المجلس على تطبيق التشريع والتنظيم المتعلقين بتطبيق استعمال اللغة العربية في الإدارات والمؤسسات والهيئات العمومية ومختلف الأنشطة لا سيما الاقتصادية والثقافية والاجتماعية". (كاشة : 230-265)

342. التشريعات المتعلقة بالمترجمين

يبدو أن التشريعات التي تنظم عمل المترجمين وتحفظ حقوقهم وتشجعهم قليلة في أقطار المغرب العربي. ومن هذه القوانين القليلة قوانين الملكية الفكرية التي تنص على أن حق التأليف يشمل المؤلفات المبتكرة أو المترجمة أو المقتبسة.

وكذلك توجد قوانين تنظم مهنة المترجمين المحلفين المعتمدين لدى المحاكم وغيرها، كالقانون رقم 80 لسنة 1994 في تونس. (عبيد : 88).

أما في الجزائر فقد صدر مرسوم بتاريخ 1969/2/8 يقضي بإحداث مكاتب للترجمة في مختلف الوزارات بحيث تقوم هذه المكاتب بالترجمة إلى اللغة العربية للوثائق والمراسلات والنصوص الرسمية. كما صدر مرسوم في 1969/10/2 يحدد وضعية المترجم بوصفه موظفا في الدولة ويبين حقوقه وواجباته. وعلى إثر انتهاء أعمال الجمعية العامة للاتحاد الوطني للتراجمة والمترجمين في الجزائر في الفترة من 11 إلى 13 فبراير 1971 صدر قانون بتأسيس هذا الاتحاد. (بن عيسى: 48)

وفي المغرب لا توجد جمعيات للمترجمين ما عدا "جمعية المترجمين القضائيين" أي المترجمين المحلفين، كما يسمونهم كذلك في المغرب وأصدرت وزارة العدل المغربية قانونا عام 2001 ينظّم مهنتهم. كما توجد جمعية لخريجي مدرسة الملك فهد العليا للترجمة بطنجة.

340. التشريعات المتعلقة بنشر الترجمات وتشجيعها

يخضع النشر في أقطار المغرب العربي لمقاييس السوق، ولـيس هنالـك مـا يلـزم المؤسسات، أهلية كانت أم حكومية، بنشر كتب معينة كالكتب المترجمة أو غيرهـا. وإذا كان لكل مادة فكرية من منبر فإنه يمكن القول إن الترجمة قد وجدت منبرها في الدوريات. فقد لقيت الترجمة تشجيعا كبيرا من الصحافة في أقطار المغـرب العربـي. فمنذ أن نشأت الصحافة في هذه الأقطار وهي تنشر بصورة منتظمة نصوصا مترجمـة. ففي النصف الثـاني مـن القـرن التاسـع عشـر نجـد جريـدتي" الرائـد التونسـي "و" الحاضرة "في تونس وجريدة" المبشـر "في الجزائـر تنشـر نصوصـا مترجمـة، سياسـية وعلمبة واقتصادية وأدبيـة. (مواعـدة : 88-94) وتتجلـى هـذه الظـاهرة كـذلك في الصحافة المغربية الصادرة في مطلع القرن العشرين كما هو الحال في جريدة" السعادة "التي أُنشأت سنة 1905" والداعية إلى الحداثة وترجمة النصـوص... وتخـوض في ترجمـة مقـالات عـن الجرائـد الفرنسـية مـثلا، أو الاقتبـاس عـن الجرائـد الشـرقية لمترجمات قصصية وروائيـة ومقالاتيـة" (علـوش1990 : 25-29) كمـا اعتمـدت جميع الصحف المغربية الطليعية في المغرب قبل الحماية وبعـدها بتخصـيص صـفحة للمترجمات. وهذا ما نجده اليوم في صحيفة "العَلم" وصحيفة "الاتحـاد الاشـتراكي" وغيرهما من الصحف المغربية التي دأبت، يوميا تقريبا، علـى نشـر كتـب مترجمـة بصورة متسلسلة إضافة إلى المقالات المترجمة.

أما من حيث التشجيع الرسمي للترجمة فهو ضئيل. ويمكن أن يُشار في هذا الصدد إلى أن وزارة الشؤون الثقافية في تونس تخصص جـوائز سـنوية لأفضـل الكتـب التونسـية وبضمنها الكتب المترجمة. كما أن وزارة الشؤون الثقافية في المغرب أحدثت عام 1993 جائزة سنوية للترجمة بعد أن كانت جائزة المغرب للكتاب تقتصر على الكتب الموضوعة

350. البحوث العلمية في نظرية الترجمة والترجمة الآلية

من المعروف أن ما يُخصص للبحوث العملية الأساسية والتطبيقية في الوطن العربي ضئيل جدا إذا ما قورن بما ينبغي عليه الحال أو بما تنفقه الدول المصنعة على البحث العلمي. وعلى الرغم من عدم توفر الاعتمادات البشرية والمادية اللازمة، فإن نظرية الترجمة قد استرعت اهتمام المجامع اللغوية والعلمية في تونس والجزائر والمغرب. وفي هذا الصدد تجدر الإشارة إلى أن المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات ـ بيت الحكمة ـ في تونس قد أصدرت في سلسلة البحوث والدراسات التي تنشرها كتابا قيما بعنوان " الترجمة ونظرياتها"□ كما أصدرت كتابا عن " تأسيس القضية الاصطلاحية"□، وعقدت عدة ندوات عن الترجمة كان آخرها حول " ترجمة الأدب التونسي إلى اللغات الأجنبية" عام 1998. وفي محاولة لتوفير موقف تنظيري يحدد معنى الترجمة ويوظف دورها في التنمية، عقدت لجنة اللغة العربية لأكاديمية المملكة المغربية ندوة في طنجة عام 1995 خصصتها لـ "الترجمة العلمية"□.

ولكن الاهتمام بالترجمة لا يقتصر على المجامع في المغرب العربي، وإنما يمتد إلى الجامعات والمراكز والمعاهد وحتى الصالونات الأدبية. فجامعة محمد الخامس بالرباط تبدي اهتماما بموضوع الترجمة فقد نظمت مائدة مستديرة عام 1993 حول موضوع "الترجمة والتأويل" شارك فيها أساتذة من مختلف الجامعات المغربية

□. انظر المراجع تحت: بيت الحكمة 1989.
□. انظر المراجع تحت بيت الحكمة 1989-2.
□. انظر المراجع تحت: أكاديمية المملكة المغربية.

ببحوث تتناول قضايا منهجية ومعرفية ومفهومية تخص الترجمة وعلاقتها بالفهم والتأويل والمرجع□. وتضمنت احتفالات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة ابن زهر بالذكرى العاشرة لتأسيسها عام 1994 عقد ندوة موضوعها "الترجمة في الآداب والعلوم الإنسانية: الواقع والآفاق"□.

وفي عام 1994 خصصت الدكتورة فاطمة الجامعي الحبابي ندوة من ندوات صالونها الأدبي في الرباط لموضوع "الترجمة" وأصدرت دراسات الندوة مع دراسات ترجمية أخرى في كتاب بعنوان "الترجمة والتلاقح الثقافي"□. وعندما أبّنت جامعة سيدي محمد بن عبد الله في فاس أحد أساتذتها البارزين في اللغات والترجمة عام 2001 كان موضوع ندوة التأبين "تعليم اللغات الأجنبية والترجمة في خدمة قضايانا الوطنية"□ أما مدرسة الملك فهد العليا للترجمة، فإضافة إلى نشرها عددا من الأعمال المتعلقة بالترجمة مثل كتاب" خطاب الترجمة الأدبية : من الازدواجية إلى المثاقفة"□ وكتاب "الشعر العربي الحديث المترجم: مقدمة وببليوغرافية"□، فإنها عقدت عدة ملتقيات دولية حول الترجمة منها "الملتقى الدولي حول الترجمة والعولمة" عام 2000، والندوة الدولية حول "ثقافة المترجم" في مارس عام 2002،

□. انظر المراجع تحت: كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط.
□. انظر المراجع تحت : كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير.
□. انظر المراجع تحت: بيت آل محمد عزيز الحبابي.
□. عُقدت هذه الندوة تكريما للمرحوم الأستاذ محمد أبو طالب وستُنشر وقائعها قريبا.
□. انظر المراجع تحت: علوش.
□. انظر المراجع تحت: الطعمة.

إضافة إلى أن تصدر منذ أبريل 1992 دورية نصف سنوية متخصصة في الترجمة عنوانها "ترجمان"□.

وظهرت في المغرب دور نشر متخصصة في نشر كتب شهرية ذات طبعات شعبية لا يتجاوز سعر الكتاب الواحد عشرة دراهم (أقل من دولار واحد) وتطبع من كل كتاب بين عشرة آلاف وعشرين ألف نسخة. وهناك الآن ثلاث دور نشر من هذا النوع هي : شراع، والزمن، والمعرفة للجميع. وفي سلسلة شراع صدر كتاب يبحث في نظريات الترجمة عنوانه "في الترجمة" وكتاب آخر بعنوان "أسئلة الترجمة" يتناول قضاياها النظرية والتطبيقية□. أما دار منشورات الزمن فقد خصصت سلسلة شهرية للكتب المترجمة اسمها "سلسلة ضفاف"□.

وفي المغرب صدرت "بيت الحكمة" وهي مجلة متخصصة في الترجمة في العلوم الإنسانية، بحيث تخصص ملفا في كل عدد لمدرسة معينة أو لشخصية علمية بارزة. وقد صدر العدد الأول منها في أبريل عام 1986، ولكنها توقفت، مع الأسف، بعد ثمانية أعداد فقط.

أما في مجال الترجمة الآلية، فلا توجد إلا مشاريع بحوث أكاديمية محدودة في نطاقها وإمكاناتها ونتائجها. ومن هذه المشاريع مشروع ترجمان للترجمة المدعومة بالحاسوب من الإنجليزية إلى العربية الذي يقوم به قسم التعريب بالمعهد الإقليمي للمعلوماتية والاتصالات بتونس, ومشروع مختبر المعلوميات والعلاج الآلي للعربية بالمدرسة المحمدية للمهندسين بالرباط.

□. انظر المراجع تحت: مدرسة الملك فهد العليا للترجمة 2000.

□. انظر المراجع تحت : بنعبد العالي، وحزل.

□. سلسلة ضفاف تصدر عن منشورات الزمن، 153 شارع سيدي بن عبد الله رقم 7 العكاري ـ الرباط.

400. إنتاج الترجمة من حيث الكم

إن من يقف على الإحصائيات المتعلقة بعدد الكتب التي تنجز ترجمتها سنويا يتأكد له ضعف المحصول كميا، وهو أمر نلمسه في المغرب العربي كما هو الحال في المشرق العربي.

ففي تونس، مثلا، يورد عبد اللطيف عبيد إحصائيتين عن عدد الكتب المترجمة :

الأولى، تتعلق بمطبوعات المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون – بيت الحكمة – "الذي في مقدمة مهامه "ترجمة المؤلفات"، يتبين منها أن مجموع ما ترجمه من مؤلفات خلال عشر سنوات لا يتجاوز 23 كتابا. وتيسيرا لعرض نتائج هذه الإحصائية نلخصها بالجدول التالي الذي يتناول جميع مطبوعات بيت الحكمة خلال الفترة 1982-1992 :

نوع الكتب	عددها	نسبتها من المجموع ٪
المؤلَّفة	67	80.3
المترجمة إلى العربية	19	16.1
المترجمة إلى الفرنسية	2	1.8
المترجمة إلى الإنكليزية	2	1.8
المجموع	90	100

مطبوعات بيت الحكمة بتونس في الفترة من 1982–1992

والإحصائية الثانية مستقاة من دليل الأدب التونسي (الدخلي : 196)، وتتعلق بعدد الكتب التي ترجمت في تونس منذ استقلالها عام 1956 إلى أواسط الثمانينات حوالي 1985. ونلخص هذه الإحصائية بالشكل التالي :

المجال	عدد الكتب	نسبتها من المجموع ٪
الحضارة العربية الإسلامية	30	20.4
آداب ولسانيات	48	32.4

تاريخ وجغرافية واجتماع	35	23.6
فلسفة	12	8.1
علوم	23	16.6
المجموع	148	٪100

الكتب المترجمة في تونس، 1956-1985

ومن المغرب، تسوق لنا فاطمة الجامعي الحبابي إحصائية استقتها من لائحة أعدتها وزارة الشؤون الثقافية عما يصدر في المغرب من كتب مؤلفة ومترجمة لغرض انتقاء الكتب المرشحة لجائزة المغرب للكتاب منذ أن أحدثت الوزارة جائزة المغرب للترجمة عام 1993. وهذه الإحصائية ملخصة في الجدول التالي :

السنة	الإبداع الأدبي	النقد الأدبي والفني	العلوم الإنسانية والاجتماعية	العلوم والتكنولوجيا	المجموع السنوي للكتب المؤلفة	المجموع السنوي للكتب المترجمة	مجموع الكتب المؤلفة والمترجمة	نسبة الكتب المؤلفة	نسبة الكتب المترجمة %
92 93 94 95 96 97	42 44 62 61 13 0 86	36 17 21 19 33 23	109 100 100 128 143 182	7 10 12 4 3 6	194 171 195 212 309 297	13 24 19 23 27 19	207 195 214 235 336 316	%93,7 %87,7 %91 %90 %92 %94	6,3 12,3 9 10 8 6
المجموع الكلي	425	149	762	42	1378	125	1503	91,7	%8,3

جدول الإصدارات المغربية والمؤلفة في مختلف الميادين : 1992 ـ 1997

والإحصائية الثانية التي تسوقها الحبابي تتناول تحليلا نوعيا للكتب المترجمة الصادرة خلال الفترة من 1986 ـ 1995 (الحبابي : 36). ونلخص هذه الإحصائية بالجدول التالي :

المجال	عدد الكتب	نسبتها المئوية٪
الحضارة العربية الإسلامية	33	13.8
آداب وإبداع ولسانيات	87	36.4
تاريخ وجغرافية واجتماع	68	28.5
فلسفة	20	8.4
تربية وتعليم	25	10.4
علوم	6	2.5
المجموع	239	٪100

الكتب المترجمة ومجالاتها في المغرب في الفترة 1985ـ1995

من هذه الإحصاءات ومن الدراسات المتعلقة بنقد الترجمة في المغرب العربي، يمكن رصد الملاحظات التالية :

1. إن نسبة الكتب المترجمة إلى الكتب المنشورة ضئيلة جدا. ففي المغرب لا تتجاوز هذه النسبة 8,3٪ من مجموع الإصدارات. فعدد الكتب المترجمة يتراوح بين 13 و27 كتابا في السنة في حين يتراوح عدد الكتب المؤلفة بين 171 و309 أي بنسبة 91٪.

وإذا كانت نسبة الكتب المترجمة إلى مجموع الإصدارات في الإحصائية التونسية مرتفعة نسبيا إذ تبلغ 16,1٪ ، فالسبب يعود إلى أن هذه الإحصائية خاصة بمطبوعات المجمع التونسي للعلوم والآداب الذي وُضعت الترجمة على رأس مهامه.

2. إن معظم الكتب المعرّبة في بلدان المغرب العربي منقولة من اللغة الفرنسية، لأسباب مفهومة، فاللغة الفرنسية هي اللغة الثانية التي يتقنها كثير من الكتّاب. ففي عام 1994 ، مثلا، كان مجموع الكتب المترجمة في المغرب 19 كتابا كلها من الفرنسية ما عدا ثلاثة تُرجم أحدها من الإنجليزية والثاني من الإسبانية والثالث من العبرية ويتعلق بنماذج من القصص العبري. وفي الإحصائية التونسية نجد أن عدد الكتب المترجمة هو 19 كتابا، 14 منها تُرجم من اللغة الفرنسية والباقي موزع على ثلاث لغات : الألمانية 3، والإنجليزية 1، والإسبانية 1.

3. إن الأغلبية الساحقة من الكتب المترجمة هي في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية، وخاصة في الآداب والنقد الأدبي والحضارة العربية الإسلامية والفلسفة. وتبلغ نسبتها في المغرب حوالي 97,5٪ وفي تونس حوالي 74,5٪ في حين أن عدد الكتب العلمية المترجمة لا يتجاوز نسبة 2,5٪ في المغرب و15,5٪ في تونس. والسبب في تدني ترجمة الكتب العلمية إلى العربية يعود إلى الوضع اللغوي في هذه الأقطار حيث تستعمل اللغة الفرنسية لغة للتعليم في الكليات العلمية والتقنية في جامعاتها.

4. إن عدد الكتب المترجمة من العربية إلى اللغات الأجنبية ضئيل جدا. فطبقا للإحصائية المغربية لا يتجاوز عدد الكتب التي ترجمت من العربية إلى الفرنسية 15 كتابا، أي 12٪ من مجموع الكتب المترجمة. وفي الإحصائية التونسية الخاصة بمطبوعات بيت الحكمة، لا توجد سوى 4 كتب مغرّبة، نقل اثنان منها

إلى الفرنسية والاثنان الآخران إلى الإنكليزية، أي أن نسبة الكتب المترجمة من العربية إلى اللغات الأخرى لا يتجاوز 17,4٪ من مجموع الكتب المترجمة.

500. إنتاج الترجمة من حيث الكيف

510. أنواع الترجمة

في ضوء تعامل المترجم مع العقبات والمشكلات التي تثيرها الترجمة كالمشاكل المعجمية والنصية والتواصلية والثقافية والحضارية، يمكن تقسيم الترجمة إلى أنواع متعددة. ويقسم الفيلسوف المغربي طه عبد الرحمن الترجمةَ إلى ثلاثة أنواع هي:

1. ترجمة تحصيلية 2- ترجمة توصيلية 3- ترجمة تأصيلية (عبد الرحمن: 299–405)

511. الترجمة التحصيلية

ويسمي بعضهم هذا النوع بالنقل (يفوت: 58–60) أو الترجمة الحرفية (عجينة: 277–279). وفي هذا النوع من الترجمة، يقدّم المترجم الاعتبارات اللغوية على الاعتبارات المعرفية، فينشغل بالمطابقة بين اللغتين المنقول منها والمنقول إليها، من حيث المعجم لتحقيق التناظر التصوري، أو من حيث التراكيب لتحقيق التناظر التصديقي. ويؤدي هذا النوع من الترجمة، في أحيان كثيرة، إلى انحراف المعنى وسوء الفهم والتفهيم، كما يقود إلى غربة المفاهيم المترجَمة في بنية اللغة المنقول إليها، ما يسبب إتعاب القارئ وإجهاد ذهنه وإضاعة وقته.

512. الترجمة التوصيلية

ويسميها بعضهم بالترجمة التقريبية (يفوت : 61-63) لسعي المترجم إلى إيجاد المعاني التي تقرّب النص المنقول إلى اللغة المنقول إليها. فيلجأ المترجم إلى إجراء التغييرات الشكلية بوسائل مختلفة كالتحوير والتكييف والاقتباس من أجل أن يتجنب المخالفة الصريحة لأصول لغة المتلقي، ولهذا يوصف هذا النوع من الترجمة بالترجمة غير المباشرة (عجينة : 278-279). ولكن هذا النوع من الترجمة يسعى إلى الإبقاء على المضامين المعرفية للنص المنقول حتى إذا بدت غريبة في لغة المتلقي. ويقوم المترجم في هذا النوع من الترجمة بفهم أفكار النص الأصلي، ثم التعبير عنها بما يقاربها في اللغة الهدف، ناسيا،أثناء النقل، كلمات النص الأصلي وتراكيبه. ومع إن هدف هذا النوع من الترجمة هو فهم المفاهيم وتفهيمها للمتلقي، فإنه لا يرقى إلى استثمار تلك المفاهيم وتفعيلها في البنية المعرفية للحضارة المتلقية.

513. الترجمة التأصيلية

ويسمي بعضهم هذا النوع بالترجمة التأسيسية (يفوت : 65-66). ولا يكفي في هذا النوع من الترجمة أن يتوفر المترجم على الكفاءة اللغوية بحيث يتمكن من نقل الألفاظ، كما في الترجمة التحصيلية، ولا يكفي فيه أن يتوفر على الكفاءة اللغوية والمعرفة بالمضامين، بحيث يستطيع تبيين المضامين وتحديدها، كما في الترجمة التوصيلية، فحسب، وإنما يُشترط فيه كذلك العلم بالمقاصد ووضوح الأهداف، بحيث يستطيع التفاعل مع النص المُتَرجَم والتحاور معه في إطار المجال التواصلي للمتلقي، ما ينتج عنه إدماج النص المترجم في البيئة المعرفية واللغوية للثقافة المتلقية لتكون قادرة على الإنتاج الفكري.

وإذا كان المترجم في الطريقة التحصيلية منشغلا في القضايا اللغوية للنص، فإن انشغال المترجم بالطريقة التأصيلية ينصب على الجوانب الاستشكالية والبناء

الاستدلالي للنص، ما يجعله يميل إلى التصرف في المضامين المنقولة لتناسب الخصائص التداولية لمجال المتلقي. (عبد الرحمان : 359)

إن المتلقي ينتفع من النص المترجَم بهذه الطريقة انتفاعه بالنص الأصلي، بحيث يخلق النص المترجَم فيه القدرة على التأمل والإبداع. وهكذا يفسح هذا النوع من الترجمة الهجرة الحقيقية للأفكار والنظريات والمناهج والأساليب.

520. أي نوع من الترجمة في المغرب العربي ؟

وإذا فحصنا الدراسات المتخصصة في نقد الترجمة في المغرب العربي وجدنا أنها تميل إلى هذه الترجمة في أطوارها الأولى لم تخرج عن كونها ترجمة تحصيلية تقرب من الحرفية، وأنها في أحسن أحوالها لا تعدو أن تكون ترجمة توصيلية، ولكنها بقيت في معظمها " وسيلة رمزية مفرغة من سلطتها الحضارية والثقافية والإنسانية" (علوش 1990: 14)

ومن ناحية أخرى، فإن معظم الترجمات التي أُنجزت في المغرب العربي تم بمبادرات فردية، وليس ضمن خطة منسقة هادفة تستجيب إلى الحاجات الفعلية ويتم في إطارها اختيار ما يُترجم. ويتجلى ذلك في غياب التوازن في تغطية المجالات المعرفية المختلفة. وهذا ينطبق حتى على الكتب التي اضطلعت بترجمتها مؤسسات وطنية، كالمجمع التونسي، وهذا ما حدا بعبد اللطيف عبيد إلى القول: " إن هذه الجهود، على قلتها، لا تخضع لتخطيط مسبق ومعايير اختيار مدروسة، وإنما تحكمها الصدفة والمبادرات الفردية." (عبيد : 84)

ومما يزيد في غياب التخطيط وسوء الاختيار ندرة الأعمال الببليوغرافية المتعلقة بالترجمة، وإن وجدت هذه الإعمال فإنها مجرد جرد لأسماء ومترجمات دون معالجة نقدية موضوعية. (ذاكر : 125). وينتج عن غياب التخطيط وندرة الأعمال

البيليوغرافية، ترجمة العمل الواحد عدة مرات أحيانا. فكتاب "لذة النص" تُرجم إلى العربية خمس مرات في خلال أربع سنوات□.

وإضافة إلى ذلك، فإنه لا يوجد في تقاليد الترجمة في المغرب العربي ضرورة مراجعة الترجمة من قبل مراجع، أو اشتراك أكثر من مترجم في ترجمة النص الواحد. ويتجلى ذلك في إحصائية وزارة الشؤون الثقافية المغربية السالفة الذكر، إذ إن الأغلبية الساحقة من الكتب المترجمة اضطلع بترجمتها مترجم واحد وبدون وجود أي مراجع. فجميع الكتب الـ 125 الواردة في إحصائية الوزارة اضطلع بإنجازها مترجم منفرد ما عدا ثلاثة كتب اشترك في ترجمة كل منها مترجمان. وقد " تولد عن هذا الوضع تناول المترجم الواحد لمواد تنتمي إلى مجالات متعددة قد لا توجد بينها أي علاقة اعتمادا على ما يشكل ثقافته من مرجعيات معرفية قد تكون ضعيفة مما يترتب عنه انعدام الأمانة والدقة في نقل مضامين النص الأصلي، وعشوائية انتقاء المصطلح واستعماله، والغموض في مفاهيم النص المترجم وأساليبه." (الحبابي : 38)

600. الخاتمة (استنتاجات وتوصيات)

نستنتج من هذا العرض الموجز لتجربة المغرب العربي في الترجمة أن الثنائية اللغوية الموجودة حاليا في أقطاره، وضعف تعليم اللغات الأجنبية كما وكيفا، وغياب مؤسسات وطنية للترجمة ذات استراتيجيات وأهداف واضحة قائمة على مسح للحاجات الفعلية، وقلة التشريعات المنظمة لاتحادات المترجمين والمشجعة لهم على

□. تُرجم هذا الكتاب خمس مرات: ترجمة المحور الثقافي 19687، وترجمة فؤاد صفا والحسين سحبان 1988، وترجمة محمد البكري 1988ن وترجمة محمد الرفرافي ومحمد خير بقاعي 1990، وترجمة محمد العربي هروشي 1990 (ذاكر : 123).

العطاء والنشر، ـ كل هذه الأمور تجعل من الترجمة عملا فرديا تحكمه المصادفة، خاضعا لأهواء هواة المترجمين وقدراتهم المحدودة، بحيث يتضاءل تأثير الترجمة في استنبات الأفكار والنظريات والمناهج والأساليب وحصد ثمارها، وفي تعريف العالم بثقافتنا وقضايانا وكسب تعاطفه معنا.

ولكي تقوم الترجمة بدورها الحقيقي الفاعل، نقدّم فيما يلي بعض المقترحات :

1. تعميم استعمال اللغة العربية في مختلف مرافق الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، مع العناية باللغات الأجنبية وتطوير تعليمها في مختلف مراحل التعليم كما وكيفا، بحيث يتوفر متخصصون في مختلف اللغات الغربية والآسيوية والأفريقية.

2. اضطلاع منظمة عربية قومية للترجمة بالعمل وفق استراتيجية شاملة للترجمة في الوطن العربي، بحيث تنبثق عنها خطط عمل طويلة ومتوسطة المدى، وخطط عمل سنوية. ومن الواجب هنا التذكير بأن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم سبق أن وضعت "الخطة القومية للترجمة"[□]، وهي خطة جيدة بحاجة إلى تفعيل وتنفيذ.

3. تأسيس منظمات وطنية للترجمة في كل قطر من أقطار المغرب العربي، وأن توفر لها الإمكانات البشرية والمادية.

□. انظر المراجع تحت : المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم 1996.

– يشكر الكاتبُ الأستاذ الدكتور محمد رشاد الحمزاوي من تونس والأستاذ الدكتور محمد عثمان بدري من الجزائر اللذين تفضلا بتزويده بما ينقصه من معلومات بالهاتف والناسوخ.

4. إعداد ببليوغرافية جامعة للترجمة في الوطن العربي، تُحدّث سنويا، بحيث تستطيع المؤسسات القطرية للترجمة والمترجمون من الاطلاع عليها منشورة ورقيا أو إلكترونيا أو على موقع من مواقع الشبكة الدولية للمعلومات " إنترنت". ولا يخفى أن هنالك بعض الببليوغرافيات للترجمة في الوطن العربي مثل "ببليوغرافية الكتب المترجمة إلى العربية 1970-1980، التي أصدرتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وببليوغرافية "الشعر العربي الحديث المترجم إلى الإنجليزية" التي نشرتها مدرسة الملك فهد العليا للترجمة بطنجة، وغيرهما، ولكن هذه الببليوغرافيات ليست جامعة ولا تخضع للتحديث بانتظام. ولهذا ينبغي أن تؤسس قاعدة بيانات ببليوغرافية للكتب والمواد المترجمة وأن تشرف عليها منظمة قومية للترجمة تتعهدها بالتحديث والتطوير والنشر بانتظام.

5. استكمال وتطوير التشريعات الوطنية المتعلقة بحقوق المترجمين واتحاداتهم وجمعياتهم، بحيث تتكون نقابة للمترجمين في كل قطر عربي، وتنضوي هذه النقابات في اتحاد المترجمين العرب.

6. تشجيع نشر المواد المترجمة، وتقديم مكافآت مجزية للمترجمين، وتنظيم معارض قومية ووطنية للكتاب المترجم بانتظام، ورصد الجوائز المتنوعة للأعمال المترجمة على اختلاف أنواعها، والإكثار من عقد الملتقيات والندوات العلمية حول نظريات الترجمة وتقنياتها ونقدها، وتمكين أساتذة الترجمة والمترجمين من المشاركة فيها.

7. تنمية معاهد إعداد المترجمين الموجودة حاليا في أقطار المغرب العربي، من حيث الأهداف والمناهج ولغات العمل.

8. إعداد خطط قومية وقطرية لتعريب روائع الفكر الإنساني في العلوم والتكنولوجيا والآداب والفنون إلى اللغة العربية لإغناء مكتبتنا، وخطط مماثلة لترجمة أمهات الكتب العربية إلى اللغات الغربية والآسيوية والأفريقية.

9. إنشاء شبكة اتصال عربية للترجمة تضم ثلاث قواعد بيانات هي: قاعدة بيانات ببليوغرافية للكتب المترجمة، المعرّبة منها والمغرّبة، وقاعدة بيانات للمترجمين، وقاعدة بيانات للمؤسسات ودور النشر المعنية بالترجمة

10. إنشاء شبكة اتصال عربية لقواعد المعطيات اللغوية والمعجمية والمصطلحية مثل قاعدة المعطيات النصية في مركز ترقية اللغة العربية في الجزائر، وقاعدة المعطيات المتعددة اللغات في مركز الدراسات والأبحاث للتعريب في الرباط، وبنك المصطلحات في مكتب تنسيق التعريب بالرباط.

المراجع

1. أحمد، نازلي معوض (1986) التعريب والقومية العربية في المغرب العربي .بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية.

2. أفسحي، محمد (1998) دليل للتعريف بمكتب تنسيق التعريب.الرباط: مكتب تنسيق التعريب،

3. أكاديمية المملكة المغربية. (1995) الترجمة العلمية الرباط : أكاديمية المملكة المغربية – وقائع ندوة علمية –

4. بلعيد، صالح. (1998) "قرار تعميم اللغة العربية واستعمالها : رأي في التجربة الجزائرية". في مجلة اللسان العربي، 46 ص. 238-.268

5. بيت آل محمد عزيز الحبابي (1998) الترجمة والتلاقح الثقافي. الرباط: بيت آل محمد عزيز الحبابي، إصدار : فاطمة الجامعي الحبابي – وقائع ندوة علمية –

6. بيت الحكمة (1989) الترجمة ونظرياتها، تونس : بيت الحكمة – إعداد مجموعة من الأساتذة –

7. بيت الحكمة (1989–2) تأسيس القضية الاصطلاحية. تونس : بيت الحكمة- إعداد مجموعة من الأساتذة –

8. تاجر، جاك (1945) حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر. القاهرة : دار المعارف.

9. التازي، عبد الهادي (1997) "اهتمام الدولة العلوية بالترجمة العلمية : علم الفلك نموذجا" في الترجمة العلمية. الرباط : أكاديمية المملكة المغربية.

10. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. الحيوان، تحقيق عيد السلام محمد هارون (القاهرة : الحلبي وأولاده،ب ت).

11. الحبابي، فاطمة الجامعي (2001) "تجربة المغرب : تأملات وآفاق"، ورقة مقدمة إلى مؤتمر عن الترجمة في الكويت.

12. بن حميدة، محسن (1985) "واقع الترجمة في الجمهورية التونسية" في دراسات عن واقع الترجمة في الوطن العربي تونس : المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم،ص. 30–46.

13. حزل، عبد الرحيم (1999) أسئلة الترجمة. طنجة : سلسلة شراع، العدد 55.

14. خوري، شحادة (1992) دراسات في الترجمة والمصطلح والتعريب دمشق : طلاس للدراسات، ط2

15. خوري، شحادة (1996) "واقع حركة الترجمة ومستقبلها في الوطن العربي" في مجلة الفيصل، 239 (سبتمبر/أكتوبر، ص. 57-62).

16. الديداوي، محمد (1992) علم الترجمة بين النظرية والتطبيق سوسة : دار المعارف.

17. الحاج صالح، عبد الرحمن، (2001) "مشروع الذخيرة اللغوية العربية وإبعاده العلمية والتطبيقية" في مجلة اللغة العربية، 4 ص .33 –53.

18. الدخلي، عبد الوهاب (1990) دليل الأدب التونسي المترجم قرطاج : بيت الحكمة.

19. ذاكر، عبد النبي (1999) "نقد الترجمة في المغرب المعاصر" في الترجمة في الآداب والعلوم الإنسانية. أكادير : كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ص. 113-127.

20. زيتوني، لطيف (1994) حركة الترجمة في عصر النهضة. بيروت : دار النهار.

21. الصوري، عباس (1998) "في الدراسة المعجمية للمتن اللغوي" في مجلة اللسان العربي 45 ص. 9-32.

22. الطعمة، صالح جواد (1993) الشعر العربي الحديث المترجم إلى الإنجليزية : مقدمة وببليوغرافية. طنجة : مدرسة الملك فهد العليا للترجمة.

23. عبد الرحمن، طه (1995) الفلسفة والترجمة. الدار البيضاء : المركز الثقافي العربي.

24. عبيد، عبد اللطيف (2001) "حال الترجمة في تونس وعلاقتها بالوضعية اللغوية" في مجلة التعريب، 21،حزيران/يونيو، ص. 86.

25. عقاب، محمد الطيب (1985) حمدان خوجة : رائد التجديد الإسلامي. الجزائر : وزارة الثقافة والسياحة.

26. عجينة، محمد (1989) "نظريات الترجمة" في الترجمة العلمية قرطاج : بيت الحكمة، ص. 251-287.

27. علوش، سعيد (1990) خطاب الترجمة الأدبية : من الازدواجية إلى المثاقفة. طنجة : مدرسة الملك فهد العليا للترجمة.

28. علوش، سعيد (1991) شعرية الترجمات المغربية للأدبيات الفرنسية طنجة : مدرسة الملك فهد العليا للترجمة.

29. بن عمرو، عبد الرحمن (2001) "حول مشروع مرسوم استعمال العربية بالإدارة" في جريدة "العَلَم" المغربية في عددها بتاريخ 2001/9/18.

30. بن عيسى، حنفي (1985) "واقع الترجمة في الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية" في : دراسات عن واقع الترجمة في الوطن العربي. تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

31. العميد، عبد الله (2000) "إعداد المترجمين في مواجهة متطلبات المرحلة الراهنة" في الترجمة والعولمة. طنجة : مدرسة الملك فهد العليا للترجمة، 103-114.

32. غلاب، عبد الكريم (2001) "مع الشعب" في جريدة العلم بتاريخ 2001/9/20، ص. 1.

33. القاسمي، علي (1991) علم اللغة وصناعة المعجم. الرياض : جامعة الملك سعود، ط.2

34. القاسمي، علي (1970) مختبر اللغة. الكويت : دار القلم.

35. كاشة، بشير(2001) "وجوب تعميم استعمال اللغة العربية في قوانين الجمهورية الجزائرية" في مجلة اللغة العربية، 4، ص. 230-265.

36. كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير (1999) الترجمة في الآداب والعلوم الإنسانية : الواقع والآفاق. أكادير : كلية الآداب والعلوم الإنسانية.

37. كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط (1995) الترجمة والتأويل. الرباط : كلية الآداب والعلوم الإنسانية، - وقائع ندوة علمية -

38. ليفي، مارتن (1980) الكيمياء والتكنولوجيا في وادي الرافدين، ترجمة محمود فياض وجواد سلمان وجليل كمال الدين.بغداد : وزارة الثقافة، سلسلة الكتب المترجمة رقم 86.

39. ماجد، جعفر (1985) ببليوغرافية الكتب المترجمة إلى العربية. تونس : المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة.

40. مدرسة الملك فهد العليا للترجمة (2000) الترجمة والعولمة.طنجة : مدرسة الملك فهد العليا للترجمة، - وقائع ندوة علمية -

41. مدرسة الملك فهد العليا للترجمة (1997) نشرة تعريفية، ودليل الخريجين. طنجة : مدرسة الملك فهد العليا للترجمة.

42. المرزوقي، أبو يعرب (1992) "الترجمة والظرفية الراهنة" في مجلة الحياة الثقافية، 64-65 ص. 108-113.

43. المسدي، عبد السلام (1989) مراجع اللسانيات. تونس : الدار العربية للكتاب،

44. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (1996) الخطة القومية للترجمة. تونس : المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

45. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (1985) دراسات عن واقع الترجمة في الوطن العربي. تونس : المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم،

46. معهد الدراسات والأبحاث للتعريب (1999) الترجمة والاصطلاح والتعريب الرباط : معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، إعداد محمد الراضي وإشراف عبد القادر الفاسي الفهري – وقائع ندوة علمية –

47. مواعدة، محمد (1986) حركة الترجمة في تونس طرابلس : الدار العربية للكتاب.

48. الهلالي، صادق (1997) "التجربة العربية في تعريب العلوم وعلوم الطب" في مجلة اللسان العربي، 43.

49. يفوت، الحسن (1999) "مراتب الترجمة في الفكر العربي الإسلامي" في الترجمة في الآداب والعلوم الإنسانية. أكادير : كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 57 -69 – ندوة علمية –

الموقف الملحمي في شعر مفدي زكريا

– قراءة استكشافية –

د. عثمان بدري
أستاذ بجامعة الجزائر

في حياة كل المجتمعات "معالم" متألقة تجسد عبقريتها وتميز كيانها وتحدد مواقعها الفاعلة، المنفعلة، في مجرى التاريخ البشري.

إلا أن أبرز وأهم "معلم مرجعي" في حياة الإنسان، فردا وأسرة ومجتمعا، يتمثل في إشكالية " الحرية" بوصفها هي الإشكالية المركزية الكبرى، التي تولدت منها أو تفرعت عنها كل الإشكاليات والمفاهيم المادية والمعنوية والروحية التي تنظم و"تنتظم" صيرورة الحياة الإنسانية.

ولعله ليس من المبالغة في شيء إذا قلنا إن كثيرا من الثورات الجذرية الكبرى، التي عرفها المجتمع البشري قديما أو حديثا، كان مبعثها – في الواقع – غياب أو " تغييبّ" الحرية، كقيمة إنسانية واجتماعية وحضارية ووجودية، بنفيها تفقد الحياة توازنها وعطاءها واستمرارها، وبإثباتها – أو على الأقل – بالطموح إلى إثباتها تكتسب الحياة المعنى الممتلىء، المتألق، الذي يجعلها جديرة بأن تعاش.

وانطلاقا من هذا المنظور فإن من بين أهم المعالم المرجعية للمجتمع الجزائري معلم "الثورة التحريرية" الكبرى : ثورة الفاتح من نوفمبر 1954، التي توجت مختلف أشكال المعاناة المادية والمعنوية والحضارية التي كابدها الشعب الجزائري مدة قرن وثلث قرن من الزمن المأساوي المقيت، الذي لا تزال آثاره ومضاعفاته المؤلمة، قائمة إلى اليوم في حياة المجتمع الجزائري.

. موسوعة الفلسفة، ج 1، د : عبد الرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت – لبنان 1984، ص. 458–462.

– فصول (دورية، مصرية متخصصة) (الأدب والحرية ج1) مجلد 11 : الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة ربيع 1992، ص. 12–48/34–52.

وبعيدا عن الاستطراد التاريخي لحقائق ووقائع هذه الثورة العملاقة، فإننا يمكن أن نختزل النعوت والتحديدات الخاصة بها قائلين : إنها تجسيد مادي ومعنوي وحضاري حي لإرادة شعب حر، أصر على رفض "الموت بالحياة" وطلب "الحياة بالموت" مطبقا بذلك المقولة التراثية الآمرة التي تقول : "أطلب الموت توهب لك بالحياة"، وكان عند حسن ظن شاعر العروبة الأكبر، أبي الطيب المتنبي (303هـ - 354 هـ) عندما قال :

عش عزيزا أو مت وأنت كريم	بين طعن القنا وخفق البنود[1]
لا كما قد حييت غير حميد	وإن مت، متّ غير فقيد
فاطب العز في لظى وذر الذل	ولو كان في جنان الخلود

وبقدر ما جذرت الثورة وعي المجتمع الجزائري بحتمية تقرير مصيره بنفسه، بقدر ما كانت انتصارا تاريخيا وحضاريا للقيم الإنسانية النبيلة في العالم كله بوجه عام، وللشعوب المغلوبة على أمرها بوجه خاص. ولذلك لا نستغرب إذا وجدنا أن كثيرا من التجارب الأدبية والفنية خصوصا الشعرية المعاصرة لها في الوطن العربي متوهجة بقيم ووقائع وآفاق الثورة الجزائرية مباشرة حينا، وضمنيا حينا آخر[2].

---

[1]. شرح ديوان المتنبي، عبد الرحمن البرقوقي، ج 2، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان 1980 ص. 45-46.

[2]. لعل الدكتور عثمان سعدي من أبرز من اهتموا بجمع أشتات الشعر العربي الحديث الذي كانت الثورة الجزائرية موضوعا خصبا له، خصوصا في العراق وسوريا. انظر بهذا الخصوص : الثورة الجزائرية في الشعر العراقي ج 1، د. عثمان سعدي المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص. 12-152.

ونحن إذ نثمن كل الثورات والحركات التحريرية التي واجهت وفضحت الظاهرة الاستعمارية في العصر الحديث، فإننا نرى – دون ادعاء أو مزايدة – أن الثورة الجزائرية متميزة بكونها ثورة شعبية شاملة، منبعثة من العمق، وتستهدف التغيير الجذري في العمق، وليست كما زعم أعداؤها أو بعض المناوئين لها – مجرد "معركة" عسكرية، مؤسسة على فعل العدوان غير المشروع للمعتدي الفرنسي، ورد الفعل المشروع للشعب الجزائري في عقر داره فحسب، وإنما هي موقف ملحمي متفرد ورسالة حضارية أصيلة، تبناها ومكن لها الشعب الجزائري دفاعا عن هويته المادية والمعنوية والروحية والحضارية العينية، ونيابة عن كثير من الشعوب والمجتمعات العربية وغير العربية التي مازالت تعيش بمنطق سلطة التاريخ الرسمي المعلب الذي لم تساهم الشعوب في بلورته، إلا بالقدر الهين.

ومما لا شك فيه أن الأدب والفن بوجه عام، والشعر على وجه الخصوص، هو الذي احتضن الثورة الجزائرية، واستكنته أبعادها وقيمها الإنسانية المنظورة وغير المنظورة، وبالتالي هو الذي يفترض فيه تخليده لخصوصياتها في مجرى التاريخ الإنساني، محليا وقوميا وعالميا، بالرغم من انقضاء أسبابها ووقائعها الظرفية المحدودة في المكان والزمن.

وانطلاقا من هذه الإضاءة فإن السؤال الذي يطرح نفسه هو: كيف "مثل" و"عبّر" معا، شعر الشاعر الجزائري الثائر (مفدي زكريا) (1908–1977)– رحمه الله – عن "وقْع"(Effet) "واقع" الثورة الجزائرية التحريرية الكبرى ؟

ومن الواضح أن الصيغة التي طرحنا بها هذا السؤال، صيغة "كيفية" عمدنا إليها بعد أن تبين لنا أن "أدب الثورة" بوجه عام، وشعرها بوجه خاص، وشعر

مفدي زكريا، بوجه أخص – بما له وما عليه –لم يأخذ رغم كثرة ما كتب عنه – حظه من الدراسة الفنية، التطبيقية، التي تستطيع أن تستكشف – وقد تكتشف – خصوصياته التعبيرية الأصيلة أولا، وتستطيع تبعا لذلك – أن تموقعه في خارطة الشعر العربي الحديث ثانيا.

وفي هذا السياق علينا أن نسجل – بداية – أن شعر الثورة عموما، وشعرها عند مفدي زكريا خصوصا لم يكن – شأن الثورة نفسها – طفرة منبتة الصلة بما قبلها، أي بالشعر الجزائري الذي قيل عن الثورة أثناء مراحل اختمارها وغليانها الكامن□، إذ رغم ما يتصف به هذا الشعر من فقر في المخيلة الشعرية، فقد استطاع أن يؤدي الوظائف التي توخاها منه ناظموه، والتي تمثلت في الجمع بين الدعوة الاصطلاحية ذات المنظور التراثي السلفي، وبين النقد الاجتماعي والتربوي والحضاري العام.

لكن مع قيام الثورة ومباغتتها المخططة للاستعمار الفرنسي ولعملائه داخل أرض الجزائر وخارجها، وبوصولها – رغم الراجفة قلوبهم – إلى نقطة "اللارجوع"، بدأت مخيلة الشعراء تتحرر من أسر النزعة الإصلاحية التي كانت سائدة عند البعض وبدأ الانطوائيون على ذواتهم المحبطة حينا، وشعراء النظم المعلب بالمناسبات الظرفية المستهكلة، حينا آخر ينزوون في الظل، لتبرز إلى الواجهة التجارب الشعرية المتوهجة بوهج الثورة والموقعة بإيقاعها والمشبعة بدلالاتها ومعانيها وقيمها الإنسانية.

□. كأمثلة لذلك نذكر : محمد الأمين العمودي (1892–1957)، محمد العيد آل الخليفة، (1892–1979) عبد الكريم العقون (1918–1959)، الربيع بوشامة (1916–1959) مفدي زكريا–الشيخ أمحمد الشبوكي (شبايكي) – الشيخ أحمد سحنون، الخ.

وبالطبع فإن الأساليب والرؤى(يات) الشعرية للثورة قد تفاوتت أهميتها من تجربة شعرية لأخرى، بل من نموذج شعري لآخر داخل التجربة الواحدة. فالتجربة الشعرية المواكبة للثورة، مواكبة كلية، من الداخل : مفدي زكريا – محمد العيد آل خليفة – الربيع بوشامة – عبد الكريم العقون – محمد شبايكي، تختلف عن التجربة الشعرية المواكبة للثورة من خارجها وبعيدا عن أضوائها الكاشفة مثل شعر الشعراء الشباب الذين كانوا يطلبون العلم ببعض جامعات المشرق العربي في ذلك الوقت، كالدكتور أبو القاسم سعد الله والدكتور محمد الصالح باوية والدكتور صالح خرفي ومحمد أبو القاسم خمار وعبد الله شريط، وغيرهم. لكن رغم هذا التفاوت فإن الملمح المشترك للشعر الجزائري الحديث، يتمثل في التزامه الفني بالتعبير عن الثورة الجزائرية، بوصفها موقفا ملحميا أصيلا وقضية إنسانية عادلة، مشروعة ترفع لواء الحرية المادية والمعنوية والحضارية عاليا.

ومن أخصب التجارب الشعرية الجزائرية المواكبة للثورة، مواكبة كلية من الداخل، تجربة الشاعر والمناضل العنيد منذ مطلع شبابه مفدي زكريا.

وبعيدا عن تبني المعايير التفاضلية للتجارب الشعرية الجزائرية الحديثة، فإن أهمية شعر مفدي زكريا تتمثل في كونه شعرا تخصص في تعميق الوعي الوجداني بالثورة، كبركان كامن محموم يتحفز للانطلاق في الثلاثينات والأربعينات، و"كلهب مقدس" يعلن عن الفداء والتضحية من أجل افتكاك الحرية المسلوبة، أثناء اشتعال الثورة المباركة.

وإذا كان من الإنصاف أن نقرأ شعر مفدي زكريا، بوصفه شعرا تقليديا، عمودي المبنى والمعنى، في الوقت الذي حققت فيه القصيدة العربية الحديثة، خصوصا بمصر

وسوريا والعراق ولبنان، إنجازات فنية كبيرة على طريق التجديد والتحديث، فإنه من الإنصاف – أيضا – أن نتساءل : ألا توجد هناك خصائص فنية متميزة بهذا الصوت الشعري الذي لم يخرج عن الدوران في فلك القصيدة العربية التقليدية ؟

وبصيغة أخرى، فإذا كانت الثورة الجزائرية التحريرية، التحررية الكبرى، تمثل "موضوعا" ملحميا أوليا خاما، فهل استطاعت التجربة الشعرية لمفدي زكريا أن تولد من "الثورة" كموضوع ملحمي "خارجي" موقفا شعريا ملحميا، ليس من الضروري أن نحكم فيه معايير "الملحمة" كنوع أدبي، له ظروفه وخصائصه وتقاليده ونماذجه المتميزة في تاريخ الأدب الإنساني القديم ؟[1]

ونحن إذ نطرح هذا التساؤل فإننا نعني – تماما – أن عملية استكشاف، تم اكتشاف خصوصيات الصناعة الشعرية عند هذا الشاعر أو ذاك لا تكمن في طبيعة "الموضوعات" أو "المضامين، التي تمثل المجال الوظيفي للقول الشعري، رغم ما "للموضوعات" من أهمية، وإنما تكمن في كيفية القول الشعري نفسها[2]، أي في الطريقة

---

[1]. انظر في ذلك : الأنواع الأدبية، مذاهب ومدارس، د. شفيق البقاعي، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر بيروت – لبنان 1985، ص. 307–405، موسوعة نظرية الأدب، إضاءة تاريخية على قضايا الشكل، القسم الأول، ترجمة د. جميل نصيف التكريتي، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد – العراق 1986، ص. 101–204.

[2]. على سبيل المثال تنظر المراجع الآتية :

- ROMANE JAKOBSON , Essais de linguistique générale T 1 (traduit de l'anglais, par Nicolas Ruwet, Paris, 1963, p.210-220.

- GERARD GENETTE , Figures 3, Ed du Seuil, Paris, 1967, p. 49-69.

MICHEL RIFFATERRE, Essais de stylistique structurelle, TRAD. Daniel Delas Paris, 1971, p. 27-62, et 182-240 / 261–364 •••

الفنية التي استخدم بها الشاعر اللغة الشعرية، على النحو الذي يجعلها تولد من "الموضوع" أو "المضمون" الخارجي "رؤية فنية" خالدة في مجرى الزمن، ليس لأنها "موضوعا" مهما أو "مضمونا" أكثر أهمية، وإنما لأنها "فن الموضوع" و"فن المضمون". وفي ضوء هذا فإننا لا نعني – كما قد يفهم – أن التجربة الشعرية الطويلة لمفدي زكريا تمثل ملحمة مناظرة/ جزئيا أو كليا، للملاحم القديمة، التي تمثل "البطولة" المثالية الخارقة أحد أهم معالمها "الموضوعاتية" الأساس وإنما نعني بالموقف الملحمي أن مفدي زكريا الشاعر الملتزم، والمناضل السياسي المبدئي، والسجين المعذب، الذي يصنع سجنه وسجانه طقوس وشعائر حريته، قد تشرب بوجدانه وتمثل بوعيه الذهني وامتصت جوارحه الحسية، الصوت الملحمي لإرادة الجزائر الثائرة التي قرر شعبها أن يمحو التاريخ الاصطناعي، المزيف الذي أرادته له فرنسا ظلما وعدوانا، وأن يكتب تاريخه الحقيقي بدمه ودموعه وأشلائه وآهاته وجراحه المادية والمعنوية.

ولا شك أن أبرز "معالم" الصوت ثم الموقف الملحمي – لا الملحمة – عند مفدي زكريا، يتمثل في "منظومته" الشعرية المطولة التي أريد لها، أن تكون "ملحمة" أو

••• بناء لغة الشعر، جون كوين، ترجمة د. أحمد درويش، مكتبة الزهراء – القاهرة 1985، ص. 39–64.

نظرية الأدب، رينية ويللك، أوستن وارين ـ ترجمة: محي الدين صبحي، دمشق – سوريا 1972، ص. 179–204.

– عالم الفكر (دورية كويتية متخصصة) مج: 1،2، أبريل– يونيو، الكويت 1971 (حضارة اللغة، د.أحمد أبو زيد ص. 11–31) اللغة والمنطق في الدراسات الحالية د. عبد الرحمن بدوي، ص. 65–90).

مدخل إلى مناهج النقد الأدبي ترجمة د. مختار ظاظا (عالم المعرفة 221)، الكويت، مايو 1997، ص. 209–259.

"مستنسخا" ملحميا بعنوان دال على ذلك وهو : "إليـاذة الجزائـر"□ . قياسا علـى العنـوان الـذي تحملـه إحـدى أكـبر الملاحـم في تـاريخ الأدب الإنسـاني القـديم، وهي : "إلياذة هوميروس". والواقع أننا إذ نتحفظ على اعتبار هذا العمل "ملحمة" فإننا نعتبره مطولة شعرية تنـزع منزعـا أسـلوبيا تمثيليـا، وتعبيريـا، يتغنـى فيـه الشـاعر "بمفاتن" و"بطولات" و"كرامات" الجزائر عـبر التـاريخ مـن موقـع الإرادة الجماعيـة والجمعية التي تهيمن عليها صيغ الأصوات الملحمية ممثلة في تـردد وترديـد ضـمائر الجمع بنسب كمية لافتة للانتباه عبر المطولـة كلـها، كمـا يتضـح ذلـك في النمـاذج الآتية :

أولئـــك **أباؤنـــا**، منـــذ عيســـى ... وكـــان محمـــد صـــهرا لعيســـى
صــمود **الأمــازيغ** عــبر القــرون ... غـــزا النـــبرات وراع النجومـــا
فكـــم **أزعجـــوا** نائبـــات الليـــالي ... وكـــم **دوخـــوا** المســـتبد الظلومـــا
ومرحـــــى لعقبـــــة في **أرضـــــنا** ... يـــنير الحجـــى، ويشـــيع اليقينـــا
وجـــاءت فرنســـا **فكنـــا كرامـــا** ... وكنـــا **الألى يطعمـــون الطعامـــا**
فـــــأبطرهم **قمحنـــــا** الـــــذهبي ... وكـــم تبطـــر الصـــدقات اللئامـــا
بلونـــا الســـنين الطـــوال جهـــادا ... **تباركنـــا** معجـــزات الســـما
مـــضت مـــائة وثـــلاثون عـــاما ... **نـــــذود، ونـأنـــــف** أن **نـــهزما**□

□. مجلة الثقافة، وزارة الثقافة – الجزائر عـ : 1994/104، ص. 208-226.

□. إلياذة الجزائر، مفدي زكريا، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائـر 1972 ص. 17/19/20/30-31.

إن هذه المطولة الشعرية التي يتوشحها الوعي الملحمي، وإن لم تكن ملحمة، تناظر في هيكلتها ومجالها "الموضوعاتي"[1] (Domaine thématique) مطولات كثيرة في الشعر العربي القديم والحديث، منها – على سبيل المثال – مطولة الشاعر المصري أحمد شوقي (1868–1932) بعنوان تاريخي ملحمي الإيقاع وهو "كبار الحوادث في وادي النيل" ، ومطولة الشاعر المصري، الرومانسي المتأمل، (محمد عبد المعطي الهمشري)، الذي استغرقته جدلية الموت والحياة، بعنوان أسطوري دال على ذلك، وهو: "شاطئ الأعراف" . نعم إننا لا نستطيع أن ننكر "وقع" و"إيقاع" الصوت الملحمي القائم في هذه المطولة التي تستعرض التاريخ البطولي الأبعد للجزائر، من مركز قول شعري أساس، يتمثل في اللازمة المترددة (refrain) عبر المنظومة كلها، وهي :

شغلنا الورى، وملأنا الدنى

. انظر :- Gerald Prince, Revue Poétique N° 64 , Ed du Seuil, Paris, 1985, P. 495-497

مدخل إلى مناهج النقد الأدبي (عالم المعرفة، 221) سا، ص. 117–161.

. الشوقيات، ج 1، أحمد شوقي، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان (د،ت) ص. 17–33.

. المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، عـ 52، صيف 1995، الشاعر والموت، قراءة في ملحمة الهمشري شاطيء الأعراف" د. عبد الله المهنا، ص. 10 –131.

. في سياق هذا المصطلح انظر :

– المصطلحات الأدبية الحديثة، د. محمد عناني، الشركة العالمية للنشر لونجمان، القاهرة 1966، ص. 91.

Iouri lotman, La structure du texte artistique, trad. par Henri Meschannic. Ed Gallimard, Paris, 1973, p. 162-181.

G. Genette, figurs, 3 Ed du Seuil, Paris, 1972, p. 145-182.

بشعر نرتله كالصلاة
تسابيحه من حنايا الجزائر[*]

إلا أن الموقف الملحمي عند مفدي زكريا لا يتحقق في هذه المطولة التي قالها الشاعر عن الجزائر أثناء الاستقلال بإيعاز من المرحوم (مولود قاسم نايت بلقاسم) (1927-1992)، وإنما نجده أكثر ترددا وأبلغ تأثيرا وأعمق دلالة في القصائد والأناشيد التي نظمها مفدي زكريا عن الجزائر من داخل أعمق أعماقها (السجون)، ومن موقع الشاهد والمشهود، أو قالها عن المشرق والمغرب العربيين انطلاقا من تشبعة بالموقف الملحمي للجزائر الثائرة أرضا وشعبا وقضية وحضارة. وكما فعل عملاق المسرح العربي، توفيق الحكيم (1898-1987)، في عمله الروائي التأسيسي المتميز: "عودة الروح"، حين عمد إلى بناء فكرة : "الكل في واحد" روائيا، فقد طبق الشاعر مفدي زكريا المبدأ نفسه شعريا، حين جعل من صوت الإرادة الجمعية، الجماعية، للثورة الجزائرية مركزا وهاجا للقول الشعري، مركزا تنبعث منه وترتد إليه كل الأصوات والتراكيب والصيغ والدلالات الشعرية وربما هذا ما جعل كل القصائد والأناشيد الشعرية لمفدي زكريا متماثلة، تماثلا، يكاد يكون كليا، سواء كان ذلك على مستوى طبيعة ووظيفة اللغة الشعرية والصور الشعرية والإيقاع الموسيقي أم كان على مستوى البنى الدلالية والمعنوية.

---

[*]. تمثل هذه اللازمة المترددة أهم مظهر للصوت، فالموقف الملحمي عند مفدي زكريا في هذه المطولة. فمن الناحية الكمية نجد أنها ترددت إحدى وستين مرة بشكل متجانس صوتيا وإيقاعيا ونحويا ودلاليا، ومن الناحية القيمية نجدها قد حققت كثيرا من خصائص القصيدة الحديثة كوحدة الموضوع ووحدة "الوقع" و"الإيقاع".

وبما أن المقام هنا لا يتسع للإحاطة بطبيعة ووظيفة كل المدارات الشعرية والصور الشعرية لمفدي زكريا، فإننا سنكتفي بوصف وتحليل بعض النماذج الشعرية الأكثر تمثيلا (ل) وتعبيرا (عن) الموقف الملحمي في شعر هذا الشاعر.

وقبل ذلك يستحسن أن نستأنس بما قاله مفدي زكريا نفسه عن "الموقف الملحمي" في شعره، وذلك من خلال البطاقة التعريفية الإجمالية التي وضعها لديوانه أو – بالأحرى – لديوان ملحمة الثورة الجزائرية "واللهب المقدس"، هو "ديوان الثورة الجزائرية" بواقعها الصريح، وبطولاتها الأسطورية،وأحداثها الصارخة، وهو (شاشة تلفزيون) تبرز إرادة شعب استجاب له القدر" . وإذا تركنا هذه الإضاءة الخارجية واقتربنا من المادة الشعرية لمفدي زكريا، سنجد أن أول واجهة فنية يرتسم فيها الموقف الملحمي هي واجهة العنونة الشعرية التي انتقاها وارتضاها الشاعر "وسما" و"تسمية" لخطابه الشعري.

ولا نود هنا أن نفصل الحديث عن الأهمية الفنية، الوظيفية والدلالية للعنوان، ولكن يكفي أن نشير إلى خلاصة ما انتهت إليه الدراسات النقدية المعاصرة بهذا الخصوص، حيث أجمعت كلها على أن عنصر العنونة من بين أهم العناصر النصية المفتاحية الأساس، التي تتيح للمتلقي أن يتمثل الآليات والآفاق الدلالية الأولية التي من شأنها أن تستكشف هوية النص الأدبي الدفينة، مهما كان نوعه وشكله واتجاهه ودلالته .

. ديوان اللهب المقدس، مفدي زكريا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1983، ص. 4.

. انظر بهذا الخصوص :

– اللغة والإبداع الأدبي : د. محمد العبد، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة 1987، ص. 13-51.

ورغم افتقار الشعر الجزائري العمودي الحديث إلى العنونة الفنية الجاذبة التي نجدها في شكل "القصيدة الجديدة"، فإننا نجد في شعر مفدي زكريا كثيرا من العناوين الشعرية التأسيسية، المدارية، التي يمكن وصفها ب"بؤر" الإشعاع الدلالي المركزي.

وفي هذا السياق فإن أول عنوان تأسيسي، معلمي، لافت للاهتمام، هو العنوان الخارجي "الكلي" الذي تفنن مفدي زكريا في وسم ديوانه الشعري به، وهو "اللهب المقدس". ذلك أننا إذا أردنا أن "نمركز" الخطاب الشعري لمفدي زكريا كله، لقلنا إن عنوان "اللهب المقدس" هو الذي يمثل مركز القول الشعري للشاعر في كل المدارات الشعرية له. فكل العناوين الشعرية الداخلية التي بلغ عددها أربعة وخمسين



عنوانا (54) جاءت في شكل مدارات "موضوعاتية" حلزونية تسلم إلى بعضها البعض في حالة انتشارها باتجاه الخارج، وفي حالة العودة بها باتجاه الداخل، انطلاقا من البؤرة الشعرية المركزية المشعة لعبارة، "اللهب المقدس"، كما يمكن أن نمثل لذلك بهذا الشكل المداري الحلزوني فمن تمثلنا الكلي لمنظومة العناوين الشعرية عند مفدي زكريا، كما هي مبنية في الشكل الحلزوني السابق، نلاحظ أن الأهمية الفنية للكثير منها تبدو محدودة العطاء بالقياس إلى طبيعة العنونة في الشعر العربي الحديث لدى "جماعة الديوان" وجماعة "أيوللو" و"الشعراء المهجريين" بوجه عام، ولدى "الشعراء الجدد" الذين استعاضوا عن الشكل العمودي الأفقي بالشكل الدائري، اللولبي، المؤسس على "رؤية" مركزية غالبا ما يكون العنوان هو العنصر المولد لها. إلا أننا – رغم هذا – لاحظنا أن عناوين مفدي زكريا، على وجه الخصوص، تمتلك خصائص فنية متميزة، اقتضاها سياق الموقف الملحمي الذي يتميز به شعره، ومن أبرز هذه الخصائص ما يأتي :

1. أن كل عناوين مفدي زكريا متجانسة، جزئيا أو كليا، في المجال الوظيفي "الموضوعاتي"، الأكبر لها، متمثلا في "الثورة الجزائرية"، بحيث تبدو الموضوعات الجزئية الفرعية بالديوان متولدة عن بعضها من جهة ومفسرة لبعضها من جهة ثانية.

2. أن جل عناوين مفدي زكريا تتماثل – بدرجات متفاوتة– في نزوعها بوعي المتلقي منزعا حكائيا غيريا لا تستغرقه الخصائص الوصفية الساكنة للأشياء بقدر ما تستغرقه الوظائف المتحركة، التي تحفها حينا وتسكنها حينا آخر دلالات أسطورية روحية تتفاوت في الظهور والضمور.

3. أن جزءا كبيرا من العناوين الشعرية عند مفدي زكريا، خصوصا تلك التي تمثل المدار الأول والتاني – انظر المجسم الدائري الحلزوني السابق – تمتلك خاصية التصاعد اللفظي والإيقاعي والدلالي بوعي المبدع والمتلقي معا، إلى الأعلى المفتوح الذي لا يتناهى عند حد معين أو يرتبط بزمان معين. بل إن إرادة الأعلى المنشود في سياقاته وصيغه المتنوع: (الله – القدر – الأنبياء والرسل – الرسالات – السماء – الخ) تبارك إرادة المريد من الأسفل وتتلاحم معها لصنع الموقف الملحمي الأكبر الذي تلاشى فيه الصوت والموقع والموقف الذاتي الفردي للمعبر والمعبر عنه والمعبر به.

ويتجلى ذلك – لأول وهلة – في العنوان الجامع "اللهب المقدس" الذي جمع في آن واحد بين منطق "الإشارة"[] (Signal) و"الأيقونة"[] (Econe) و"الرمز"[] (Le symbole) والذي ينزع بوعي المتلقي منزعا أسطوريا مفارقا، وإن لم يحله على أسطورة بعينها، ثم في عناوين المدار الأول التي تمثل توهج وعنفوان الموقف الملحمي الاحتفالي في شعر مفدي زكريا، مثل "الذبيح الصاعد"[] "وقال الله"[]..." "حروفها حمراء"[] " اقرأ كتابك"...[]، "فاشهدوا"[]، الخ.

[]. Oswald Ducrot et T. Todorov, Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, Ed du Seuil, Paris, 1972, p. 131 –138.

[] . *Ibid*, p. 115.

[]. انظر :

– الرمز الشعري عند الصوفية، د. عاطف جودة نصر، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان 1983، ص. 58-120.

– عالم الفكر (الرمز والأسطورة) مج 16 عـ 3، أكتوبر – ديسمبر 1985، الكويت ص. 58–120.

عالم الفكر، مج 25 عـ 3 يناير – مارس 1997 (سا) ص. 9-43.

[]. اللهب المقدس (مص : سا) ص. 9 –19.

فعبارة "اللهب المقدس" التي تمثل اللافتة الكبرى المعلنة عن الموقف الملحمي للثورة في شعر مفدي زكريا، تستحضر معها صورا وظيفية ودلالية لموضوع "النار" كقوة أسطورية عقائدية خارقة تبعث على الرهبة والرغبة في سياق المعلوم والمجهول معا، ففي القرآن الكريم نجد أن تجلي الله لموسى – عليه السلام – كان بوساطة النار بدليل قوله تعالى : "هل آتاك حديث موسى إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى، فلما أتاها نودي يا موسى إنني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى"□ . ومن الصور الغائبة التي يومض بها هذا العنوان "الصورة والموقف"، التي جاءت بخصوص سيدنا إبراهيم الخليل – عليه السلام – في مواجهته وتحديه برسالة السماء، للمشركين الذين ألقوا به في النار فكانت عليه بردا وسلاما، وعليهم خزيا وانكسارا : "فقلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم"□ .

ويومض عنوان قصيدة "الذبيح الصاعد" بصورة السيد المسيح عيسى بن مريم – عليه السلام – الذي شبه لأعدائه أنهم صلبوه، وما صلبوه، ولكن الله رفعه إليه□ ، والقول عن الثورة الممجدة التي باركها الله في العنوان الزمني :" وقال الله..." يحيلنا – مباشرة – على كلام الله الذي هو منتهى الحجة واليقين والحق، والجملة الزمنية

□. نفسه ص. 30-41.
□. نفسه ص. 53-54.
□. نفسه ص. 57 -67.
□. نفسه ص. 71 -72.
□. سورة طه الآيات7-13.
□. سورة الأنبياء الآية 69.
□. سورة النساء الآية 157.

الآمرة بالقراءة في العنوان : "اقرأ كتابك"، هي جزء من قوله تعالى: "اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا"[] . ومن الواضح أن مفدي زكريا الشاعر، لا يعني بهذه "التناصات" سياق يوم النشور في عالم الغيب، خصوصا في العنوان الأخير، وإنما هو عبر بذلك عن الموقف الملحمي للثورة الجزائرية، بوصفها شبها من أشباه يوم النشور، ولكن في عالم الشهادة.

وكما هو واضح في الشكل المداري، الحلزوني السابق، فإن أقرب مدار لمركز التجربة الشعرية الوهاجة عند مفدي زكريا، هو مدار الموقف الملحمي للثورة في العمق، كما جسدته في العين وطبعته في الأذن ومركزته في الوعي الذهني والوجداني للمتلقي القصائد الخمس الأولى المنبعثة كالتعاويذ والتسابيح المقدسة حينا، وكالحمم البركانية حينا آخر، من أعماق سجون العذاب والموت، التي يبدو أن أبشعها وأرهبها السجن المعروف باسم "بربروس" بالجزائر العاصمة.

وإذا كان مفدي زكريا لم ينفرد بالشعر الذي صور وعبر عن المعاناة المادية والمعنوية التي تولدت داخل السجون والمعتقلات والمنافي أثناء الثورة الجزائرية بوجه خاص، فإنه قد تفرد في كيفية التعبير الفني عن هذا الموضوع المأساوي، الملحمي في التاريخ الحديث للشعب الجزائري. فنحن نعلم أن وظيفة مطلق السجون والمعتقلات التي أنشأتها فرنسا بالجزائر عموما، ووظيفة (سجن السجون) "بربروس" بالجزائر العاصمة، خصوصا، قد تجاوزت مجرد الأسر والاعتقال والحد من الحرية الفردية والجماعية، إلى التفنن في تجريب واختبار مختلف أساليب التعذيب والتنكيل وإلى صناعة أبشع وأفظع أشكال الموت. إلا أن الموقف الملحمي في الخطاب الشعري لمفدي زكريا يقلب وعينا بهذه الوظائف المأساوية رأسا على عقب، كما يظهر ذلك بشكل

[]. سورة الإسراء الآية 14.

خاص، في القصائد الخمس الأولى بالديوان. فهي جميعا قد صيغت صوغا شعريا ملحميا، غيريا تحتفل فيه لغتها وصورها وإيقاعها بتجذر وتوهج إرادة الثورة الجزائرية، بوصفها امتدادا لقوة إرادة القدر التي لا مرد لنفاذ قضائها.

وكمثال تطبيقي لذلك فإن أروع روائع شعر مفدي زكريا بعنوان: "الذبيح الصاعد" التي تصدرت الديوان، لا تعبر عن حالة التشبع الذهني والوجداني والحسي للشاعر بالحدث الإجرامي الفظيع، الشنيع، الذي يتمثل في قطع زبانية العذاب لرأس البطل، الشهيد، (أحمد زبانا) أو (أحمد زهانا) فحسب، وإنما هي – في كل أبياتها الثمانية والستين بيتا – تمثيل (ل) وتعبير (عن) موقف ملحمي مؤسس على "مفارقة"[] (PARADOXE) فنية مقلوبة، تشبه كثيرا من المفارقات الفنية الغريبة التي كانت تستهوي المتنبي، في مثل قوله :

يحاذرني حتفي كأني حتفه   وتنكرني الأفعى فيقتلها سمي

ويظهر ذلك – ابتداء – في عنوان القصيدة : "الذبيح الصاعد". فرغم أن الصورة الصوتية والمرئية لكلمة "الذبيح" لا تحيل على إنجاز وظيفة القتل أو الموت وانتهى، وإنما تحيل على تبيان حال القتل ذبحا إمعانا في التعذيب والتنكيل بالمفعول به، وتعبيرا عن الإرادة الحاقدة للفاعل، فإن المخيلة الشعرية الملحمية للشاعر تتصاعد بذبيحه إلى الأعلى وتقلب المنطق النحوي الدلالي المفترض في هذا "الحدث الموقف" الذي يصير فيه "الذبيح الصاعد" هو الذي يحتل موقع الفاعل بينما يشغل "الذابح" موقع المفعول به، وبذلك يجد المتلقي نفسه بصدد موقف ملحمي احتفالي مفارق،

[]. المفارقة والآدب، دراسات في النظرية والتطبيق، د. خالد سليمان دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 1999، ص. 13-36

ينتفي فيه حكم الإعدام المادي المنفذ من قبل جلادي سجن "بربروس" ومن ثمة من قبل الجلاد الأكبر، متمثلا في فرنسا، ليس لأن روح هذا الذبيح النبيل قد صعدت إلى بارئها انسجاما مع ملفوظ الآية الكريمة :"ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون"، وليس لأن الوضعية المكانية لهذا الحدث تقتضي أن يصعد "الذبيح" الرمز الذي يحمل في كيانه المادي والمعنوي والروحي رسالة إنسانية مقدسة، متسامية بطبيعتها إلى الأعلى ونعني بذلك رسالة الحرية التي ترفع الجزائر الثائرة لواءها عاليا خفاقا بوساطة الموقف الملحمي الاحتفالي المؤطر شعريا للشهيد "أحمد زبانا"، بما يعني أن ذبح رموزها الفاعلة ليس وأدا لها كما يتوهم السجان أو الذابح أو المعذب الفرنسي، وإنما هو إذكاء لجذوتها وبعث مادي ومعنوي وروحي لشعلتها المتألقة دوما إلى الأعلى.

وانطلاقا من هذا المعنى المركزي الذي تتحرك في فلكه كل المدارات الشعرية لمفدي زكريا، يمكن أن نحلل بعض المظاهر الفنية الأساس التي بموجبها تشكل الموقف الملحمي الاحتفالي في هذه القصيدة التي بلغت روعة التصوير الفني فيها ما لم تبلغه إلا نادرا في نظائر كثيرة لها في الشعر العربي الحديث.

فكل العناصر الفنية التعبيرية والتصويرية تتفاعل فيما بينها، تفاعلا وظيفيا ودلاليا "لتملحم" و"تؤسطر" الموقف الثوري البطولي الذي تشبع به الوعي الذهني والوجداني لمفدي زكريا، واستقطبه الكيان المادي الموضوعي لشهيد الحرية والكرامة والمجد أحمد زبانة. ولذلك فالشاعر – منذ البداية – لا يصور ذبيح الحرية المنشودة بالنيابة عن صوت الشعب وإرادته، في السياق الانفعالي السلبي، الذي يستشير في

. سورة آل عمران، الأية 169.

الملتقى بواعث العطف والتعاطف (على) و(مع) الشهيد أحمد زبانة، بوصفه "مفعولا به" وإنما هو يحشد له صورا تمثيلية وتعبيرية (زمكانية)[] (CHRONOTOPE) في السياق الانفعالي الاحتفالي الذي تتعزز فيه بواعث الفخر والإكبار والإعجاب، من موقع "الفاعل" الذي ينشد الموت بإرادة تلقائية واثقة يتحدى فيها جلادية، بزهوه وخيلائه وترانيمه وبشره وبراءته وحلمه وصعوده وتساميه وتلاوتة وتهاديه :

قام يختال، كالمسيح وئيدا | يتهادى، نشوان يتلو النشيدا
باسم الثغر،كالملاك، أو كالط | فل يستقبل الصباح الجديدا
شامخا أنفه، جلالا وتيها | رافعا رأسه، يناجي الخلودا
رافلا في خلاخل زغردت تملأ | من لحنها الفضاء البعيدا!
وتسامى كالروح في ليلة القدر | سلاما يشع في الكون عيدا !
وتعالى مثل المؤذن يتلو... | كلمات الهدى، ويدعو الرقودا !

وقد يتساءل البعض قائلا : أليس السياق المفترض في هذا المقام هو سياق الموقف المأساوي، الباكي، الحزين، الذي يستلزم أن تأتي هذه القصيدة أوثق ارتباطا بغرض "الرثاء" منها بأي غرض آخر، ومن ثمة، ما الذي جعل المشهد الدرامي الأليم يتحول إلى مشهد احتفالي بهيج ؟!

الواقع أن الشاعر لا تعنيه في العمق، شخصية الشهيد، البطل، أحمد زبانة، العينية، الموضوعية، بوصفها هي الموضوع الخارجي المدرك والمشهود، كما لا يعنيه أيضا أن يعبر ويعرب عن تأثره هو شخصيا، بوصفه شاهد (على) تنفيذ حكم الإعدام

[]. Joelle Gardes, Tamine Marie, Claude Hubert, Dictionnaire de critique littéraire, MASSON, Paris, 1996, p. 35 – 36.

الفردي، وذلك لأن مدار القول الشعري كله في هذه القصيدة، وفي شعر مفدي زكريا كله، هو أن الجزائر كلها في حكم هذا الموقف الدرامي الملحمي لأحمد زبانة. ولذلك فالشاعر جعل من مأساته التي هي عرسه، مجرد مناسبة تتيح له أن يلتحم بما يعنيه في العمق وليس في السطح، وما يعنيه في العمق أجل من أن يتوسل له بصيغ الخطاب الباكي أو المستبكي، وإنما الطريق إلى ذلك هو أن يمعن الشاعر "كشاهد" "مشارك" ومعبر، وأحمد زبانة، كمشهود، معبر عنه وبه في آن، في الاحتفال المادي والروحي المتألق بقصص ومواقف الفداء والتضحية والاستشهاد الكبرى، التي طهرت الإنسان من تبعيته للإنسان، وحررت وجدانه وعقله وكيانه المادي، العضوي، من مركبات النقص أو الضعف البشري، ومن عقد الخوف التي كرسها فيه شبح الموت الجبان، الذي يصدر – غالبا – عن الظالمين والطغاة والمستكبرين في الأرض.

ولذلك فإن المدار الدلالي الذي تتحرك فيه القصيدة كلها يتمثل – كما أشرنا مرارا – في إرادة الحياة بالموت، إثباتا وتثبيتا للحرية مقابل الموت بالحياة حيث الحرية المنفية بل الموؤودة على كل المستويات. ولكي يجذر الشاعر هذه المعادلة المركزية المفارقة، فقد جعل الموقف – أو فلنقل – المواقف الملحمية لإرادة الجزائر في عالم الشهادة تتنفس بقوة الإرادة الخارقة للمطلق في عالم الغيب.

ولا أود أن يفهم من هذا أن صوت الشاعر مفدي زكريا، صوت تجريدي غيبي، وإن كان القدر، الغيب، المطلق، الدين، أحد أبرز معالم ثقافته، وإنما هو صوت شاعري إرادي، كوني، يستثمر كثيرا من المواقف الغائبة المشعة بدلالة الحرية في التراث الديني والروحي الذي لا ينحصر فقط في دائرة الإسلام وإن كانت هي الأظهر، وفي هذا السياق، ومن باب المثال لا الحصر، فإن أهم الصور الشعرية التراثية التي استدعاها الموقف الملحمي المتصاعد من أجل الحرية، تتمثل في :

1. **الصورة السردية الزمنية** التشبيهية الأولى التي ركبت للشهيد، المشهود، أحمد زبانة، وهو يقبل على المقصلة من موقع تهافت وزيف أسطورة صلب السيد المسيح عليه السلام :

قام يختال كالمسيح وئيدا   يتهادى نشوان يتلو النشيدا

2. **الصورة التشبيهية الحالية** الثانية، المركبة، التي يتماثل فيها أحمد زبانة مع ثلاثة عناصر أو أطراف متجانسة من حيث طبيعتها ودلالتها، هي :

(الملائكة، الطفولة، الصباح الجديد) :

باسم الثغر، كالملاك، أو كالطفل   يستقبل الصباح الجديدا

3. **الصورة الوصفية الحالية السمعية** المركبة لأحمد زبانة في سياق العرس المتولد عن المأتم :

رافلا في خلاخل، زغردت تملأ   من لحنها الفضاء البعيدا

4. **الصورة التشبيهية الحالية المعنوية**، المركبة، لحلم أحمد زبانة، في الحاضر و(لكليم) لله موسى – عليه السلام – في الماضي السحيق، بالشطر الأول "حالما، كالكليم، كلمه المجد"، **والسردية السببية المتصاعدة "زمكانيا" إلى الأعلى** : "فشد الحبال يبغي الصعودا."

5. **الصورة السردية الحالية التجريدية** الأكثر تركيبا لأحمد زبانة، "كمشبه" و"الله" و"الروح" و"القرآن" و"ليلة القدر"، "الملائكة"، " كمشبه بها" :

وتسامى، كالروح، في ليلة القدر   سلاما، يشع في الكون عيدا

6. **الصورة السردية المركبة ل** (أحمد زبانة – الرسول صلى الله عليه وسلم) – ليلة الإسراء والمعراج – البراق – المسجد الحرام – المسجد الأقصى) :

وامتطى مذبح البطولة معراجا   ووافى السماء يرجو المزيدا

7. **الصورة السردية التشبيهية (الصوتية)** المركبة لأحمد زبانة، كإرادة متماثلة في الحاضر، مع إرادة غائبة في الماضي التاريخي، ولكنها كمعنى للحرية تبدو فوق الزمن التاريخي، ونعني بذلك إرادة أول مؤذن في تاريخ الدعوة الإسلامية (بلال الحبشي)، الذي أعلن عن تحرير عبوديته من موقع الانتصار ليس بالسيف وبما هو من جنس القوة المادية، وإنما بالعذاب والألم والمعاناة، أولا، وكما أعلن – نتيجة لذلك – عن قلب مفهوم السادة والعبيد على إطلاقه، ثانيا. وكل ذلك بواسطة الشعار الشمولي الأساس للدعوة الإسلامية : " الله أكبر" وتعالى مثل المؤذن يتلو . . . كلمات الهدى، ويدعو الرقودا."

إن كل هذه الصور الوظيفية والدلالية الأساس في قصيدة "الذبيح الصاعد" **ليست مجرد صور بلاغية، تشبيهية، غالبا، وإن تذرعت "بالتشبيه"**[] **(Similitude)** بحيث لا تتجاوز وظيفتها – الصور البلاغية – الإعراب والتعبير عن

[]. انظر :

– الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، د. جابر عصفور، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة 1975، ص. 224 – 271.

– البلاغة، المدخل لدراسة الصورة البيانية، فرانسو مورو، ترجمة : محمد الولي، عائشة جرير، الحوار الأكاديمي والجامعي، المغرب 1989، ص. 15-25.

مصداقية ونبل الموقف الملحمي الذي ولدته المخيلة الشعرية لمفدي زكريا من المشهد المأساوي الأليم، الذي يتمثل في إعدام القتلة والجلادين الفرنسيين للمناضل الشهيد أحمد زبانة، فهذا التفسير البلاغي، وإن كان مؤسسا ومشروعا في الشعر الجزائري التقليدي عموما وفي شعر مفدي زكريا خصوصا، فإنه لا يتجاوز بنا إطار الواجهة الخارجية للنص الشعري، والواجهة الخارجية للنص الشعري على ما لها من أهمية، لا تتيح للمتلقي أن يتشرب **"بلاغة الموقف الشعري"**، وإن **وقفت به على "شعر البلاغة"**.

وإلى أن يتاح لنا أو لغيرنا، اختبار مقولة إن جزءا كبيرا من شعر مفدي زكريا **تكمن أهميته في استثمار مفهوم "التناص"**[*] **(INTRE–TEXTUALITE)** فإن البؤرة الدلالية التي تتوزعها علاقات الحضور والغياب المتناصة في هذه القصيدة تتمثل في **معنى الحرية**، **كقضية وطنية وإنسانية**، **يرفع الشاعر لواءها عاليا وهو حبيس مقيد ويحيا بسببها ومن أجلها الشهيد البطل أحمد زبانة بالإعدام ذبحا، وكقيمة مادية وروحية وحضارية خيرة، باركها الله في السيد المسيح عيسى بن مريم، وفي كليم الله موسى**، وفي **رسالة الهدى للعالمين كافة، التي نزلت على رسول الله محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) مختزلة جوهر كل**

---

[*]. انظر :

– المصطلحات الأدبية الحديثة، د.محمد عناني (سا) ص. 46–47.

- Dictionnaire de critique litteraire, *Ibid* p. 101.

– مجلة اللغة والأدب (أكاديمية علمية)، معهد اللغة العربية وآدابها جامعة الجزائر، عـ 12، ديسمبر 1997، ص. 38–111 / 232–303 / 355–371.

الرسالات الروحية التي عرفتها الإنسانية. ولذلك فليس بغريب أن يجعل الشاعر من التغني بالموت، شنقا، وصلبا، من أجل الحرية، صوتا ملحميا آنيا، دافئا ينبعث على لسان الذبيح الصاعد إليها (أحمد زبانة) :

"اشنقوني، فلست أخشى حبالا   واصلبوني، فلست أخشى حديدا"
"وامتثل سافرا محياك جلادي   ولا تلتثم، فلست حقودا"
"أنا وإن مت، فالجزائر تحيا   حرة مستقلة، لن تبيدا"

كما أنه ليس بغريب أيضا أن **يحل صوت "الشاهد" (الشاعر) و"المشهود" (أحمد زبانة" في الموقف الملحمي الأكبر الذي يتسع فيه مجال الاحتفال بالفداء والتضحية والاستشهاد، ليشمل الجزائر، كل الجزائر**، بوصفها هي **البطل الملحمي الأكبر**، الذي **يحتل في شعر مفدي زكريا موقع "الراوي" و"المروي عنه" و"المروي له"**، لأنها - ببساطة - **هي "اللهب المقدس "** الذي تهون في سبيل حريته وعزته ومجده كل القرابين.

يا زبانا ويا رفاق زبانا   عشتم في الوجود دهرا مديدا
كل من في البلاد أضحى "زبانا"   وتمنى بأن يموت شهيدا !
أنتم يا رفاق، قربان شعب   كنتم البعث فيه والتجديدا ! !
فاقبلوها ابتهالة صنع الرشاش   أوزانها، فصارت قصيدا ! !
واستريحوا إلى جوار كريم   واطمئنوا، فإننا لن نحيدا ! !

وبعد، فهل إننا فعلا لم نحد، أم أن ذلك موضوع آخر؟!

تيسير النّحو عند المجمعيين

د. صالح بلعيد
أستاذ بجامعة تيزي وزو

تقديم

ليس عيباً أن تطرح قضايا اللغة العربية على بساط البحث، ويتناولها المختصون بالدراسة، وليس عيباً كذلك أن تشكو اللغة العربية من بعض النقائص الداخلية أو الخارجية، فلا كمال لغوي لأيّة لغة في الوجود لكن العيب أن نَصِف هذه اللغة بالكمال وهي تشهد فقراً في بعض المستويات. ومن هنا فإنّ البحث في اللغة العربية يعني وجودَ وعي في نشاط الأمة، وإدراكاً لضرورة التغيير. وأنّ تقويم الوضع اللغوي يعني إصلاحَ الغلط، والعملَ على الحفاظ على أصول اللغة وجمالها وتحبيبها إلى النفوس، وتمكينها من أداء وظيفتها في كل المجالات. ومسألة المراجعة والتقويم أو الإصلاح اللغوي[1] مسألة قديمة وكلّ الأمم تراجع منظوماتها اللغوية فهي ظاهرة صحيّة تدلّ على حيوية اللغة واستعدادها للتجاوب مع متطلّبات المرحلة. واللغة كما نعرف بقدر ما يكون فيها خلط، بقدر ما يكون فيها أخطاء، وبقدر ما تتوسّع تتعرّض بعض خصائصها إلى التصدّع، ويكون ذلك مجلبة للاضطراب في تحقيق مسايرة الوضع. وهكذا كان الحال بالنسبة للغة العربية في عمومها؛ فنتيجة البحث الجدّي الذي عرفته في أوائل حياتها، والتحكّم المنهجي الدقيق في أساسياتها، ونتيجة لمرونتها وكثرة متلاغيها وطول عمرها الزمني، ومواقفنا المتردّدة تجاه تعميم

---

[1]. ظهرت كتب التصويب اللغوي منذ العصور الأولى للدولة العربية، أمثال: ما تلحن فيه العوام للكسائي/ ما تلحن فيه العامة لكل من الفرّاء وأبي عبيدة والأصمعي/ إصلاح المنطق لابن السكيت/ ما يلحن فيه العامة للمازني/ لحن العامة لحاتم السجستاني/ أدب الكاتب لابن قتيبة/ لحن العوام للزبيدي/ درّة الغواص للحريري/ تثقيف اللسان لابن مكي الصقلي/ تقويم اللسان لابن الجوزي/ دفع الإصر عن كلام أهل مصر ليوسف المغربي... وهذه الكتب تستهدف التثقيف في بعد آخر وفق نموذج حدّده علماء اللغة، وبناءً على معيارهم في الفصاحة. كما تترصّد ظواهر الخطأ وردّها إلى الصواب، فبمعرفة الصواب تعصم من الزلل، وهذا كله بغية إعطاء التداول أهميته في المجتمع، وذلك ما تسعى إليه مناهج اللغة العربية في عصرنا الحاضر.

استعمالها، نتجت ظاهرة البعد عن التماس القياس القريب من الطبيعة اللغوية، وعدم اعتماد التأويل المحسوس، والعلل التعليمية التي تجيب عن الملموس اللغوي. "برع العرب القدامى في تقعيد لغتهم وضبط أحكامها، وصولاً إلى بنية صالحة للأخذ بها والسير على مثالها واعتمدوا في الأساس على المنهج المعياري، ولكنّهم في وسط الطريق كانوا يلجؤون إلى مناهج فرعية أخرى لصعوبة تطبيق هذا المنهج في كل الأحوال.عادوا إلى النظر المنطقي والفلسفي وإلى التأويل والافتراض[1]" وكان ما كان في صعوبة هذه اللغة، وانعكس في الوقت الحاضر على أحد مكوّنات الهوية، بحيث نرى من يشعر بالنقص تجاهها على أنّها ما تزال لغة الدين والحصير واللوح والصلصال، وليست لغة الحاسوب والاتّصال، فارتمينا في أحضان لغات المال. فكان الحال الذي عليه الآن وهي الآن تصنّف في خانة اللغات المتخلّفة. رغم ما حقّقته على الصعيد المعرفي ذات وقت. ولكن نشهد أنّها غير متجانسة في بعض أبعادها الحيوية، وتلك مشكلة ينبغي النظر فيها، والعمل على إزاحتها.

وفي مسألة تيسير النّحو العربي ماذا عساني أقول في هذا الموضوع الذي نال كفاية علمية[2]، وأكثر من جهد ودراسة وملتقيات وندوات، ونُصّبت له لجانٌ متخصصة وورشاتُ عمل تحت سلطة مجمعية تشريعية، بلهَ الحديث عن تلك المؤتمرات التربوية

---

1. كمال بشر، اللغة العربية بين الوهم وسوء الفهم، القاهرة 1999، دار غريب، ص. 11.

2. ما يحضرني من الملتقيات والندوات: ندوات مجمع اللغة العربية المصري، واتّحاد المجامع للسنوات 1947- 1947- 1958- 1976/ ملتقى تيسير النّحو في عمان سنة 1974/ وندوة الخرطوم سنة 1976/ وندوة الرياض سنة 1977 / وندوة 1978- 1979/ ندوة تقويم تدريس اللغة العربية في الأردن لعام 1983/ ندوة تعليم اللغة العربية في الجزائر سنة 1976/ ندوة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم سنة 1984/ ملتقى تيسير النّحو للمجلس الأعلى للغة العربية بالجزائر سنة 2001.

والجامعية التي أُقيمت في أكثر من بلد عربي، إلا أنّه بقي يراوح مكانه ولم تسكت الشكاوى من المناداة بالتيسير، أو التجديد، أو إعادة النظر في طرائق تلقينه، أو في منهجية تصنيفه. وماذا أقول وأنا مدرك كثيراً من الصعوبات التي يعانيها معلّم النّحو ومتعلّمَه، ممّا يجعل الشكوى والنفور منه متلازمين[1]. وتجدني أنطق ما أكون إذا لم أنطق، بل إنّ المرور على بعض القضايا أفصح من التفصيل. وماذا أقول في الموضوع الذي لو تُجمع كتب التيسير النّحوي قديماً وحديثاً[2] وما تراكم في مجمع اللغة العربية بالقاهرة من تقارير لضاقت بها المكتبات. ومن وراء كل هذا كان عليّ توضيح القصد من هذا البحث الذي ليس من ورائه الطعن في النّحو العربي الذي هو علم نفيس لعلماء عباقرة وكبار، ولن أكون مثل ذلك الذي يريد تغيير النافذة فهدّم بيتاً، بل أصرح بأنّ الخطاب النّحوي في مسائل الخلاف كان كبيراً وضخماً، والمتتبع لتاريخه وخطابه المعرفي ومرجعيته التوثيقية يقرّ بأنّه استمد بعض الملامح ممّا كان يدور في فلك الدولة الإسلامية وتأثيراتها الخارجية، ولم يعالج ذاتياً دون أن تجتلب له مفاهيم خارج سياقه التاريخي والثقافي، وكان كل ذلك سبباً في ظهور الممارسات الخطابية التي سمحت ببعض الخلط مثل : عدم استخلاص القواعد من كل ما تكلّم به العرب، وذلك بظهور هيمنة لهجات على أُخَر، فبدأ النّحو معيارياً، وعدم مراعاة أصل القاعدة في الخطاب وليس في اللغة، فأين محلّ الاستعمال من الوضع، كما لم يقم التصحيح على

---

[1]. صالح بلعيد "شكوى مدرس النّحو من مادة النّحو" عدد خاص بتيسير النّحو. الجزائر : 2001، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية ص. 417-431.

[2]. من الكتب القديمة نذكر : الجمل للزجاجي/ الواضح للزبيدي/ الإيضاح لأبي علي الفارسي/ اللّمع في العربية لابن جني... ومن الكتب الحديثة نذكر : إحياء النّحو لإبراهيم مصطفى/ تجديد النّحو/ تيسير النّحو التعليمي و تيسيرات لغوية لشوقي ضيف/ محاولات التيسر النّحوي قديما وحديثاً لعبد الكريم خليفة ...

الحسّ اللغوي، وذلك ما ظهر في رفض بعض الشعراء للمعيارية الانتقائية للنّحاة مثل فِعل الشاعر الفرزدق مع الحضرمي النّحوي...

ونظراً لهذا التشعّب، كان عليّ إلا تحديد موضوعي في هذا العنوان: تيسير النّحو عند المجمعيين. بالتركيز على مجمع اللغة العربية المصري، واعتماد قراراته ومجلته وبعض ما كُتب عنه، وذلك للاعتبارات التالية :

- مجمع لغوي قديم.
- في المجمع لجنتان تعملان في الأصول والإصلاح اللغوي.
- مجهودات المجمع معتبرة في مجال التيسير النّحوي.
- المجمع الذي له حقّ التشريع اللغوي.
- أعماله تزكّى من قبل اتّحاد المجامع اللغوية العربية.

1. دواعي التيسير النّحوي : اهتمّ العرب بلغتهم اهتماماً كبيراً لا مثيل له في لغة من اللغات، وأولوْها بالبحث عناية صارمة بدءاً من كُتب النّحو إلى كُتب فقه اللغة، وكُتب التشريع الفقهي. فلقد كان كتاب سيبويه المصدر العلمي الأساس في اللغة باعتباره قرآن النّحو، وبحرَ العربية، ومن يبتغ أن يضع كتاباً بعده فليستحِ. إلا أنّ هذا المؤلَّف العلمي الهام صعُبت مسالكُه، فعُمل على شرحه، وشرحِ شواهده، وبُنيت عليه مصنّفاتٌ ضخمة. ومع تطوّر الحياة ظهرت هذه المصّنفات[1] على شكل ملخصات وتفسيرات للكتاب، بعناوين : مختصر في النّحو/ الهداية في النّحو/ المقدمة/ التوطئة/ أوضح المسالك/ قطر النّدى وبلّ الصدى... وكلّها تبحث عن صيغة تعليمية لكون المادة

---

[1]. حازم سليمان الحلي "تيسير النّحو إلى عصر ابن مضاء القرطبي" مجلة اللسان العربي. الرباط : 1996، مكتب تنسيق التعريب العدد 41، ص. 52-53.

التي يحملها دسمة وكثيرة، لكنّ بعضها ليست وظيفية. وتبدأ المشكلة تتعقّد بعدما زاد التأليف المختلط دفعاته، ومن حينها تعاني اللغة العربية أزمة لغوية[1] رُغم ما يزخر به تراثها من جهد جبّار. وهذا نتيجة ما علِق بها وبخاصة نحوَها. فبدءاً من الخليل بن أحمد " الذي غرس مبادئ علم الحساب في أذهان النّحاة الذين تتلمذوا عليه، واستمرّ منهجه عبر قناة سيبويه، ممّا يقطع الشك باليقين على أنّ النّحاة الأوائل أخذوا بأصول علم الحساب، وهم يستخرجون أصول أحكام نحوهم"[2] إلى المنطق[3] الذي فشا في النّحو بعد ذلك، وهذا باعتراف النّحاة الذين قالوا بأنّ بعضاً من تلاميذ المدرسة الخليلية قد أدخلوا المنطق في النّحو العربي، مشيرين إلى الرّماني الذي أفاد بالمنطق النّحو في رسم حدوده واستنباط العلل وصياغة الأقيسة. ويقول أبو علي الفارسي[4] في

---

1. عائشة عبد الرحمن، لغتنا والحياة، ط 2. القاهرة : 1969-1972، ص. 191.
2. محمد كشاش : الفكر الرياضي والنّحو العربي" مجلة اللسان العربي. الرباط" 1996، مكتب تنسيق التعريب، العدد 41، ص. 38.
3. وقد تناول هذه القضية عبد الفتاح الدجني في كتابه : النزعة المنطقية في النّحو العربي، الصادر سنة 1982.
4. ما يعرف عن أبي علي الفارسي أنّه كان متشدّداً، وهو الذي يقول : (ليس لنا اليوم أن نخترع ولا أن نقول غير ما قالوه، ولا أن نقيس قياساً لم يقيسوه لأنّ في ذلك فساد وبطلان حقائقها) ولكنّه ينكر على الرّماني هذا الابتعاد عن صلب النّحو، والصبغة المنطقية التي حملها على النّحو. فيقول أحد الباحثين : وقد بلغ هذا التأثّر بالأسلوب المنطقي حداً جعل النّحاة أنفسهم يضيقون به ذرعاً مثل أبي علي الفارسي وهو المعروف بالتِماسه للقياس والأخذ به، ينكر على الرماني مذهبه النّحوي الذي يغرق في استعماله طريقة الجدل عند المتكلمين والمناطقة. محمد بدوي مصطفى "النّحو العربي، نقد وبناء للدكتور إبراهيم السامرائي" مجلة أبحاث لسانية. الرباط : 2001، منشورات معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، المجلد 6، العدد 1، ص. 67.

هذا الأمر "إن كان النّحو ما يقوله الرّماني فليس معنا منه شيء، وإن كان النّحو ما نقوله نحن فليس معه منه شيء" وإلى أقوال متّى المنطقية الذي يؤكّد ذلك: إنّ المنطق آلة من الآلات يعرف بها صحيح الكلام من سقيمه وفاسد المعنى من صالحه، وإنّه بحث عن الأغراض المعقولة والمعاني المدركة". وفي موضع آخر يرى: لا حاجة بالمنطقي إلى النّحو، وبالنّحوي حاجة إلى المنطق، لأنّ المنطق يبحث عن المعنى، والنّحو يبحث عن اللفظ، فإن مرّ المنطقي باللفظ فبالعرض، وإن عبّر النّحوي فبالعرض، والمعنى أشرف من اللفظ واللفظ أوضح من المعنى". وفي موضع آخر يقول: يكفيه من اللغة الاسم والفعل والحرف، فإنّ هذا القدر يبلغه إلى الأغراض التي هذّبته له اليونان". وبهذا التفلسف حجّروا اللغة بما التزموه من قواعد حكموها بالمنطق[1]. وكان السير في منهج المناطقة قد خلق فكرة العامل نتيجة التوسّع في الجدل، والتِماس أوجه الأعراب المحتملة. وهناك من الباحثين من يرى بأنّ النّحو العربي لم يتأثّر فقط بالفكر المنطقي بل حتى بالمؤثرات الإغريقية، إضافة إلى غفلة النّحاة عن خصائص المنهج الإسلامي، وخلطهم ما هو إسلامي بما هو إغريقي فمكّن ما ليس إسلامياً[2]. وهناك من جانب آخر من ينكر ويرفض منتقداً كل من يقول بأنّ النّحو العربي متأثر بالمنطق الأرسطي، فيرى بأنّ النّحو صورة صحيحة للمناخ الفكري العام في الحياة الإسلامية بكل تجلياتها النقلية والعقلية[3]. أضف إلى ذلك جملة التعليلات الواهية التي أثقلت كاهل النّحو

---

1. حسني محمود حسين "بين الكوفيين والبصريين جواز تأكيد النكرة معنوياً" مجلة مجمع اللغة العربية الأردني. عمان: 1981 العدد 14/13، ص. 76.

2. ينظر: علي أبو المكارم، تقويم الفكر النّحوي.

3. عبده الراجحي، النّحو العربي والدرس الحديث، بحث في المنهج. الإسكندرية: 1977، دار نشر الثقافة.

العربي بمختلف الآراء والتعليلات التي هي عَرَضية وخاصة وحسب المعطيات المحيطة بالمشتغل بالنّحو وهي ليست ملزمة "اعلم أنّ عِلل النّحويين – وأعني بذلك حذّقهم المثقفين لا ألفافهم المستضعفين – أقرب إلى عِلل المتكلمين منها إلى عِلل المتفقهين وذلك أنّهم إنّما يحملون على الحسّ ويحتجّون فيه بنقل الحال وخفّتها على النفس"[1]. وهذا ما يؤكّده ابن جني عندما يقول : لسنا ندّعي أنّ عِلل أهل العربية في سِمت العلل الكلامية البتّة، بل ندّعي أنّها أقرب إليها من العلل الفقهية[2]. أليس هذا إغراق في أسلوب الجدل الكلامي الفلسفي الذي أدخل النّحو في جدل لا رواء منه. دون أن ننسى الخلافات النّحوية بين الكوفيين والبصريين؛ فلقد كان الكوفيون أرحبَ فكراً، وأهلَ قراءاتٍ واسعةٍ، وكل ما ثبت عن العرب فهو صحيح عندهم "وتشعّبت مناهج البحث عند هؤلاء النّحاة، حتى ضاعت الغاية من وضع النّحو، فقد جعل الكوفيون كل شاذ ونادر قاعدة لنفسه، فانتشرت عليهم قواعدهم، ولم يعد لها ما يملكها من نظام أو منطق"[3].ورأى البصريون أنّ اللغة ما سمع عن الأعراب وهي قياس على كلامهم واعتبروا كل ما خالفهم شذوذاً، واقتصروا على قبائل محدودة. وكان ذلك سبباً في أن يشتغل بعض النّحاة بالشواهد الغريبة أو الشاذة أو ينتحلوها لتأييد قواعدهم غير ملتفتين إلى قيمة الشاهد وتأثيره في النفوس والأذهان "عني النّحاة بذكر ما خالف القواعد في الشعر، ونصوا أبياتاً تتجلّى فيها ألوان الخلاف وعدوا ذلك من الضرورات

---

1. عبد الراجحي، دروس في المذاهب النّحوية. بيروت : 1988، دار النهضة العربية، ص. 218.
2. ابن جني، الخصائص، تحقيق : محمد علي النجار. بيروت، الجزء الأول، ص. 51.
3. عبد الكريم خليفة، تيسير العربية بين القديم والحديث، ط 1. عمان : 1986، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، ص. 31.

الشعرية، حتى لقد أطلقوا عليها اسماً خصّ بها وعُرِفت به، وذلك هو اسمُ الضرائر"□. ويمكن ذكر الصراع بين النّحاة أنفسهم، أو بين المعجميين والنّحاة□، أو بين النّحاة والفقهاء، وكل ذلك ساهم في البحث عن المبرّرات غير العلمية التي أوجدت سوقاً للتفريغ اللغوي، وكان بعضه مهلكة للنّحو العربي، ويمكن الرجوع إلى كتاب الإنصاف في مسائل الخلاف لترى كيف ضيّعتِ العقولُ العربية اهتماماتِها في أشياء غيرِ مجدية آنذاك، وكانت سبباً في أن نختلف في هذا العصر.

كما يتفرّد النّحو بالإعراب، ويصبح الشغل الشاغل، ويتحوّل عن جوهر أمره، فيصبح معنياً بالمظهر وبالشكل، ويهمل فيه جانب المعنى"□. وكان ديدنهم يقضي بالتوسّع في التفريع والتقسيم والإفراط في الاعتماد على المنطق والمبالغة في التعليل.

□. محمد شوقي أمين "قول في النّحو" مجلة مجمع اللغة العربية. القاهرة : 1975، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، الجزء الخامس والثلاثون، ص. 63.

2. أشير هنا إلى مسألة الخلاف التي حدثت بين نفطويه النّحوي، وبين ابن دريد المعجمي. فتذكر لنا المصادر بأنّ نفطويه استنكر على ابن دريد وضع جمهرته بأنّه مسروق من كتاب العين للخليل، فقال :

ابن دريد بقرة — وفيه عيّ وشره
ويدّعي من حمقه — وضع كتاب الجمهرة
وهو كتاب العين — إلا أنّه قد غيّره

ويردّ عليه ابن دريد قائلاً :

أفٍ على النّحو وأربابه — قد صار من أربابه نفطويه
أحرقه الله بنصف اسمه — وصيّر الباقى صراخاً عليه

□. أحمد عبد الستار الجواري "رأي في تيسير تعليم النّحو" مجلة مجمع اللغة العربية. القاهرة : 1984، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، الجزء الثالث والخمسون ص. 163.

وتكبر المسألة بعدما قويَ نفوذ النّحاة فأصبحوا يشرّعون، فرفضوا الاحتجاج بالحديث وبالقراءات الشاذة؛ لأنّهم أصحاب معايير، واستطاعوا النيل من الدراسات القرآنية، وتطاولوا على القراءات السبعية[1]. ويزاد الأمر استفحالاً في أنّ الإجماع لم يحصل في قضايا نحوية أساسية وبسيطة مثل : أصل الاشتقاق والعامل والمعمول وعلّة رفع الفاعل ورفع المبتدأ والخبر، وفي باب التنازع والاشتغال ونصب المضارع بعد فاء السببية وبعد واو المعية. كما يحدثنا ابن الأنباري عن اهتمام رجال الفقه بالنّحو، ودخول القياسات الفقهية في القياس النّحوي، وكل ذلك عمل على تعقّد المادة النّحوية إلى حدّ الألغاز، وظهرت اجتهادات جدلية لا تمتّ إلى قواعد النّحو بصلة. وتستفحل القضية في القرن الخامس بقوّة عندما كان همّ النّحاة وضع القاعدة، دون مراعاة البيان، وما ترمي إليه هذه الخلافات من أساليب، فتحتلّ القضية اللغوية أزمة في فكر الواعين، ويحدث التفكير في إحياء النّحو وتيسيره وتخليصه من العامل والعلة. ويظهر مؤلَّف عنيف يحمل ردّة على النّحاة وهو (الردّ على النّحاة) لابن مضاء القرطبي[2] الذي يقول في مقدمته: "قصدي في هذا الكتاب أن أحذف من النّحو ما يستغني النّحوي عنه، وأنبّه على ما أجمعوا على الخطأ فيه" وهذا تأثر

---

1. أحمد علم الدين الجندي "الصراع بين القرّاء والنّحاة" مجلة مجمع اللغة العربية. القاهرة : 1984، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، الجزء الثالث والثلاثون، ص 159.

2. وعلى ذكر ابن مضاء نجد شبه بيبليوغرافية هامة للكتب التيسيرية قبل عصره، حاملة لمختلف المصطلحات التيسيرية، ومنها: المختصر/ مختصر في النّحو/ الموجز/ الجمل/ التفاحة/ النّحو الكبير/ الأوليات/ الإيجاز/ اللمع/ لمجمل في النّحو/ الكافية. ينظر حازم سليمان "تيسير النّحو إلى عصر ابن مضاء" مجلة اللسان العربي. الرباط: 1996، مكتب تنسيق التعريب، العدد 41، ص. 50-59.

بمذهبه الفقهي الذي يرفض العلل والقياس، ويأخذ بظاهر النّص. وبطموحه إلى التغيير وإسقاط العامل الذي يراه باطلاً شرعاً ويعتبر العلل الثواني والثوالث غير مفيدة فلابدّ من إلغائها. ويجد معارضة من بعض نّحاة عصره، ومن بعض الفقهاء الذين أدلوا بدلوهم في مجال النّحو، لأنّه لم يأت ببديل نوعي يقضي على مشكلة العامل أو العلة التي يفترض أن تلتمسا بغية تدبّر القواعد التي تعصم اللسان من الخطأ لا غير. وفي نفس الفترة يدعو ابن رشد إلى تيسير النّحو من خلال مخطوطه: الضروري في كليات النّحو. واستهدف من خلاله المحافظة على الكليات اللغوية التي تحفظ كلام العرب من اللحن وصيانته عن التغيير، وأما غير الضروري فهو من باب التزيين، فليس ملزماً به أحد به لأنّه يدخل في باب العلل. ومن وراء ذلك يخالف ابن مضاء في دعوته؛ حيث يبتغي من دعوته حفظ الكليات وإرساء منهج بنائي على منهج قديم يحتاج إلى تطوير، عكس ابن مضاء الذي أراد نقل ثورة الظاهرية من عالم الفقه إلى النّحو، وقصد هدم القديم لبناء الجديد. وهكذا فبواسطة ذلك الخلط أدّت المذاهب الفقهية إلى انصراف النّحاة إلى كثير من المسائل النظرية، علماً أنّ "القرنين الرابع والخامس الهجريين قد شهدا وضع المصنّفات التعليمية التي تهدف إلى تيسير العربية وتسهيل تعلّمها، وكذلك وضع أهمّ المعايير النظرية للمفهوم التعليمي للنّحو وقواعد العربية. وهذه المصنفات تكوّن بحقّ الإطار الواقعي لجمع الدراسات التي جرت من ذلك حتى العصر الحديث من أجل تيسير النّحو وتسهيل تعلّم العربية"[1]. ولم تهدأ الثورة النّحوية في العصور المتأخّرة، لأنّ المصنّفات تشهد ظهوراً باستمرار وكلّها تنبئ عن صعوبة النّحو. ونشهد نفس الثورة في العصر الحاضر مع ظهور

---

[1]. عبد الكريم خليفة، تيسير العربية بين القديم والحديث، ط 1. عمان: 1986، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، ص. 78.

(التُّحفة المكتبية لتقريب العربية) للطهطاوي و (المقدمة الأزهرية في علم العربية) لعبد الوهـاب الشـعراني و (إحيـاء النّحـو) لإبـراهيم مصـطفى و (النّحـو الواضـح) لعلـي الجارم... وكل هذه الكتب تشهد على صعوبة العربية نتيجة أخطاء النّحو والصرف، وأخطاء الألفاظ والتراكيب، وأخطاء النّطق والكتابة. ومع تأسيس المؤسسات الثقافية مثل المجامع اللغوية لم تحلّ العقدة النّحوية، وقد ساهم فيها كل من البيت والشارع والمدرسة والجامعة والإعلام والإنتاج المسموع والمكتوب.

وهذه الأمور المعقّدة كلها تركت آثاراً جُدرية على وجه اللغـة العربيـة الجميلـة التي حباها اللغة بقرآنه، فعانت مشكلة سوء إتقانها[1] من جـراء التُّخمـة النّحويـة، وهذا بشهادة المختصين وغير المختصين. وبقيـت المشـكلة بحيـث مـا يـزال الكتـاب المدرسي عندنا يحمل إسقاطات لغويـة مـن تلـك العصـور، ونجـد مؤسسـاتنا تخـرّج إطارات بتكوين لغوي متدن، ويعود السبب في كثير مـن الأحيـان إلى صـعوبة النّحـو التربوي. ولم نفرق بعد بينٍ النّحو المتخصّص، الذي يهتمّ به الباحثون المتخصصون، والنّحو التربوي الذي يحمل الأصول التي يجب أن تلقّن للتلميذ؛ وعن طريقه يتحكّم في اللغة بصفة طبيعية. فمتى تخف مؤونة النّحـو، ويصـبح القليـل صـالحاً ووظيفيـاً وغنياً ! ومتى نعمل على إعادة قواعد اللغة العربية إلى مجراها الطبيعي، ونتخلّى عن التعليلات في مواطن الأعراب "ثمّ إنّ العربية بالإضافة إلى كونها لغـة وظيفيـة ماديـاً وروحياً تتميّز بكونها لغة رشيقة جميلة تخاطب الذوق والحسّ الفني، مثلما تخاطب العقل والفكر والوجدان، وهي بذلك تقوم إلى جانـب قواعـدها الظـاهرة علـى معـايير باطنية لا تدرك إلا بالحدس والشعور والحدب وطول الألفة. والعلاقة بين هذه المعايير وتلك القواعد قائمة وإن في غير ظهـور يلفـت الأنظـار علـى نحـو مـا نجـد في أنـواع

---

1. ينظر : محمود أحمد السيد، تطوير مناهج تعليم القواعد النّحوية وأساليب التعبير في مراحـل التعليم. تونس: 1987، منشورات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

الإعراب التي تقدر أو تخرج عن المقرّر بسبب الاستثقال الذي نصادفه تعليلاً في غير قليل من مواطن الإعراب، والذي لا شكّ أنّ الميل عنه إلى الخفّة أحسن وأجمل"[1].

2. الفرق بين النّحو والقواعد: وقع خلط بين مفهوم النّحو، ومفهوم القواعد، وهذا ما سمح بظهور بعض الماحكات الكلامية والتعليلات الكثيرة، والصناعة النّحوية. ويجب أن نفرّق ونعرف من البداية بأنّ النّحو ليس هو القاعدة، والقاعدة غير النّحو. النّحو عرَضي وهو إعمال الفكر في الخلافات والجوازات؛ ظهر مع تفشّي اللحن. وأما القواعد ضمنية في اللغة ودائمة فيها، ولا تتغيّر باجتهادات الأفراد. النّحو متغيّر وملك للمستعمل وخاص، بينما القواعد عامة ومشتركة لا تيّسر ولا توجز وتتدرّج في التلقين، ولذا نجد تيسير النّحو ولا نجد تيسير القواعد. أعود لأكرّر القول بأنّ النّحو من وضع الأئمة النّحاة ومن المجتهدين في اللغة؛ وفق مناهج اجتهادية وقد تكون حينية تتغيّر وتتبدل، بينما القواعد من جوهر اللغة لا يمكن أن تتغيّر بحكم الجماعة الناطقة بها التي ترفض كل تغيير وهذه الجماعة في أي مجتمع ترفض كل خروج عن القواعد إلا لضرورات تستدعيها حركة التغيير في اللغة. وهكذا نعلم أنّ القواعد العربية وُضعت لتعليم العربية، لا لسجنها في أُطر محدودة وبنيت على التواتر لا على الشاذ؛ وهي موجودة في وعي كلّ من المتكلم والسامع، والنّحو في بعد له إنجاز لها فقط، وذلك ما يجعل الجملة أصولية. "ومما ينسب إلى الحضرمي أنّه فرّق منذ وقت مبكّر بين الصناعة والمعرفة، أي بين العربية واللغة، أو بعبارة

---

1. عباس الجراري "اللغة العربية بين التطوّر والتقويم" منشورات الأكاديمية الملكية المغربية. الرباط: 1993، عدد: قضايا استعمال اللغة العربية في المغرب، ص. 32.

أخرى : بين النّحو وفقه اللغة"□ ؛ لأنّ النّحو صناعة وضرب من التكلّف، وأما الإعراب فهو من النّحو وليس من القواعد وهو مراعاة مواقع الحركات معنوياً لا شكلياً. كما أنّ لكل لغة قواعد ونحو، وليس لكلّ اللغات إعراب. ودليلنا على ذلك وجود القواعد في كلّ اللغات ولا يوجد الإعراب في كلّ اللغات. كما أنّ عدم الإلمام بالإعراب لا يمنعنا من معرفة اللغة والنّطق على الصواب، متى علمنا الأغراض من العبارات من نفي وإثبات وتقديم وتأخير واستفهام وجواب وأمر□. ويجب التفريق كذلك بين الشاهد الذي يأتي لإثبات قاعدة، والمثال أو النموذج أو التدريب الذي يؤتى به للفهم، وينبع من بيئة الطالب، ومن مجال اهتمامه. فالشاهد ليس القاعدة، وليس النّحو. الشاهد محصور وقليل ومعدود ولا يتجدّد، ولم يكن في المطّرد من الكلام، بينما المثال أو النموذج لا نهائي ومتغيّر، ولكل عصر أمثلته ونماذجه. كما يجب أن نميّز بين العلل النّحوية وهي غير واجبة؛ لأنّها من وضع البشر[3] فهي من النّحو، وليست من القواعد، وبين العلل التعليمية التي تلتمس ضمنياً في التعليم، وكذلك يمكن إيجاد علل غير تلك التي أوجدها السابقون. وهذا شاهد على أنّ المتن

□. تمام حسان "وضع المصطلح العربي في النّحو والصرف" الموسم الثقافي الثاني عشر. عمان : 1964، منشورات مجمع اللغة العربية، ص. 131.

□. ينظر : يوسف الصيداوي، الكفاف، ط1. دمشق : 1999، دار الفكر المعاصر، الجزء الأول.

□. وقد روي عن الخليل أنّه سئل عن العلل التي يعتلّ بها في النّحو، فقال: إنّ العرب نطقت على سجيتها وطباعها وعرفت مواقع كلامها، وقام في عقولها علله، وإن لم ينقل ذلك عنها، واعتللت أنا بما عندي إنّه علة لما عللته، وإنّ أكن أصبت العلة فهو الذي التمست... ولغيري أن يلتمس غيرها. ع/ الزجاجي، الإيضاح في علل النّحو، تحقيق: مازن المبارك. بيروت: 1973 دار النفائس، ص 95-96.

اللغوي العربي مثله مثل القرآن الكريم؛ فهو واحد وعليه قراءات، النصّ ثابت في حروفه، ومتغيّر في دلالاته وفي تأويله، وكأنّنا نقول: إنّ القرآن قاعدة ثابتة، والشروح والقراءات اجتهادات، فهي من البشر.

وفي هذه النقطة يجب أن نعي بأنّ اللغة أياً كانت ليست أزلية، فاللغة العربية – وهي محور حديثنا – لغة ورثناها عن آباء صِدق، فلهم سبق الابتداء، فنحن نورثها لغيرنا بعد موتنا، فيحقّ لنا، كما يحقّ للذين يأتون بعدنا التصرّف في هذه التركة، فهي ليست ملكاً لزمان ما، ولا لأفراد معينين باعتبارها كائناً حياً متطوّراً يضعف ويقوى، ينقص ويزيد بضعف الفكر والوعي الحضاري[1]. وعلى هذا فإنّه لا يجب أن تأخذنا العزّة بأنّ اللغة العربية لا يجب أن تمسّ، ولا يجب أن يحدث تغيير في النّحو العربي.

3. التيسير النّحوي عند المجمعيين : لقد مرّ اجتهاد المجمعيين بمرحلتين متميّزتين هما :

1.3. المرحلة الأولى : ويمكن أن نحدّدها بالثلاثين سنة الأولى من تأسيس المجمع اللغوي المصري، وهي مرحلة التيسير المشروط أو المقيّد، فنجد أنّ معظم التيسيرات النّحوية لم تمسّ قضايا جديدة بالمسّ، اللهمّ قضايا التنازع والاشتغال والاشتقاق والأضداد والمجاز وأصول القياس، والنظر في بعض مسائل أصول النّحو العربي وتغيير تصنيف القواعد، أي لم يعالج المجمع كل القضايا الشائكة في الصرف

---

1. محمد السويسي "دور المصطلحات العلمية التراثية في عملية التعريب المعاصرة" مجلة الموسم الثقافي الحادي عشر. عمان 1993، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، ص. 31.

والنّحو في هذه المرحلة[1]. إنّ النّحو — كما نعرف – قد ضاقت به السُبل، فأصبح يقتصر على مسائل الإعراب وأحواله وفروعه، وأصبح محوراً للدراسة. فلما نصّبت وزارة المعارف المصرية في الثلاثينيات لجنة للنظر في تيسر القواعد لم تقل بشيء يعمل على التيسير. ولقد تمعّنت هذه اللجنة في اللغة العربية واعتبرتها مقدسة وكاملة، فأغفلوا النظر في كثير من الفروع، ولم يمسوا الأصول. فعهدت بالقضية إلى المجمع، ومن حينها اتّصلت جهود المجمعيين في المادة النّحوية بميدان التعليم وتنسيق بعض الأبواب، وإلغاء بعض الفروع، وعملوا على الفصل بين النّحو التخصصي والنّحو التعليمي. لكن ظهر تعلّقهم بالنّحو التقليدي وبالمنهجية القديمة، وبإصلاح نظري بعيد عن الواقع، وأدّى بهم ذلك إلى وضع مبادئ نحو متصوّر، إضافة إلى بعض المسائل النظرية التي لا صلة لها بتطوّر النّحو العربي. وتشهد المرحلة تشدّداً معتبراً من المجمعيين، وكانوا ينظرون إلى اللغة بأنّها عربية القرآن ونحو سيبويه، ولذلك كان همّهم تقديس فعل القدامى لا غير، فإنّ القدامى لم يخطأوا في اجتهاداتهم؛ باعتبارهم وضعوا قواعد اللغة، ومن خلالها استنبطوا النظام النّحوي الذي له أهميته الخاصة، ويعبّر عن بنية اللغة العربية. وعلى العموم فإنّ هذه المرحلة لم يقع الاهتمام إلا بالعربية المكتوبة. واهتموا كثيراً بالشكل (الرسم) الذي صرفوا فيه جهدهم المعتبر ولم يقدّموا حلاً إجرائياً لإصلاحه. وفي كل هذا كانت نظرتهم هي قتل القديم فهماً، ثمّ يأتي الإصلاح من خلاله. كما يجب الإشارة إلى أنّ هذه الفترة طغى فيها الأزهريون المتمسكون ببداوة لغوية، وكان لهم تأثير في قرارات المجمع، فنظروا في

---

1. محمد رشاد الحمزاوي، أعمال مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ط 1. بيروت : 1988، دار الغرب الإسلامي، ص. 296.

بعض مسائل النّحو، وأخرجوا قرارات سلفية في مجال النّحت والاشتقاق وما يتعلّق بهما، وكأنّي بهم أغلقوا باب الاجتهاد في النّحو، فحبّهم للغة وقدسيتهم أعمت بصيرتهم عن تطوّرها، ولذلك لم تحظ قراراتهم بالعناية، بقطع النظر عن كون بعضها أصبحت تهكّمات على جهودهم.

ومما غاب عن هؤلاء المجمعيين أنّ التقدّم في البحث اللغوي يحصل بالصراع بين القديم والحديث، وأنّ المجايلة حتمية لا مفرّ منها، فكلّ جيل ينتصر لعصره، فكيف تمسّك هؤلاء المجمعيون بعصر مضى! ولم يدركوا بأنّ سنة التغيير ضرورة لابدّ منها والثابت هو الله، ومحاولات الإصلاح يعني إيجاد السُبل التي تستطيع بها اللغة استيعاب العصر، وما وُجد فيه من حضارة.

2.3. المرحلة الثانية : وهي مرحلة الستينيات وما بعدها، وفيها نشهد مرحلة الطموح إلى النّقد الذي يقوّم المعوّج، ويعين على درك الحقيقة وقصد الصواب، بحيث أبان المجمعيون عن كثير من المرونة، وهذه المرونة تعدّ دفعاً للغة في أن تعبّر عن واقعها، لأنّهم يدركون تماماً اختفاء سِمت كلام العرب في أساليبهم، لبعدنا عن السليقة اللغوية، فهم الذين يرون أنّه يحقّ أن تكون لنا لغتُنا الخاصة، ذات الأساليب الوسطى، ونجدها في اللغة المتأدبة؛ باعتبار اللغة تتجدّد؛ فلها أهلها، ولكل عصر لغته وأساليبه، وهذا ما يستدعي النظر في نحو هذه اللغة. وفي هذه المرحلة ركّز المجمع جهوده على مشاريع النّحو التربوي [1]، إلى جانب الاهتمام بفقه النّحو وفهم وظيفته على حقيقتها، ونظروا إلى النّحو باعتباره قائمة من الأخطاء يجب أن تصحّح، كما أنّ القرارات المجمعية السالفة مدعاة للمراجعة، أضف إلى

1. محمد رشاد الحمزاوي، أعمال مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ط 1. بيروت : 1988، دار الغرب الإسلامي، ص. 375–402.

ذلك بعض المسائل اللغوية التي لم تُعالج. ولم يضرهم الخلاف القائم الذي أباح وأجاز لكثير من النّحاة القياس على الشاذ أو النادر، فهم نظروا من منطق العصر على أنّ الأصول العرقية والعناصر البيئية لها دور في وجود خصوصيات على مستوى اللهجات، وهي متباعدة فيما بينها، وهذا شيء طبيعي، وتنزل كثيراً عن مستوى الفصحى. وانطلاقاً من ذلك لفتوا النظر إلى بعض الصعوبات وتحسيس المعنيين للبحث عن أفضل الحلول. وهكذا تشهد هذه المرحلة اجتهادات في تيسير النّحو بصورة مكثّفة، في الوقت الذي فتح ملف تيسير النّحو سنة 1934، ولم تعالج القضايا الهامة التي تعطي نظرة أصيلة للنّحو مرتبطة بالواقع، بحيث يصبح مؤالفاً لمتطلّبات الاستعمال الحديث، وهكذا صرف المجمعيون جهوداً معتبرة في معالجة الطرائق اللغوية المختلفة المعتمدة في المصطلحات اللغوية من خلال الاشتقاق، فكانت قراراتهم في غالبها إيجابية، رُغم بعض المعارضة من قبل صفوي المجمع. ونعلم أنّ المجمعيين في هذه المرحلة قدّموا مقاربات متميّزة، بنظرتهم إلى النّحو الذي ينبغي أن يكون معاشاً ويظهر في ثقافتنا، وتزخر به استعمالاتنا، كما يتطلّب الوضع مسايرة الواقع بوصف الوضع الحالي؛ أي تشخيص الوضع، ثمّ جمع اللغات المستعلمة في المحيط. ولذلك عملوا في مجالات نقد النّحو وتصحيح الأساليب ولغة الصحافة، وبعض الأخطاء الشائعة. ومن نافلة القول، فإنّ لجان المجمع قدّمت تفسيرات لغوية ومستندات من الشواهد تدعّم بها هذه التيسيرات، كما وضعوا بعض القوانين على أساس الأساليب لا على أساس العامل. ولو نتصفّح كتاب (في أصول اللغة) بأجزائه الثلاثة نجد أنّ كل القضايا اللغوية عولجت، وقدّمت لها حلولٌ مبدئية، بعضها بالإلغاء، وبعضها بالجواز، وبعضها بالتقديم، والأخرى بالتأخير، وبعضها يحصل فيها تعديل كلي، والأخرى تعديل جزئي. وأما كتاب (الألفاظ والأساليب) والذي نظرت فيه لجنة الأصول ولجنة الألفاظ والأساليب، وعرض على مجلس المجمع

ومؤتمره ومرّ على كثير من مراحل التصفية، وقد حويا أساليب قديمة وعصرية، وبُنيت على أنماط مستحسنة.

3.3. التيسيرات المجمعية : لا أريد أن أعالج كل القرارات التي نصّت عليها دورات المجمع، وما أوصت به مؤتمرات التعريب ومؤتمرات اتّحاد الجامعات العربية، والندوات العلمية المتخصّصة، فهي أكثر من أن تسعها هذه المقالة، بل أركّز على جملة المقترحات المجمعية، وآراء بعض المجمعيين الذين سجّلوا حضوراً أكاديمياً في مسائل التيسير النّحوي.

لقد عالج المجمع المصري سنة 1934 قضية تيسير النّحو، لكنّه تركها لغزاً، وأبى أن يفصل فيها باعتبارها تمسّ جوهر اللغة الذي لا يجب أن يمسّ، ومن هنا أخذت بعداً آخر بين معارض ومؤيد للتيسير، وكأنّها بيضة الديك، فظهرت صعوبة البتّ في هذه المسألة باعتبار النّحو يلعب دوراً رئيساً في تعلّم اللغة وضبطها، وهو صورة اللغة، وصعوبته تعود إلى صعوبة اللغة، ومن هنا لم يقفوا على أشياء هامة، كما لم يفرّقوا في المرحلة الأولى بين النحو التربوي الذي يوجّه للناشئة، والنّحو المتخصّص الذي يتعلّق بالبحث في أمور اللغة، ولم يفرقوا كذلك بين بناء النّحو، وطريقة تدريسه. وأمام هذه الأمور كان الحديث طويلاً عن العربية ونحوها، فظهر القلق اللغوي والاصطلاحي معاً، كما نعى المثقفون بأنّ سبب خراب الفكر اللغوي يعود إلى النّحوي الذي رصد الظواهر اللغوية لا تقويم ألسنة الناس، واللغة ملك للمبدع، ولذا نقرأ عن عداوة المبدعين للغويين، وبخاصة من وظيفته للمجمعيين. ونادى المبدعون بأن يخرج الحوار في اللغة من أبراج المجمع فيكون عاماً؛ لأنّ اللغة ملك للعامة، وهي وضع واستعمال. وفي هذا الاتّجاه عمل المجمع المصري على تقديم

تنازلات لغوية مستفيضة وأحياناً متناسبة مع الوضع الحالي. فالمتصفّح لـ (محاضر جلسات المجمع) يجدها كثيرة، والمتتبع لـ (مجموعة القرارات العلمية في ثلاثين عاماً) أو (مجموعة القرارات في خمسين عاماً) يذهل من ذلك الثقل الذي رماه المجمعيون في التيسير النّحوي. وهذا بعد الدراسات العلمية التي أخرجوها في مجلة المجمع؛ والتي تشير إلى ما علق بالتراث النّحوي من تعليلات واهية لا يسندها قانون لغوي، والإشارة إلى بعض التفسيرات الخاطئة، وتحمل أفكاراً وأوهاماً فردية لا تستند إلى دليل، وكذا قياس التوهّم. فمن الضروري – في رأيهم – تبسيط كثير من قضايا النّحو خاصة النّحو التربوي (المدرسي) فركّزوا على قضايا الإعراب، وأخرجوا مجموعة من القرارات، ونشير إلى بعضها :

1- وجوب الاستغناء عن الإعراب التقديري في الأسماء المقصورة والمنقوصة والمضاف إلى ياء المتكلم والإعراب المحلي في الأسماء المبنية.

2- وجوب إلغاء ما يسمى بالعلامات الفرعية في الأعراب.

3- الاستغناء عن ألقاب البناء والاكتفاء بألقاب الإعراب.

4- يعدّل في تسمية ركني الجملة عن الموضوع والمحمول اللذين اقترحتهما اللجنة إلى المسند والمسند إليه.

5- ما عدا ركني الجملة والمضاف إليه يسمى تكملة.

6- الأخذ برأي اللجنة السالف في إلغاء الضمير المستتر جوازاً ووجوبا، وإلغاء فكرة ضمائر الرفع المتّصلة البارزة الدالة على العدد.

7- الاتّفاق مع اللجنة في إفراد مجموعة من الأساليب وسمّاها المجمع التراكيب بعرض طرق استعمالها على الناشئة، وعدم التعرّض لتحليلها وطرق

تخريجها، وهي عشرة أبواب : التوكيد/ القسم/ التعجّب/ اسم التفضيل/ نعم وبئس/ النداء/ الاستغاثة/ الندبة/ الاختصاص/ التحذير والإغراء.

8- الاتّفاق مع اللجنة في حذف الإعلال والإبدال وبيان تنقّل الكلمة في موازين مختلفة، تخفيفاً وتيسيراً على الناشئة"[□].

ومن هذه المنطلقات الكبرى رغّب المجمعيون في أن تقوم الدراسة أولاً على النّحو التربوي، ليكون وظيفياً ولحلّ أزمة التعليم المدرسي للغتنا القومية، وكذا البحث عن طريقة تجسيد القرارات المجمعية منهجها في التطبيق، فعالجوا بجدية مسألة تيسير النّحو والصرف[□]، بالتركيز على :

1- تيسير قواعد النّحو والصرف كما أقرّه المجمع في الدورة الحادية عشرة.

2- الرغبة إلى الوزارة في وضع كتاب في النّحو والصرف.

3- تأليف لجنة في المجمع لوضع كتاب النّحو والصرف.

4- تيسير النّحو كما أقرّه المجمع في الدورة الثالثة والأربعين: الإبقاء على باب كان وأخواتها/ الإبقاء على باب كاد وأخواتها/ وضع باب ظن وأعلم وأرى في باب الفعل المتعدي/ ما و لا و لات العاملات عمل ليس/ التنازع/ الاشتغال/ التمييز/ التحذير والإغراء والترخيم والاستغاثة والندبة/ إلغاء الإعرابيين التقديري والمحلي/ ألقاب الإعراب

□. شوقي ضيف "محاولات تيسير النّحو التعليمي قديماً وحديثاً" مجلة الموسم الثقافي الثاني. عمان 1984، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، ص. 52-54.

□. ينظر مجموعة القرارات العلمية في خمسين عاماً. الباب الرابع (في تيسير النّحو والصرف والكتابة). القاهرة: 1934-1984 الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ص. 267-305.

والبناء/ العلامات الأصلية والفرعية للإعراب/ الاستثناء/ أدوات الشرط/ لا سيما/ المفعول المطلق/ المفعول معه/ الحال/ كم الاستفهامية والخبرية/

– تيسير تعليم اللغة العربية (توصيات ندوة الجزائر عام 1976).

– تعليم اللغة العربية في ربع القرن الأخير (توصيات ندوة عمان عام 1978).

ومن وراء هذا فقد قامت فلسفة التيسير عند المجمعيين على هذه النقاط :

1. وضع قواعد مشتركة تقوّم اللسان، والبعد عن كل ما يرمي إلى التوسّع والجواز. وفي هذه النقطة يقع التركيز على الدراسة الخاصة بنظام الجملة، ووظائف الكلمات في داخل الجمل، وعدم الابتعاد عن الواقع اللغوي إلى الافتراض؛ لأنّ نظم الكلِم ليس الأمر فيه كذلك (لا اعتباطية) لأنّك تقتفي في معظمها آثار المعاني وترتّبها على حسب ترتّب المعاني في النفس.

2. إعمال الفكر أساس في صحة الجملة ومقبوليتها ومعقوليتها وموافقتها دلالة الحال، وتقوم على رعاية النّحو حفاظاً على الصحة النّحوية والدلالية، أي أن تؤخذ العربية من المنطق الاستعمالي، لأنّها كلية يحكمها منطق، ومن النّصوص والتوظيف، لا من القواعد.

3. التركيز على التراكيب في بداية الدرس النّحوي. وهذا باعتبار التماسك السياقي شرطاً أساسياً بين كل وحدات اللغة المعتمدة على كل ما يحيط بها في السلسلة الكلامية على تتابع أقسامها.

4. الاهتمام بالأساليب، مثلما اهتمّ القدامى بالفروق اللغوية في حديثهم عن الكلام المقبول وعن الحسن وعن الضعيف وعن المردود وعن المهمل، وما يجوز وما ولا

يجوز. واعتماد الأساليب المقبولة لغوياً وحسب السياقات الكلامية، والتي تقبلها الجماعة الناطقة بذات اللغة.

5. عرض المادة التعليمية عرضاً حسناً عصرياً.

6. اعتماد الأمثلة من واقع التلميذ، والابتعاد -قدر المستطاع- عن الشواهد القديمة.

7. إباحة حق الوضع اللغوي للمحدثين، وبخاصة كبّار الكتّاب والشعراء والمثقفين ثقافة لغوية وأدبية واسعة.[1]

8. الابتعاد عن الترقيعات ونقل فصول من باب إلى باب.

9. غلق أبواب النّحو الأساسي (التربوي) والاتّجاه إلى مشاغل حديثة معاصرة لمجاراة التقدّم العلمي الذي تعيشه اللغات الأجنبية. وفي هذه النقطة يسجلّ الدكتور طه حسين وقفة عظيمة سنة 1964 ليقول: هناك أمنيتان أتمناهما مخلصاً. الأولى أن يريحنا المجمع من الضمائر المستترة التي لا معنى لها مطلقاً، وأن يريح المتعلمين من الضمير المستتر وتقديره كذا، كل هذا لا معنى له. الثانية أن يعاد درس النّحو بالقياس إلى القرآن الكريم"[2].

ولتحقيق هذه التيسيرات النّحوية في لغتنا العربية، وما دامت هذه اللغة هي الأمة في حالي التقدّم والتأخّر وفي حالي القوة والضعف، وما دامت قواعد اللغة

---

[1]. محمد حسن عبد العزيز، الوضع اللغوي في الفصحى المعاصرة، ط 1. القاهرة : 1992، دار الفكر العربي، ص. 9.

[2]. البحوث والمحاضرات التي ألقيت في ذات الدورة، ص. 78.

وقوانينها تمثّل جوهر كلامها، فلا عجب أن نجد المجمعيين يهتمّون بتطوير نحو هذه اللغة، ولكن كلّ هذا يحتاج إلى:

- إلزامية الأخذ بقرارات المجمع.
- الاتّفاق مرة أخرى على طرائق التيسير.
- إعطاء صفة القيام بالتيسير لمؤسسة مجمعية عربية واحدة.

4. دعاة التيسير النّحوي : ليس القصد هنا الادلال بجهد عالم ما، بقدر ما أبتغي التنويه بعمل بعض المجمعيين الذين كانت نظراتهم إيجابية تجاه التيسير النّحوي:

1.4. أحمد عبد الستار الجواري : هذا العالم الذي ألّف كتاباً في تيسير النّحو، وعنوانه (نحو التيسير) وأخرجه في العراق 1962 وطرح فيه إصلاح الدراسات اللغوية، وإعادة الحياة إلى النّحو الذي سلبته الكتب المتأخرة جماله. فيرى "إنّ دراسة العربية لغة ونحواً، في ما وقع لها من مصطلحات تحتاج إلى شيء من معاودة النظر فيها وتحريك ما استقر منها في الأذهان والأفهام، حتى تعرف حقيقة ذلك الاستقرار"[1]. ويعود ليقول إنّ صعوبة النّحو تكمن في ابتعادنا عن أصول العربية، وإهمالنا للتحليل اللغوي المتمثّل في معاني النّحو التي اهتمّ بها الأوائل، لكنّه يقرّ بأنّ الصعوبة في النّحو تكمن في الشواهد والأمثلة التي يؤّيد بها النّحاة قواعدهم ويبرّرون تمحّلاتهم في كثير من الأحيان. وفي مجال التيسير يأخذ المسألة بحذر، ويعتبر النّحاة رقباء على اللغة، فيرى بأنّ التيسير المرغوب هو الذي يظهر في

---

[1]. أحمد عبد الستار الجواري "الوصف نظرة أخرى في قضايا النّحو العربي" مجلة المجمع العلمي العراقي. بغداد 1982 الجزء الرابع، المجلد الثالث والثلاثون، ص. 41.

كتب التدريس فقط، ولا يجب أن يكون اختصاراً، ولقد سبق أن حصلت التيسيرات على مستوى قراءة القرآن على لغات القبائل، وهناك أوجه الاختلاف بين القراءات التي هي صورة من صوَر التسهيل، وهي أقوى من تراث الشعر، وباب من أبواب التيسير والتوسعة، فما الخلل أن تصحّح العربية بالقرآن؟ ونجد نفس الأفكار تقريباً عند المجمعي محمد حسن آل ياسين في كتابه مسائل لغوية في مذكرات مجمعية[1].

2.4. أحمد شوقي عبد السلام ضيف: لقد تحدّث شوق ضيف عن وضع المختصرات النّحوية، وعن ثورة ابن مضاء، ثمّ عرج على محاولة إبراهيم مصطفى في إحياء النّحو[2] وانتقدها نقداً لاذعاً، ثمّ تحدث عن مقترحات لجنة وزارة التربية والتعليم سنة 1938، وقرارات مؤتمر مجمع اللغة العربية لسنة 1945م. ونظر إلى النّحو في صيغته التعليمية[3]، ورأى ضرورة تيسيره[4] وإعادة تصنيفه. فتيسير النّحو عنده يمرّ بتيسير اللغة؛ لأنّ النّحو هو اللغة، ومن هنا ألف كتاباً حوى هذه الأفكار،

---

1. محمد حسن آل ياسين، بغداد 1992، مطبعة المجمع العلمي العراقي.

2. ينظر: محمد المختار ولد أباه، تاريخ النّحو في المشرق والمغرب. الرباط: 1996، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، ص. 566.

3. أؤكّد هنا الصوَر التيسيرية التي أكّدها في أكثر من موقع، وهي ستة صوَر: أولها تنسيق النّحو تنسيقاً جديداً؛ بحيث تلغى طائفة من أبوابه الفرعية مع ردّ أمثلتها إلى أبوابه الأصلية. وثانيهما إلغاء الإعراب التقديري والمحلي. وثالثهما أن لا يشغل الناشئة بإعراب كلمة لا يفيدها إعرابها لها أي فائدة في صحة النطق بها. ورابعها وضع تعريفات وضوابط دقيقة لبعض أبواب النّحو التي يعسر على الناشئة فهمها فهماً سليماً. وخامسها حذف زوائد كثيرة لأبواب لا تمسّ إليها حاجة. وسادسها إضافات جديدة ضرورية تتمثّل الصياغة العربية تمثلاً دقيقاً.

4. ينظر مجلات مجمع اللغة العربية: العدد 41 = الفصحى المعاصرة/ العدد 45 = لغة المسرح بين الفصحى والعامية/ العدد 47 = تيسير النّحو.

وهو تيسيرات لغوية، كما قدّم عدة مذكرات في عدد من المسائل اللغوية وأخرجها في كتاب (مسائل لغوية) وساهم بجهود معتبرة في لجنة الأصول ولجنة اللغة العربيـة في مجمع مصر باعتبارهما تهتمان بتقعيد القواعد والفتوى في الصحيح والغلط من الصيغ والتراكيب والألفاظ المتداولة بين الناس، كما قدّم مشروع تيسير النّحو لتعليم النّحـو للناشئة، فأقرّته اللجنة وعرضته على مجلس المجمع ومؤتمره اللذين وافقا على معظم بنوده[] . وفي كتابه : تجديد النّحو تحدّث عن أسس تجديد النّحو في الأقسام السـتّة التي حواها الكتاب، فلم يترك باباً إلا وعالجه، فكتابه بحقّ كتاب مدرسي يجدر أن ينال موقعاً في منظوماتنا التربوية. وفي كتابه: تيسيرات نحوية نجده يعمل في الاتّجاه الذي يقوم على :

1- تصحيح بعض القواعد.
2- صيغ وتعبيرات صحيحة.
3- تسويغ ألفاظ دارجة.

وعلى العموم فإنّ التيسير النّحوي الذي دعا إليه شوقي ضـيف يعتمـد الأسـس التالية :

1- تصنيف النّحو تصنيفاً جديداً تنسّق أبوابه بحيـث تـتمكّن الناشـئة من استيعابه وتمثّله.

2- إلغاء الإعرابين المحلي والتقديري في المفردات والجمل، كما اقترح المجمع واللجنة الوزارية.

[]. محمد مهدي علاّم، المجمعيون في خمسين عاماً. القاهرة : 1986، الهيئة العامـة لشئون المطابع الأميرية، ص. 128.

3- أن لا تعرب كلمة في الصيغ والجمل ما دام إعرابها لا يفيد في صحة النّطق وسلامته.

4- وضع ضوابط دقيقة لبعض الأبواب النّحوية .

- الحذف من الكتب التعليمية إعراب أيّ كلمة لا يفيد إعرابها أي فائدة في صحة نطقها وسلامته على نحو ما يتّضح في بعض أدوات الاستثناء وأدوات الشرط الاسمية واسم الاستفهام والخبرية ولا سيّما .

وفي مواقع أخرى نجده يؤكد على ضرورة وضع أسس للنّحو التعليمي، ويقدم ستّة ملاحظات في هذا المجال وهي :

1- تنسيق جديد لأبواب النّحو يلغي منه ثمانية عشر باباً تُرهق الناشئة وتوهن قواها العقلية.

2- الاستضاءة بآراء ابن مضاء وبمقترحات لجنة وزارة التربية والتعليم وبقرارات مجمع اللغة العربية.

3- إلغاء الإعراب وكل ما لا يفيد الناشئة صحة في النّطق ولا سلامة في الأداء.

4- وضع تعريفات وضوابط لبعض أبواب النّحو المبهمة بحيث تساعد الناشئة على تصوّرها تصوّراً دقيقاً.

5- حذف زوائد كثيرة من شأنها أن تعقد النّحو وتجعل الناشئة تحس في تمثله غير قليل من العسر والصعوبة.

. محمد المختار ولد أباه، تاريخ النّحو العربي في المشرق والمغرب. الرباط : 1996، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، ص. 568-569.

. شوقي ضيف "تيسر النّحو" مجلة مجمع اللغة العربية. القاهرة: 1981، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، الجزء السابع والأربعون، ص. 114.

6- زيادات إضافات ضرورية في النّحو للناشئة حتى تتمثّل أوضاع الصياغة العربية تمثّلاً سديداً[1].

وفي الأخير كان مقتنعاً بأنّ التيسير النّحوي أكثر من ضرورة. ففي محاضرة له برحاب مجمع اللغة العربية الأردني قال : اقتنعت بمحاولة تيسير النّحو الجديدة التي عرضتها على حضراتكم، ولا ريب في أنّ الباب سيظلّ مفتوحاً لمحاولات أخرى قد تكون أكثر دقّة وفائدة في تيسير النّحو التعليمي للناشئة. كما ظلّ مفتوحاً –أكثر من ألف عام- أمام الأسلاف لرسم الصورة المثلى لاختصار هذا النّحو وتبسيطه[2].

3.4. عبد الكريم خليفة : يرى هذا المجمعي أنّ أسباب تعقّد النّحو بدأ منذ ظهور الموسوعات والمنظومات وكتب العلّة، وظهرت انحرافات خارجة عن سنن الفصاحة، فينذهل من تلك الزوائد التي حوتها كتب النّحو من فروع وتفصيلات واستثناءات، وخلوه من الاستقراء الكامل، أي اقتصاره على ستّ قبائل دون غيرها، وقد فوّت على العربية الشيء الكثير من كلام العرب، كما يحول دون محاكاة الفصاحة، ويبعث على الإعجاب، كما ينصّ على أنّ النّحو تسلّطت عليه مناهج ليست من بيئته فزادت عسرته، ومن هنا يؤلف كتاباً بعنوان : تيسير العربية بين القديم والحديث طارحاً وجهة رأيه في التيسير النّحوي الذي يقوم على :

- إمكانية إضافة أشياء أخرى للنّحو.

---

1. شوقي ضيف "محاولات تيسير النّحو التعليمي قديماً وحديثاً" مجلة الموسم الثقافي الثاني. الأردن: 1984، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، ص. 61-66.
2. شوقي ضيف "محاولات تيسير النّحو التعليمي قديماً وحديثاً" مجلة الموسم الثقافي الثاني. الأردن: 1984، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، ص. 67.

– عرض النّحو عرضاً حديثاً مبنياً على ضوء الدراسات اللسانية الحديثة.

– التدرّج في العرض، ويستشهد بقول الجاحظ في "أن لا يجب أن ينشغل قلب الصبي إلا بمقدار ما يؤدي إلى السلامة من فاحش اللحن، ومن مقدار جهل العوام في كتاب إن كتبه، وشعر إن أنشده، وشيء إن وصفه وما زاد على ذلك فهو مشغلة عما هو أولى به من رواية المثل والشاهد والخبر الصادق والتعبير البارع وعويص النّحو لا يجدي في المعاملات ولا يضطّر إليه في شيء".

– هناك قرارات عدة في تيسير النّحو للناشئة، لو نأخذ بها في كتب التعليم لحلّت صعوبات النّحو.

– رسم العدّة والعتاد لكتب النّحو التعليمي، بحيث ينبغي أن تنسّق تنسيقاً جديداً تُحذف منه بعض الأبواب الفرعية.

– إدخال الأصوات الأجنبية من الضرورة بمكان، وقد عرض لها سيبويه في قوله: "فالبدل مطّرد في كل حرف ليس من حروفهم، يبدّل منه ما قرب منه من حروف الأعجمية"[].

– لا بدّ من تصفية النّحو وتنقيته.

كما يركّز الأستاذ عبد الكريم خليفة على المعلم، فيرى أنّ العقدة في عدم تلمّس الدواء للنّحو لا تكمن في اللغة، بل في معلم هذه اللغة؛ هذا المعلم الذي يفْصل بين المادة النّحوية وبين معناها، فيعطي أمثلة من بعض المرفوعات، فمثلاً تعليم نائب

[]. عبد الكريم خليفة، تيسير العربية بين القديم والحديث، ط1. عمان 1986، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني.

الفاعل، مسألة نحوية. أما لماذا تصرف البنية النظر عن الفاعل وتأتي بما يقوم مقامه، فهذا من علم المعاني، كما أنّ رفع المبتدأ ورفع الخبر مسألة نحوية، وأما دواعي التقديم والتأخير فيدخل في باب المعاني. ونتيجة للعزل الشاذ بين الإعراب والمعنى، كان سبباً في الصنعة النّحوية، وهي لا تكسب التلميذ الملكة اللغوية المرهونة بالوقوف على أساليب راقية. وينتقد في أكثر من موضع منهجية المعلم الذي لا يعلم أغراض النّحو، بل فلسفة النّحو، مثل المبني للمجهول، فكيف نقنع التلميذ بأنّ فُتِحَ البابُ. البابُ : نائب فاعل مبني للمجهول، وهو مفعول به، وحلّ محلّ الفاعل الذي اختفى لغرض من الأغراض.

وهكذا يطرح هذا المجمعي جملة القضايا التي تلقي أضواء كاشفة على زوايا مجهولة في النّحو العربي ويقترح بديلاً نوعياً في مجال التيسير، وهذا بعد تصفيته من الشوائب التي علقت به، وكأني به يزكّي قول رمضان عبد التواب : أما آن الأوان لتنقية تراثنا اللغوي من هذه الشوائب. وهو الذي يعزي صعوبة النّحو إلى :

1. عرض المادة بطرائق مختلفة.
2. قصور المعاجم في الاستدلال على المعنى بالشواهد أحياناً.
3. التضخّم الملحوظ في المؤلفات المتأخّرة[].

[]. رمضان عبد التواب "تراثنا اللغوي في حاجة إلى التهذيب" مجلة مجمع اللغة العربية. القاهرة 1983، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، الجزء الثاني والخمسون، ص. 35-48.

4.4. محمد شوقي أمين : إنّ هذا المجمعي تشهد عليه كتبه: أسرار العربية/ السماع والقياس، كما يشهد له نشاطه العلمي ومساهمته الكبيرة في لجنتي الأصول والألفاظ والأساليب سواء بمتابعة أعمالهما أو بالمذكرات العلمية في تسويغ الألفاظ والأساليب الشائعة على أقلام الكتّاب المحدثين. ومن خلال كل ذلك كان يركّز جهوده النّحوية في مجال النّحو التعليمي، باعتبار الخلل يكمن في المادة التعليمية، أو في المتلقي، أو في المدرس، أو في المنهجية. ولكنّه يعطي طرائق التدريس أهمية كبرى؛ فإنّها ما تزال بالية تعتمد الحفظ، ولا تركّز على التراكيب وأمثلتها لم تخرج عن ضرب موسى عيسى، بعيدة عن الواقع، وكيف يمكن أن يكون اللسان العربي حيّاً في الوطن العربي، متفتحاً على اللغات متطلعاً إلى بناء حاضره ومستقبله، ونحن نتقيّد بالنموذج القديم... ويعرض مجموعة من القضايا ذات الصلة بالموضوع، من مثل الاعتماد على المادة الأولى (المادة المعجمية) للنّحو التعليمي لا عموم النّحو، ثمّ يطرح فكرة تدوين وتقنين ما هو جار في الاستعمال بعد تهذيبه، ويطرح سؤالاً: ماذا نفيد من إيثار المذهب الكوفي؟ فيجيب إنّنا نختصر باباً طويلاً عريضاً من أبواب النّحو يعاني المتعلمون في دراسته جهداً، وينفقون في استيعابه وقتاً"[□] فنراه ينحو منحى المذهب الكوفي الميسّر، ويقترح بأن يغلق باب كان وأخواتها، ويلغى الإعراب التقديري للمنقوص والمقصور والإعراب المحلي، والعلامات الإعرابية الفرعية وإلغاء الإعراب التقديري للمضاف إلى ياء المتكلم.

□. محمد شوقي أمين، مجلة مجمع اللغة العربية. القاهرة 1977، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، الجزء الأربعون، ص. 38.

ولهذا العالم نظرات حديثة في مجال ربط النّحو باللسانيات التي لا يستغني عنها طالب النّحو، وخاصة المدرس؛ فعليه أن يعرف علاقات الاشتقاق والتداخل الصرفي والتطوّر اللغوي، ومدى إسهام النظريات اللغوية في تطوير النّحو، وفي وضع قاعدة بيانات، وتخزين النصوص الفعلية التي تمثّل اللغة الأصلية. ويؤكّد في أكثر من موقع على أنّ تكوين المعلم بصورة جيدة يستطيع أن يدرك ذلك ويتمثّله في ذهنه.

ومع كل ما قدم في مجال القرارات والآراء الفردية والمشجّعة في الآن نفسه، فإنّ المشكل قائم، بل يزداد حدّة، فلم تستطع هذه الاجتهادات القضاء على الخطأ في أداء اللغة لدى المتعلمين "عدم قدرة الدارسين على الاستخدام الصحيح للعربية من حيث بنية الكلمة وتركيب الجملة وقواعد الإملاء"[1]. ولم تستطع المؤسسات العلمية الأخرى التي أُوجدت لتعليم العربية لغير الناطقين بها[2] الحدّ من ظاهرة الخطأ وتبليغ العربية سليمة لغير أهلها. والأدهى من كل هذا أنّنا في عصر التحدّيات، وكيف بالعربية – وهي لغتنا ولغة حضارتنا – أن تعيش هذه التحدّيات وتفرض خصوصياتها، وهل بإمكانها توفير الأمن اللغوي بالقرارات والاجتهادات التنظيرية التي لا تجد أرضاً للتطبيق، أما كفانا قراراتٍ وكتب النّحو!

5. نقد آراء المجمع التيسيرية : يصعب عليّ نقد ما قرّره المجمعيون وفصلوا فيه، ولكن هناك أفكار يجب التعرّض لها في نقاط التيسير النّحوي، علماً أنّ بعضاً من المجمعيين لم يرضوا بتلك التيسيرات المفرطة، ولم يقبلوا بذلك التسامح اللغوي

---

1. زهير غازي زاهد، العربية والأمن اللغوي. الأردن 200، مؤسسة الورّاق، ص. 74.
2. نشير إلى : معهد الخرطوم الدولي بالسودان/ معهد اللغة العربية بجامعة الملك سعود بالسعودية/ معهد تعلّم العربية بجامعة ابن سعود الإسلامية بالسعودية/ مركز تعليم الكبار في (سرس الليان) بمصر/ معهد بورقيبة للغات بتونس...

والجـواز النّحـوي، واعتـبروه إسـرافاً، وأعلنـوا عـدم التـزامهم بهـا، وهنـا نعلـم أنّ مجهودات معتبرة اصطدمت بعقبات تقليدية، ومجهودات أخـرى أراهـا دعـوات في وادٍ لأنّها لم تلقَ الصدى في المؤلفات المدرسية. ومن هنا رأيت أن أوضح بعض النقـاط التي أخلّت بالأداء العلمي لمهام المجمع.

1.5. مسألة القرارات المجمعية : ما لوحظ على المجمع اللغوي المصري أنّـه أسرف في التساهل في كثير من قضايا النّحو العربي، فانتقل من نقيض لآخر لدرجـة التسيّب، وما ينعى على المجمعيين أنّهم بعيدون عن لغة العامة، فلقد كانوا منغلقين على أنفسهم وفي أبراجهم، حتى تطاول عليهم المختصون، ورأوا البون شاسعاً بين ما يقرّرون وبين المحيط، فنزلوا نزلة شاقولية بتيسيرات واهية أحياناً، فأصـبحوا غـير متشددين، وعملـوا بطرائـق الجـواز والتعـديل، والإضـافة، ومكّنـوا الـذوق أحيانـاً، ورخّصوا قضايا لغوية كان يجب التحرّز منهـا. فمـا أحوجنـا إلى قـرارات معتدلـة لا إسراف فيها، حتى تجد مكاناً للتطبيق لا يخلّ بالأصل، وما كان حتمياً في الماضـي قد يصبح حتمياً الآن، مع إجراء بعض مـن التعـديلات البسيطة، ومـا أحوجنـا إلى تبسيط بقدر حاجتنا إلى تطبيـق المـنهج العلمـي ودراسـة اللغـة ونحوهـا علـى أسـس سليمة. فبدعوى الترخيص والتيسير لم ينظـروا في الحـلّ الـذي يضـمن احـترام هـذا التراث الذي تراكم عبر خمسة عشر قرناً، والمعطيات العصرية، فكان لابدّ من التزام الحدّ الأدنى الذي تكون القرارات الصادرة عنه محافظـة لأصـول اللغـة، وإلا تُصبح كلاماً في كلام، وكيف يكون للقرارات دور إذا لم تكن صارمة أحياناً وملزمة !

2.5. أخذ القواعد اللغوية من القرآن فقط، واستبعاد ما دون ذلك: هـذا شـيء جميل، باعتبار القرآن نزل بلغة العرب جميعها. ولكن إذا أردنا العودة إلى القـرآن،

فأيّ قراءة قرآنية تُعتمد، وإذا أردنا اعتماد قراءة ما فنقع أحياناً في الخلط بينها، أضف إلى ذلك إمكانية الاتّفاق وهي ضئيلة جداً، فكل متعصّب إلى قراءته، و"القراءات حجّة الفقهاء في الاستنباط ومجتمعهم في الاهتداء إلى سواء الصراط"[1] لا غير. كما أنّ القرآن ليس كتاب لغة هو كتاب تشريع، والقراءة فيه متبعة، تؤخذ رواية وسماعاً لا قياساً وتطبيقاً. فكيف يُطرح مثل هذا الكلام في ذلك المحفل العلمي الذي يجب أن يتفهّم الأمور، فإن كان الأقدمون قد وسّعوا اللغة واستخدموا الكثير من الأساليب، فكيف بالواقع الحالي الذي هو أكثر اضطراباً وتداخلاً، فهل يعقل أن تطغى قراءة ما على القراءات الأخرى، في الوقت الذي نعرف أنّ أوجه الاختلاف بين القراءات، باب من أبواب التوسعة، واختلاف القراءات وتنوعّها حكمة يراد بها التخفيف على الأمة الإسلامية التي كانت أمية في غالبها، واحترام لهجاتها، أو يقصد بها الاختصار، وأحياناً الكشف عن الفروق ولُمحِ دقائقها.

3.5. اشتغال المجمعيين بقضايا قديمة، وبوسائل تقليدية: إنّ المجمعيين لم يتحدّثوا في مؤلفاتهم وفي جلساتهم عن النّحو المحوسب، كأنّنا ما نزال نعيش العصور المتأخرة، ونحن في عصر المعلوميات التي نحتاج فيها إلى نحو آلي، فتتوقّف المعالجة الآلية على تطوير أساليب الصرف والنّحو، هذا النّحو الذي "يتّسم بخصائص عديدة تجعل من أمور معالجته آلياً بواسطة الحاسوب موضوعاً مثيراً على المستوى اللغوي أو المستوى العام[2]. كما ينسى المجمعيون أنّ لغتنا الآن لغة عالمية،

---

[1]. لطف الإشارات. د. ت، الجزء الأول، ص. 171.

[2]. نبيل علي "الحاسوب والنّحو العربي" مجلة الموسم الثقافي الرابع عشر. عمان 1996، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، ص. 145.

فما أحوجنا إلى مسايرة الواقع مثل اللغات الحيّة، وهذا باعتماد آخر الصيحات في مجال الاتّصال اللغوي. فأين استغلال الوسائل الحديثة في تجديد النّحو؟ وما أحوجنا إلى أن نخوض هذا الميدان، وإنّ عجزنا عن توليد آليات لمعالجة نحونا، يمكن استغلال ما هو متوفّر في اللغات الأجنبية ذات الفصيلة الواحدة.

وهكذا تسعى الأمم الآن إلى مراجعة لغاتها بصورة شاملة، لربطها بتكنولوجيا المعلومات، وتتوثّق العلاقة بين اللغة والحاسوب، وتشهد نقلات نوعية، في إطار ما تسعى إليه برامج إشكالية اللغة بكل ما يكتنفها من لبس واستعارة وحذف واقتضاب وإطناب، ونرى لغتنا متخلفة تعجيماً، ومتقدمة تنظيراً، وهذا التخلّف لا محالة سيؤدي إلى انزوائها إلى درجة دنيا، فأين علاقتها بالمنظومة التربوية والثقافية والتكنولوجية، بل الاقتصادية والسياسية ونحن في عصر المواجهة؟ وأين توصيف منظومة النّحو العربي بصورة رسمية Formel وذلك لدخول مصاف العلوم المنضبطة؟ وأين علاقة ربط اللغة بتكنولوجيا المعلومات ؟

4.5. إهمال المجمع للغات الوظيفية: لقد ركّز المجمعيون جهودهم على اللغة الفصحى، وهم يطمحون في تجسيد اللغة السليقية الأدبية نوعاً، وأهملوا الاهتمام بلغة الشارع وبلغة الحقل، وبلغة الورشة، وبلغة الحرف وبلغة أهل الشرطة وبلغة الصحافي... وأين حقّ العامة من السَواد الأعظم من اللغة الوظيفية التي يوظفها يومياً، ألا يحقّ لهذه الطبقات الرقي بلغتها أن تكون لغة الكتابة، وتجسّد اهتماماتها. وأين العمل على الرفع من مستوى هذه اللغات لتكون متقاربة مع الفصحى العصرية. وإنّه لا يمكن أن ننشد الفصحى فزمانها قد ولّى، كما ولّى انتحاء عصر الفصاحة، فأين نجد السِمت الأعلى للفصحى في هذا العصر؟ وكيف ينسون أنّ هناك مستويين لغويين

في عصر الفصاحة، وهما: المستوى الأفصح أو الترتيلي، ويتواجد في لغة الكتابة، ويستعمل في مواقف الانقباض فقط، وهناك المستوى الأدنى وهو فصيح ويستعمل في مواقف التراخي والألفة وهو الطاغي والأكثر ويستعمل في مواقف الاستئناس[1]. فإذا أراد المجمعيون العودة بنا إلى لغة العصور الأولى فإنّهم يبغون القبض على الريح، ألا يمكن أن يفكّروا أولاً في كيفية القضاء على آفة الأمية والعامية[2]. ولهذا أرى أنّنا بحاجة إلى الأخذ والاستئناس بلغة المحدثين من مبدعين وكتّاب، لأنّ اللغة تتجدّد بما يستعملونه وما يوظفونه من أساليب وألفاظ؛ باعتبارهم يلتمسون من الألفاظ ما لم يكن متوعراً ولا حوشياً، ولا ساقطاً سوقياً. وما أوسع العربية للأديب كي يعبّر شعراً أو نثراً، ولكي يغيّر مفردة بأخرى، أو يطاوع أسلوباً بأسلوب جديد مهذب وسهل. كما أنّ صفاء اللغة – في الحقيقة – من مهام المبدع قبل النّحوي؛ فالنّحوي معياري يضع القوانين، لغته محدودة جداً، بينما المبدع لغته متجدّدةً، فما المانع من أن نقيس على لغة المبدعين المعاصرين، وهل اللغة حكر على القدامى، ونحن ليس لنا أن نقول أو نتحدّث بلغة تتناسب ومعطياتنا التي لم تكن في عصر الأولين.

6. شيء في قلبي : إنّ القضية اللغوية قومية فتعني المجتمع العربي في المقام الأول، كما تمسّ المجتمع الإسلامي، ومن هنا فإنّنا بحاجة إلى جلسة صفاء تطرح فيها القضية دون حساسية وتعالج بجدارة، وليس ذلك بمستحيل إذا عقدت العزيمة. وهكذا فإنّه رغم ما رصد لهذه اللغة من مؤسسات لغوية وعلمية، وما ظهر

---

[1]. هذا مصطلح أستاذنا عبد الرحمن الحاج صالح.

[2]. علي النجدي ناصف "آفة الأمية والعامية" مجلة مجمع اللغة العربية. القاهرة 1982، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية الجزء التاسع والأربعون، ص. 122.

في مجال الحدّ من ظاهرة الخطأ، فالمشكلة تراوح مكانها، ومن هنا تطرح مصداقية هذه اللغة التي تقرب إلى اللغة الميّتة ما دامت لغة الكتابة والقراءة فقط، فهي لغة صناعية إذن، لأنّها ليست لغة الحديث العام. وإنّ غياب الحمام اللغوي (الانغماس) Imerssion يجعلنا نتساءل عن حصول الملكة اللسانية أمام اللهجات التي ترسم مناويل حديثة وعن طريقها يتمّ احتذاء أساليب من صنع العامة تتطوّر، والعربية بعيدة عنها "... لغتنا القومية مضطربة اضطراب أهليها فكرياً وعلمياً وثقافياً واجتماعياً. فصحى أو فصيحة (لغات العرب) محشورة في ركن ضيّق من الساحة اللغوية، وعاميات ذات لهجات ورطانات تسيطر على الجوّ العام، أو خليط من هذا وذلك[1]" وما يلاحظ أنّ القضية أعمق من قواعد النّحو، فهي جزء من المشكلة اللغوية، فهناك صعوبات على مستوى مجاراة هذه اللغة للعصر، على مستوى نظام الكتابة والاصطلاح العلمي، والإنتاج المعرفي، واستيعاب تقنيات العصر. دون أن نتغاضى عن النظرة الاجتماعية للفصحى والدعوة إلى التغريب والعاميات التي تجد ساحاتها في كل الأوساط وتتّسع على حساب الفصحى، والضعف الذي نشهده يزداد يومياً في تبليغ هذه اللغة لأهلها، ولغير الناطقين بها. أليست هذه مشكلة جديرة بالتوقّف ملياً لاستخلاص معيقات الأداء !

وإنّ الفصحى لا تُتعلّم من الكتب أو بالتعصّب، بل بالاستعمال، وأسلم طريق إلى تعلّم الفصحى هي الفصحى ذاتها، ويقول ابن خلدون: "وحصول ملكة اللسان العربي إنّما هو بكثرة الحفظ من كلام العرب حتى يرسم في خياله المنوال الذي نسجوا تراكيبهم فينسج هو عليه، ويتنزّل بذلك منزلة من نشأ معهم، وخالط

1. كمال بشر، اللغة العربية بين الوهم وسوء الفهم. القاهرة 1999، دار غريب، ص. 8.

عباراتهم في كلامهم، حتى حصلت الملكة المستقرّة في العبارة عن المقاصد على نحو كلامهم[1]. فهل يمكن أن نرسم لأولادنا الملكة الصحيحة أمام اللهجات المحلية والتي لم نعمل على الرقي بمستواها، في الوقت الذي نعرف أنّه من الضروري بمكان الاهتمام بهذه اللهجات العربية باعتبارها مستوى من مستويات الفصحى، وقد اختصّت برواية بعض الموضوعات[2]. والمطلوب هو العمل على الحدّ من ظاهرة التباعد بينهما. ولكنّنا وللأسف نعمل على محاربتها حتى في هذه المؤسسات اللغوية.

ومن هنا نراها لغة دينية غائبة عن تطوّرات العصر ومنتوجاته، تحلينا على الماضي أكثر مما تحيلنا على الحاضر، بعيدة عن المستقبل، لغة صناعية، فهي بمثابة من يعرف صناعة من الصنائع ولا يحكمها عملاً. أضف إلى هذا التطوّرات المعاصرة التي نشهدها، والتي يجب أن نعي أنّنا في الألفية الثالثة، لنا ظروفنا التي تختلف عن ظروف أجدادنا في عصور غابرة. وهذا لا يعني التساهل في هذه اللغة

---

1. ابن خلدون، المقدمة، ط 6. بيروت 1986، دار القلم، ص. 559.

2. مما تذكره الكتب عن الموضوعات التي تختص بها اللهجة : "... وجدنا من العلماء من كان يرى بعض الموضوعات لا تصطلح إلا بالعامية، فما رواه (يوهان فك) أنّه وجد في كتاب (نقد النثر) المنسوب إلى قدامة بن جعفر ت 907م كيف أنّ حكاية النوادر والمَضاحك ونوادر العوام إذا رويت بلغة معربة بردت وخرجت عن معنى ما أريد لها وخبت حيويتها" ع/ عباس الصوري، في بيداغوجية اللغة العربية (البحث في الأصول). المغرب: 1998، مطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء، ص. 92.

كما يروى عن حماد أنّه كان يخالف قواعد اللغة أحياناً، فقيل له لِمَ؟ فأجاب : إني رجل أكلّم العامة، فأتكلّم بكلامها" ع/ حسن محمود، اللهجات العامية، لماذا؟. القاهرة : د ت ، ص 25.

ونقلاً عن الجاحظ الذي قال : "إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام وملحة من ملح الحشوة والطِغام، فإياك أن تستعمل فيها الإعراب أو تتخيّر لها لفظاً حسناً، فإنّ ذلك يفسد الإمتاع ويخرجها من صورتها" ع/ عبد العزيز مطر، لحن العامة. القاهرة 1967، دار الكتاب العربي، ص. 40.

التي هي قدرنا ومصيرنا، وهي لغة رائعة، وتعلّقنا بها غير محدود، ولكنّنا نأسف كل الأسف لتأخّرها، وهذا عبر "المجرى الأول هو ظاهرة العجز الشامل في مسألة إتقان اللغة العربية، والمجرى الثاني هو ظاهرة الارتباك اللغوي حتى في أرفع مستويات الإتقان"[1]. وإنّ قصورنا عن إتقان اللغة العربية قضية شائكة، وحلّها يكمن في مجموعة من المعطيات. وليس من الضروري بمكان أن نقدّم كلّ الحلول الآن، بل يمكن تقديم حلول جزئية، وهي أولى خطوات النجاح. وأتحسّر ثانية على هذه اللغة التي ليس لها رب يحميها، ولا عشيرة ترافع عنها، بل إنّ أهلها ضعاف، في بلاد عجاف، فما زالت تطرح فيها قضية النّحو وبإلحاح؛ فيعني أنّ خللاً ما يزال يعلق بهذه اللغة، ولذا من الضروري الفصل أولاً في السياسة اللغوية، وإلا ستظلّ الشكوى قائمة وتزداد بروزاً إذا لم تدخل العربية المنظومة الاقتصادية وعالم البزنسة والمال ومجالات الاتّصال.

وأدعو من خلال هذه المداخلة إلى عقد جلسات صفاء عربية لأخذ القرار اللازم بشكل نهائي في مسألة تيسير النّحو؛ لأنّ المسألة ليست سهلة كما يبدو للبعض، بل إنّ المسألة تكبر يومياً، والشرخ بين الفصحى والعامية يزداد، وتحتلّ فيه العاميات موقعاً متميزاً، لأنّ اللغة توظيف، واستعمال في الخطابات المحلية والعائلية، كما أنّ النفور من اللغة الفصحى يبرز، وهذا كلّه في ظلّ غياب الآليات الأساسية لتفعيل مادة النّحو العربي والقواعد اللغوية الأساس التي يجب أن تلقن، ويركّز فيه على

---

[1]. حسام الخطيب، اللغة العربية والمشكل اللغوي. القاهرة 1995، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص. 17.

الحدّ الأدنى[1] والقاسم المشترك. فإلى متى يبقى أوصياء اللغة يعتمدون المرجعية التاريخية المتشدّدة، وهي لا تعطي خبزاً ولا ماءً.

7. التيسير المقصود : أسجل بكل افتخار بأنّ البدائل المقدّمة في مجال تيسير النّحو ذات نوعية ممتازة، لكنّها لم تنته إلى رأي حاسم أو خط واضح يخلصنا من هذا التلوّث اللغوي، ولم تجد أرضية للتطبيق، فأين المشكل؟ وما هو التيسير المبتغى؟ ومن هنا أتأسّف على تلك الاجتهادات التي لم ترَ النور بحكم التحكّم الفعلي من قبل النّحاة التاريخيين في أنّ كلّ مساس بالنّحو هو مساس باللغة العربية الحاملة للدين، وبالطبع مساس بالقرآن الكريم. فوا أسفاه على الحبّ الذي أعمى محبوبه.

من هنا لست داعياً لموقف، ولا لنظرية جديدة، بل مجرّد لمّ آراء اجتهادية حول مسألة تيسير النّحو، فلست أقصد كسر قواعد اللغة، ولن أستطيع ولو أردت، لكنّي أطمح أن تستجيب لمعطيتنا المعاصرة بفضل ما يمكن تقديمه من إصلاح في نحوها. ولذا أقدّم الخطوط العريضة التي أراها تعمل على التيسير المنشود. ولا يعني هذا إلغاء اجتهادات جمهور النّحاة، بل ذلك تراث نفخر به ونتركه للمختصين في الدراسات العليا. إنّ التيسير المنشود – حسب فهمي– يُبنى على :

أولاً : اتّخاذ المنهج الوصفي البعيد عن التأويل والتعليل واللامنطق. وهذا المنهج يراعي المستويات اللغوية ويفي بحاجات التطوّر الجديد، وأقصد هنا : المنهج البنوي

---

1. أذكر في هذا المجال أنّ لغات لها الحدّ الأدنى من الألفاظ التي تحفظ، وعن طريقها يمكن التحكّم في لغة التواصل بشكل طبيعي. فأذكر كذلك أنّ لغة من اللغات إذا حفظت 3000 لفظة يمكن التحكّم فيها، وأنّ اللغة الكورية إذا حفظت 500 لفظة يمكنك التحكّم فيها بشكل عادي، وهل يمكن أن يحصل هذا في اللغة العربية ؟

الوصفي الذي يعمل على وصف اللغة المكتوبة والمنطوق بها وصفاً يتناول الكلمة وصورتها والضوابط التي تظهر في آخرها، بناء على مفاهيم اللسانيات الحديثة.

ثانياً : إبطال كثير من المسائل التعليلية المتّبعة بكثرة في شروح النّحاة، وخاصة المتأخرين منهم.

ثالثاً : اللغة استعمال، ومن هنا يجب التركيز على المسموع ومحاولة ترقيته، وفقاً لخواص الواقع. أي اكتساب اللغة عن طريق الأداء المنطقي الفعلي. فليس من الخلل الأخذ بالأوزان والقوالب اللغوية الموجودة في اللهجات والقياس عليها، وأقصد هنا ما تواتر منها فقط.

رابعاً : يجب أن يركز الخطاب النّحوي على المسموع؛ أي على المادة لا على الصورة، على المحتوى لا على الشكل، على اللغة لا على القواعد، على البنية العميقة لا على البنية السطحية. ويقع الفرق بين اللغة كنظام مشترك، والاستعمال فردي قد يناله الخطأ.

خامساً : الانتقاء الجيّد للمادة المعطاة، وعرضها عرضاً مباشراً بتوظيف طرائق حيّة فيها مبادئ التعليميات.

سادساً : اعتماد حاجيات المتعلمين وأهدافهم، وإنّ الاحتياجات هي بؤرة حلّ هذه الإشكالية، ومركز الاهتمام في العملية التعليمية، وكذلك لا مانع من اعتماد الطرائق البديلة التي أثبتت فعاليتها في اللغات الأجنبية. وهذا الميدان يميّز بين النّحو التّخصصي والنّحو التربوي. وهذا ما تفرضه تعليميات اللغات Didactique de langues

سابعاً : تدريس النّحو للمراحل الأولى من التعليم بالعمل على تحديث المفاهيم الإجرائية التربوية، وإعادة النظر في المنطلقات الفلسفية على نحو يعكس الوضع الحالي؛ أي اعتماد طرائق التيسير؛ فالنّحو ييّسر في طرائق تعليمه، والتيسير ضرورة قصوى تستدعيها المعطيات التعليمية التي تعتمد النفعية والسهولة والنجاعة فتيسير النّحو ليس ترفاً كما يراه بعض الباحثين[1]. كما لا يجب أن يفهم بأنّ التيسير يعني الاختصار، بل الاختصار يخلّ بالتحصيل، ويفسد عملية التعليم، وهذا ما قام على فعله النّحاة المتأخرون، فأهلكوا النّحو.

ثامناً : المقصود من التيسير هو التحليل والتبسيط، وحذف للشروح والتعليقات، وعرض المادة النّحوية بطريقة تربوية تلائم العمر الزمني والعقلي للمتعلم. فلابدّ أن يظهر النّحو التربوي بشكل تدريجي عبر مراحل التعليم بمراعاة الجانب الوظيفي النافع لتقويم اللسان، وهذا يحيلنا إلى العلم بأنّ صناعة العربية ليست من الضرورة بمكان أن يكون لنا علم بالمادة النّحوية، بل المهمّ هو الاستعمال، والنّحو الذي يظلّ لصيقاً في أغراض التخاطب اليومي، وعن طريقه يتمّ الاتّصال دون خلل في الأداء، أي أن يكون لنا علم بالمقاييس والقوانين، وأن يتجسّد ذلك في الخطاب اليومي.

تاسعاً : النّحو المبتغى هو الضروري والذي لا يعني حفظ قواعده وشواذه، فالغرض منه هو الاستعمال والممارسة والتفطّن إلى خواص تركيبه. وهذا من منطلق أنّ اللغة وضع واستعمال، فما الفائدة إذا وضعنا قواعد ونحن لا نحتذيها، وما الفائدة

---

1. هذا ما يراه الأستاذ الباحث محمد صاري. ينظر: تيسير النّحو، ترف أم ضرورة؟ مجلة الدراسات اللغوية. السعودية 2001، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، المجلد الثالث، العدد الثاني.

من وضع قواعد ولا يمكن تطبيقها! وما الفائدة من حفظ قواعد ويصعب علينا تطبيقها! وما الفائدة من الأعراب الذي لا يحيلني إلى الخطأ أو الصواب! وما الفائدة من زوائد لا يمكن استعمالها حالياً أو لاحقاً! وما الفائدة من التقديرات التي لا تغيّر لا من المعنى ولا من المبنى! وما الفائدة من الإظهار أو الاستتار اللذين لا يدخلان في عملية التبليغ! وما الفائدة في النّحو الذي لا يقوّم اعوجاج اللسان !!!

8. اقتراحات

1. جعل سنة 2003 سنة النّحو العربي. بإقامة تظاهرات علمية في مادة النّحو العربي، ويكون شعارها: "النّحو في الكلام كالملح في الطعام". □

2. تعمل مديريات التربية في كل ولاية تجسيد هذا الشعار في ذات السنة.

4. تتولّى وزارة التعليم العالي والبحث العلمي تطبيق هذا الشعار في الجامعات الوطنية، بإقامة تظاهرات علمية تطبيقاً للشعار.

5. نطالب وزارة التربية بتجسيد ما تخرج به هذه الندوة من توصيات في كتبها المدرسية.

6. نناشد المجمع الجزائري للغة العربية العمل على معالجة ظاهرة تيسير النّحو محلياً وعربياً.

7. نلتمس من التلفزة الوطنية –في كل قنواتها وفي مختلف وسائل الإعلام– التحسيس لهذه القضية، وعلى دعم اللغة العربية البسيطة، أو الوسطى. وذلك عن

□. عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ط 1969. بيروت ص. 65.

طريق الممارسة اللغوية في الإعلام الثقيل بالخصوص، وفي كل وسائل الاتّصال، باعتبار الإعلام يساهم في السيولة اللغوية، وتعويد اللسان على الكلام الطبيعي.

9. يخطّط بدقة لموقع اللغة العربية من السياسة اللغوية (الاصلاحات المتتالية) بالتركيز على إعداد معلم العربية على ضوء النظريات اللسانية التربوية الحديثة.

10. فتح مشاريع البحوث في مجال التيسير النّحوي من قبل الوزارات المعنية، ومديرية البحوث الجامعية.

11. نشر الدراسات التي تيسّر النّحو مادة ومنهجاً، والتركيز على السلامة من الأخطاء اللغوية والنّحوية والصرفية، وما يعني بتطوير الأداء اللغوي، بمراعاة التجديد في نطاق يضيف إلى اللغة آفاقاً أخرى.

التهيئة اللغوية للنحت في العربية

د. عبد الجليل مرتاض
أستاذ بجامعة تلمسان

1. النحت لغة

كم أنا معجب بقول دي سوسور بأن "كل تعريف لكلمة ما باطل، كما أن المنهج الذي ينطلق من الكلمات لتحديد الأشياء لهو خاطئ"[1] أجل، هذا قول مصيب، لكنه في نظرنا سيظل حلما منهجيا لن يتحقق خارج الكلمة، مادام كل مصطلح إلا وينطلق من كلمة وفقا لمعايير قواعد اللغة.

ومع ذلك، فإن معاجمنا العربية القديمة لا تتوسع كثيرا في مشتقات كلمة "النحت"، ولا تشير أية إشارة إلى هذه الكلمة، ما أصبحت تدل عليه فيما بعد كمصطلح لغوي يدل على اختزال كلمتين أو أكثر في كلمة واحدة قد تكون اسما وقد تكون فعلا، وقد لا يكون هذا الاسم جامدا، وقد يكون متصرفا، كما سنشير إلى هذا لاحقا.

إن كلمة "النحت" أخذت من مادة نحت نحتا الشيء إذا براه بريا مثل بري القصبة أو القلم وما يتطاير من عملية النحت أو البري يسمى نحاتة أو بُراية، وآلة النحت تسمى المنحاة مثلما تسمى آلة البري مبراة ومادة "نحت" تتقاطع دلاليا بشكل من الأشكال مع مادتي "نأت" و"نهت"[2].

وانطلاقا من دلالة "نحت" يمكن أن نطلق على كل ما يلفظ أو يهمل من أصوات أو مقاطع أو كلمات خلال عملية " النحت" مصطلح "النُّحاتة" ف "حوقل" المنحوتة من جملة "لا حول ولا قوة إلا بالله" يمكن اعتبار : لا، و، لا، قوة، إلا،

---

[1]. محاضرات في الألسنية العامة، ص. 26، ف، دي سوسور، ترجمة يوسف غازي ومجيد النصر، ط 1984 دار نعمان للثقافة، بيروت.

[2]. راجع معاني هذه المواد الثلاث في الصحاح : 268/1 – 269، ط1979/2، دار العلم للملايين، بيروت، وقارن بلسان العرب 403/2 لابن منظور، الدار المصرية للتأليف والترجمة.

بالله، عبارة عن "نحاتة" حتى نفرق بين ما يثبت في الصيغة المنحوتة، وبين ما يهمل في الجملة الأصلية التي نحتت منها الصيغة الجديدة.

2. النحت مصطلحا ؟

وأما النحت مصطلحا فهو عبارة عن توليد كلمة أو نحتها من تركيب لغوي للدلالة بها على كلمة جديدة واشتقاق مشتقات منها وفق ما يسمح به النظام اللغوي المعتاد في العربية، واللفظة المنحوتة قد تسمى مستحدثة أو مولدة NEOLOGISME أو النحت اصطلاحا "انتزاع كلمة من كلمتين أو أكثر على أن يكون تناسب في اللفظ والمعنى بين المنحوت والمنحوت منه. وقد نحت القدماء من الجملة فاشتهر من منحوتاتهم قولهم : حمدل حمدلة من الحمد لله، وبسمل من بسم الله، وسبحل سبحلة من سبحان الله، وحسبل حسبلة من حسبي الله، وجعفد من جعلت فداك، ودمعز من أدام الله عزه، وحولق، من لا حول ولا قوة إلا بالله، وطلبق من أطال بقاءك، ومشكن من ما شاء الله"□، أو النحت نزع حرف " أو حروف من كلمتين متمايزتين أو أكثر من ناحية المعنى للدلالة على معنى جديد"□.

وقال ابن فارس بأن العرب "تنحت من كلمتين كلمة واحدة، وهو جنس من الاختصار"□ مثل عبشمي منسوب إلى اسمين (عبد شمس) وروى الخليل بيتا شعريا قديما يدل على أن النحت تابع كغيره من القواعد الأخرى من اللغة الشفوية□ :

□. مجلة المجمع العلمي العربي (دمشق) مجلد 34، ج 4،سنة 1959، ص. 545.

□. ظاهرة الاشتقاق في اللغة العبية، ص. 357، طنطاوي محمد دراز، ط 1986 مطبعة عابدين – القاهرة.

□. الصاحبي في فقه اللغة، ص. 271 لابن فارس، تحقيق مصطفى الشويمي، ط 1963 مؤسسة بدران، بيروت.

أقـول لـهــا ودمــع الـعـيـن جــار　　آلـم تـحـزنـك حـيـعـلـة الـمنادي ؟

حيث نحت الشاعر سليقيا الحيعلة على وزن فعللة من قول المؤذن "حي على الصلاة، حي على الفلاح" وإن اكتفى بنحت الحيعلة من اسم (حيَّ) وحرف جر (على) لأن المرأة التي خاطبها الشاعر تدرك بالجزء ما قصد إليه من معنى.

وقال شاعر آخر (عَبْدُ يَغُوثَ)[□] :

وتـضـحـك مـني شـيـخـة عـشـمية　　كــأن لــم تــر قـلـبــي أسـيــرا يـمـانيا

3. هل وجد النحت مصطلحا لدى النحاة المتقدمين ؟

ومما راعى انتباهنا، ونحن نبحث في ظهور مصطلح النحت في علوم اللغة العربية أن هذا المصطلح لم يتواجد صراحة بهذا الاسم لدى النحاة المتقدمين، حتى وإن كانوا عالجوه لغويا ومهدوا به الطريق لمن جاء بعدهم من المتأخرين، وهذا دون أن نتجاهل ما أصله الخليل بن أحمد لهذه الظاهرة في كتابه "العين" ولكنه لم يفرد عندهم بباب مستقل أسوة بالأبواب اللغوية الأخرى.

مع أن اللغة الشفوية عند العرب، قبل التهيئة اللغوية، عرفت كلمات نحتية لا يتطرق الشك إلى ذهن دارس من أن العرب كانوا يعرفون هذه الأنماط اللغوية في عادتهم الخطابية سليقة، وقلتها عندهم، في نظرنا، ترجع إلى قلة الاحتياج إليها لأن هذا النمط اللغوي قد يكون نشأ عندهم لإرادة الإيجاز والإشارة الخفيفة في

□. نفسه، ص. 271.

□. مغني اللبيب 277/1 ابن هشام، تحقيق محي الدين عبد الحميد، مطبعة المدني، القاهرة.

الخطاب، وليس لحافز اضطراري لغوي صرف، ومن هنا نجد اللغويين المبكرين تغاضوا عن هذا الباب، ولم يعقدوا له دراسة مستقلة ولا حتى عنوانا دالا عليه.

4. فكرة النحت عند سيبويه

وبرجوعنا اليوم إلى تصفح كتاب سيبويه، وهو أول سجل قواعدي علمي شامل للعربية، لا نجد ذكرا صريحا لكلمة "النحت" فيه. ولكن الرجل يذكر كلمات وقوالب من المركبات والجمل لا تبتعد عن مجال النحت، غير أنه لا يذكر شيئا مستقلا أو مبوبا في النحت نفسه، مثلما فعل ذلك مثلا في الاشتقاق الذي يحوي كتابه منه حيزا كبيرا، بل أشار حتى إلى التعريب وقوانينه ونماذجه عند العرب□ وهذا إن دل على شيء فعلى عدم اطلاعه على كتاب العين.

أيا كان الأمر، فإن نصا سيبويهيا مثل : "هذا باب الشيئين اللذين ضم أحدهما إلى الأخر، فجعلا بمنزلة اسم واحد كعيضموز وعنتريس"□ لا يبتعد عن معنى النحت، ثم إن عملاء القرن الثاني الهجري ظلوا يعدون المركبات الإسنادية، والإضافية، والعددية، والمزجية شيئين أو اسمين جعلا اسما واحدا، وهذا ما عادت تقول به المدرسة اللسانية الوظيفية المعاصرة بل في الكتاب نص يشير إشارة واضحة إلى معنى النحت وبعض من قواعده : "وقد يجعلون للنسب في الإضافة اسما بمنزلة جعفر، ويجعلون فيه من حروف الأول والآخر، ولا يخرجونه من حروفها ليعرف، كما قالوا : سبَطْر، فجعلوا فيه حروف السبط إذ كان المعنى واحدا،... فمن ذلك : عبشمي، وعبدري"□.

□. انظر الكتاب : 303/4 – 307، تحقيق هارن، ط 1975 – الهيئة المصرية للكتاب.

□. الكتاب : 296/3، تحقيق هارون، ط 1973، الهيئة المصرية للكتاب والعيضموز : العجوز الكبيرة من إنسان وحيوان والعنتريس : الناقة الصلبة الكثيرة اللحم.

□. السابق ص. 376.

وما جعفر إلا فعلل، وتأمل ملاحظته من أن النسب في الإضافة لا بد أن يشتمل على حروف من شقي الا سمين المنحوت منهما كلمة واحدة، فالسبطر من السبط والسبر، وعبدري من عبد الدار، ولكنه لم يحدد قاعدة تحديدا واضحا لهذه الظاهرة أسوة بما حدده من قواعد للعناصر اللغوية الأخرى، وكان علينا أن ننتظر القرن الرابع الهجري لتبعث فكرة النحت على عهد أبي الحسين أحمد بن فارس (308-395 هـ) والتي كان أصلها الخليل بن أحمد بقاعدة تأسيسية لم يحفل بها كثيرا اللغويون اللاحقون□.

وبشأن التركيب المزجي دائما، فإنه ألمع إلى أن من العرب من يقول : معد يكرب بجعله اسما واحدا دون إضافة، مما جعله يسأل يونس بن حبيب : "هلاّ صرفوه إذ جعلوه اسما وهو عربي؟"□ فأجابه يونس : "ليس شيء يجتمع من شيئين فيجعل اسما سمي به واحد إلا لم يصرف"□.

وعموما، فعلماء هذه الفترة (حتى نهاية ق2 هـ على الأقل) بقدر ما تغاضوا عن تخصيص باب مستقل لموضوع النحت، فإنهم كانوا يعدون بشكل صريح المركبات الإسنادية، والإضافية، والعددية، والمزجية شيئين أو اسمين جعلا اسما واحدا، وهذا ما تقول به المدرسة اللسانية الوظيفية المعاصرة حيت تعتبر كل تركيب مزجي AMALGAME وحدة دالة واحدة MONEME كقول أندري مارتيني عام 1969 :

□. سنثير هذه المسألة في حينها عند الرجلين لاحقا.

□. نفسه، ص. 297.

□. نفسه، ص. 297.

"كل اندماج Fusion مشكـــل من مونيمتين أو عـدة مونيمـات يكـوّن مـا أسميـه تركيبـا مزجيا"[1].

وعليه، إذا أردنا أن نستلهم هذا الدرس اللغوي (النحـت) عنـد علمـاء القـرن الثاني الهجري فعلينا أن نستوحيه من هذه المركبات المشار إليها سابقا، وأن نلتمسه بالضبط من موضوع النسب الذي سماه سيبويه بـاب النسبة، وبـاب الإضـافة[2] مـع تحفظنا على نسبة هذه العناوين المحددة بهذه المصطلحات إليه.

ويظهر بشكل خاص، أن الخليل بن أحمد لم تفتـه الإشـارة إلى طـرق موضـوع النحت وعلاجه علاجا علميا، فكان يقول في الاسمين اللذين ضم أحـدهما إلى الآخـر فجعلا اسما واحدا: "تلقي الآخر منهما كما تلقي الهاء من حمزة وطلحة؛ لأن طلحة بمنزلة حضْرَمُوتَ"[3] وهذا ما عناه سـيبويه حـين أشـار إلى أن مـن كـلام العـرب أن يجعلوا الشيء كالشيء إذا تشابها في بعض المواضع، ضاربا الأمثلة بنحت الكلمـتين المزجيتين، حضـرموت، وعبـدري مـن عبد الـدار، وسـأل الخليـل، دون اسـتعمال مصطلح النحت، عن الإضافة إلى رجل اسمه مثلا اثنا عشر، فوجهـه بقولـه: ثنـوي كقول من قال: بنوي في ابن[4].

وفي الكتاب نص قصير يوحي بشكل واضح إلى النحـت وأوليـة قواعـده وبعـض نماذجه، وهو يتحدث عن النسب بالإضافة: "وقد يجعلون للنسب في الإضافة اسمـا

---

1. Dictionnaire de didactiques 24. R/ Galisson/D.coste Hachette, 1976.

2. انظر الكتاب، 335/3.

3. السابق، ص. 374.

4. راجع المصدر السابق ص. 374.

بمنزلة جعفر، ويجعلون فيه من حروف الأول والآخـر، ولا يخرجونـه مـن حروفهـا ليعرف كما قالوا سبطر، فجعلوا فيه حروف السبط إذ كـان المعنـى واحـدا،... فمـن ذلك : عبشمي، وعبدري" ولكنه لا يعد مثل هذه الظاهرة اللغوية الـتي عرفـت في عهده، لدى الخليل، تحت مصطلح النحت قياسا، وإنمـا قـالوا هـذا كمـا قـالوا : علوي من عالية، وزرباني مـن ربينـة، ولـيس بقيـاس وإذا سميـت رجـلا وزينـة لم تقل : زباني،... ولكن تقول في الإضافة إليه، زبني" .

5. ملامح نظرية ابن فارس عند سيبويه

وعلى ذكر سيبويه كلمة "سبطر" التي ألمح إلى كون العرب جعلوا فيها حـروف السبط لما كان المعنى واحدا، فإنه من الواجب العلمي أن نشير إلى أن الرجل قد سبق بفكرته هذه من تأخر عنه وتبنى مثل هذه الفكرة مذهبا له، كقول ابن فارس : " هذا مذهبنا في أن الأشياء الزائدة على ثلاثة أحرف فأكثرها منحـوت مثـل قـول العـرب للرجل الشديد : ضِبَطر من ضبط وضبر، وفي قولهم: صَهْصَلِق أنه من صَهَل وصَـلَق، وفي الصَّلْدم أنه من الصلد والصدم" .

وهكذا، فأن السبطر التي ذكرها سيبويه قد تكون نحتا لكلمـتي: سـبط– علـى وزن تعب أو سهل – وسبر، وجاء في بعض المعاجم أن السبطر هـو الماضـي الشـهم والسبر – بكسر السين – الهيئة الحسنة وسبَطَ الشعر سبطا إذ كان مسترسلا، وعلاقة

. السابق، ص. 376.

. نفسه، ص. 338.

. الصاحبي في فقه اللغة، ص. 271.

. القاموس المحيط : 44/2 الفيروز أبادي، دار الفكر بيروت.

النحت الدلالية غير بعيدة بين الكلمتين، وممن وظف أحد المشتقات القريبة من هذه الكلمة أمرؤ القيس في وصف فرسه[1]

وإن أعرضت قلت : سرعوفة   لها ذنب خلفها مسبطر

أي لها ذنب ممتد طويل، وهو لا يشبه سرعة فرسه بسرعة الجرادة وخفتها، بل بالاستواء في الخلق.

6. لماذا أهمل النحاة المتقدمون التهيئة في النحت ؟

إن معالم النحت واشتقاقه، على غير مذهب بعض العلمغيين (علماء اللغة) العرب الذين يرون كل وحدة لغوية زادت على ثلاثة أحرف منحوتة في أكثرها، لقليلة، بل نادرة الوجود في العربية الشفهية الجاهلية، ومن أجل ذلك لم يعره المعلمغيون العرب المتقدمون أدنى اهتمام في تهيئة قواعد له أسوة بما أنجزوه من تهيئات لغوية أخرى لباقي أبواب قواعد العربية.

ومما تقدم ظهر لنا أن الخليل بن أحمد وسيبويه قد فطنا بشكل من الأشكال إلى مفهوم النحت، وأعطيا بعض النماذج عنه، وأشارا إلى جزء هام من قوانين نحته واشتقاقه دون أن يصرح سيبويه بمصطلحه، مع أنه تلميذا للخليل، وأن هذا الأخير ذكره مصطلحا، كما سنبين لاحقا.

ومما يوجد في هذه الظاهرة من ندرة مبعثرة في نصوص تراثية جاهلية لم يكن بإمكانه أن يشكل عائقا أمام المستعربين الأمر الذي جعل العلمغيين الرواد يهملونه كصناعة لغوية محددة تحديدا علميا واسعا ودقيقا.

---

[1]. ديوان امرئ القيس، ص. 166 تحقيق : أبو الفضل إبراهيم، ط : 2، دار المعارف، مصر.

ونـدرة التراكيـب النحتيـة في العربيـة الجاهليـة الـتي تعـد حجـة علـى كـل المستويات اللغوية اللاحقة في العهد الإسلامي وما بعده إلى عصرنا هذا ينبئ بوضـوح عن استغناء عربية هذه المرحلة عن مثل هذه البيانات النحتيـة ومـا يتصـل بهـا مـن مستويات اشتقاقية قياسية.

7. ظاهرة النحت في العربية الجاهلية ؟

وهذه الندرة التي ألمحنا إليها آنفا بالنسبة لظاهرة النحت في العربية الجاهلية لا نعني بها إلا تلك الكلمات المنحوتة من كلمتين فصاعدا إذا كان الأمر يتعلق بأسماء الأعلام، والنبات، والقبائل، وما شاكلها، وإلا فإن هذه الندرة لا معنى لها بالنسـبة للوحدات الدالة معنويا، وخاصة بالنسبة لمئات الكلمات المنحوتـة، مـن كـل مـا زاد على ثلاثة أحرف، إذا تبنينا مذهب من يقول بذلك كابن فارس مثلا.

إن كلمات مثل[] :

- الكعثب (الركب الضخم)، ماذا تفعل هنا في مادة كعب ؟
- الكعب والكعدبة (الفسل من الرجال) نفس التساؤل ؟
- الكعسب (العدو الشديد) والكعنب (القصير)...

ومن هذه الكلمات التي رتبها المعجميون تحت (كعب) نستطيع أن نشتق منها ما نشاء وفق القاعدة اللغوية في العربية.

وصرح سيبويه أنه سمع العرب يصرفون الرجل المسمى كعسبا، مردفا القـول : "وإنما هو فعل من الكعسبة[] أي أنه منقول من الفعلية، وليست فعل هنا إلا كعب.

[]. انظر القاموس المحيط 124/1.

ومستبعد جدا أن تكون كلمات الكعثبة، والكعدبة والكعسبة والكعنبة من الفعل كعب وحده.

وأما تشكيلها، فيتألف من فعلين ثلاثيين :

- الكعثبة ⟵ كعب + كعث
- الكعدبة ⟵ كعب + كعد
- الكعسبة ⟵ كعب + كعس
- الكعنبة ⟵ كعب + كعن

والوحدات الأربع (كعث، كعد، كعس، كعن) ليست مهملة على أنها غير مستعملة في العربية، بل هي موجودة جزئيا بواسطة أصواتها : الثاء، والدال، والسين، والنون، والصوتان الباقيان في كل واحدة منها ثابتان في المادة الأم (كعب) وهنا ينبغي أن نعيد النظر فيما سماه العلمغيون الرواد مهملا كلما تعلق الأمر بواقعة لغوية شبيهة بهذه.

وبواساطة الظواهر الثقافية والنسبية والدينية والأحداث التاريخية والابتكارات الفنية والعلمية والتفاعلات الحضارية المتتالية بالنسبة لحياة اللغة العربية، نستطيع أن نجعل مقاربة ليست بعيدة كل البعد عن الصواب المنشود لتحديد كلمات نحتت في العربية الجاهلية، وأخرى نحتت في العربية الإسلامية الجديدة.

8. كلمات منحوتة في العربية الجاهلية

□. الكتاب 206/3.

ومن الكلمات التي ترجع إلى العربية الجاهلية بحيث نحتت نحتا سليقيا مثل سائر الظواهر اللغوية الأخرى كالرفع، والنصب، والجر، والمفرد، والمثنى، والجمع،... وعروض الشعر،... هذه الكلمات المنحوتة من مركبات عدة :

أ - المركبات الاسمية

- عبشمي ← عبد شمس، ونحتها الأصلي فعلل، أي عبشم
- عبدري ← عبد الدار، ونحتها الأصلي عبدر
- عبشمس ← عب شمس أو حب شمس، وهو ضوؤها، على الإبدال
- مرقسي ← امرؤ القيس، ونحتها الأصلي مرقس
- تيملي ← تيم اللّه، ونحتها الصلي تيمل

ويلاحظ أعلاه أن العرب أضافوا السين إلى عبشمس للتمييز بين نحت عبشم من عبد شمس، ونحت عبشمس وهو ابن زيد مناة بن تميم، وأبو عمرو من نص على أن أصل عبشمس من عب شمس أو حبّ شمس، بينما ذهب ابن الأعرابي إلى أن اسمه عَبْءُ شمسِ بالهمزة[1] كأنهم جعلوه عدلا أي نظيرا للشمس في ضوئها.

وأحسب أن حاجة العرب إلى نسبة شخص إلى قبيلة بعينها، أو إلى جماعة معينة، هي التي فرضت عليهم تهيئة سليقية في خطابهم الشفهي الطبيعي، ولا أدل على ذلك من أن اللغويين الرواد لم يترددوا في وضع هذه الظاهرة (النحت) تحت

---

[1]. انظر المزهر : 484/1، السيوطي، تحقيق : جاد المولى، البجاوي، أبو الفضل، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة. وقارن بالاشتقاق، ص. 233 لابن دريد، من أن عبشمس هو لعاب الشمس، وهو ما يرى منها مستطيلا في الصيف.

باب النسب، مثلما نجد في كتاب سيبويه، وما يدور فيه من محاورات بين مختلف العلمغيين العرب الذين عادة ما يحيل عليهم سيبويه في هذا الموضوع وغيره.

وهنا ينبغي أن نفرق بين النحت كظاهرة مستقلة لا علاقة لها بما أسماه سيبويه " باب الإضافة " أو " باب النسبة" وبين النسبة كظاهرة أخرى، لأننا نقول من : "عبشم" عبشمه يعبشمه عبشمة، وتعبشم يتعبشم تعبشما، وهو معبشم ومتعبشم (في اسم الفاعل)،... الخ، فليست النسبة بالنسبة إلى النحت إلا إحدى هذه الظواهر اللغوية، حتى وإن كانت ليست من باب المشتقات الشائع حصرها في ست ظواهر بالنسبة للعربية.

ومما يلاحظ أن نحت : عبد + شمس، تم بأخذ الصوتين الأولين المتتاليين من شقي التركيب (عب + شم = عبشم) في حين أخذ المضاف (تيم) كله، وأدمج مع صوت واحد (اللام) من المضاف إليه (الله) وإلا صار الاسم الجديد المنحوت على شكل "تيله" وعلى وزن عبشم دائما، ويبدو أنه لو جاء النحت على الصورة الأخيرة لما كان مردودا، ولكن أخذ الصوت الأخير من الشق الأول (تَيْم) أولى من اخذ الصوت الأخير (الهاء) من الشق الثاني (الله).

ب – النحت من الجمل الفعلية

وللعرب كلمات منحوتة من جمل عدة تتصل بطبيعة خطاباتهم فنحتوها اختزالا، مثل قولهم :

– الطبقة ⟵ أطال الله بقاءك

– الدمغزة ⟵ أدام الله عزك، وقال بعض الشعراء[1]

---

[1]. انظر هذا في المزهر 484/1.

لا زلت في سعد يدوم ودمْعَزهْ

أي لا زلت في سعد دائم وعز أدامه الله عليك

– الجعفدة ⟵ جعلت فداك، ويرى اللغويون أن الجعفلة باللام خطأ، لأن الأهمية في النحت عادة ما تقتضي التوازن ما أمكن بين الكلمات المنحوتة، أي اللام يجعل الكلمة المولدة غريبة وبعيدة عن الجملة الفعلية المنحوتة.

– الكبتعة ⟵ كبت (أذل) الله عدوك.

وقريب من هذا، الهرهرة وهو دعاؤك الغنم إلى الماء على عكس البربرة إذا دعوتها إلى العلف : "يقال هرهر بها (الغنم) إذا دعاها إلى الماء، وبربرها إذا دعاها إلى العلف. قال يونس : من هذا قولهم : لا يعرف هرا من بر، أي لا يعرف الهرهرة من البربرة "[1]. ومنه أيضا البأبأة والمأمأة، لأن العنبريين (من تميم) كانوا يقولون : "بأبأ الصبي أباه وبأبأه أبوه، إذا قال له، يا بابا، ومأمأ الصبي أمه فهو يمأمئها"[2] وحتى دأدأة الصبي إذا سكته تسكيتا، وهذا كله من العربية الجاهلية القديمة وهو أكثر من أن يحصر، لكنه صعب التخريج والتحديد، لكون الجملة الفعلية مصدرة بمسند هو الفعل، وهذا الفعل أحادي الوظيفة، أي لا يخرج عن كونه مسندا في كل حال، فضلا عن كونه لا يقوم حتى بهذه الوظيفة إلا إذا كان مرتبطا إجباريا بمسند إليه.

والكلمات المشار إليها أعلاه ليست مثل الزلزلة، والقلقلة والقعقعة، والقطقطة والخضخضة،... وهي مصادر قياسية لأفعال رباعية مجردة أو مزيدة، لأن البأبأة

[1]. النوادر في اللغة، ص. 251، أبو زيد النصاري، المطبعة الكاتوليكية، 1894.

[2]. نفسه، ص. 254.

ومثلها المأمأة وما اتصل بهما أصلهما جامد، ومثلهما كذلك "البخبخة" من قول العرب : "بَخٍ بَخٍ" للدلالة على الرغم من أن هذا التعبير لم يعد مستعملا في العربية الحديثة، وهذا إحدى ميز وفوائد النحت في تطوير اللغة، لأنه يهدهدها من الجمود والعجز إلى التفعيل والتحدي لمسايرة عصرها وإثبات وجودها.

ج. النحت من الجمل الاسمية

يظهر أن النحت من الجمل الاسمية في اللغة العربية أكثر غزارة منه في الجمل الفعلية لأن هدف النحت ليس ظاهرة طارئة في حد ذاتها، ولا واقعة لغوية طبيعية، تنتهي بانتهاء توليد الكلمة المنحوتة، بل عملية النحت ما هي إلا وسيلة لما بعدها، وأهمها إمكان المستعمل والمتكلم من اشتقاق ما يحتاج إليه في التعبير عن مقاصد ما كان لها أن تتم لو لا عملية النحت وتأكيدا لهذه الفكرة، فإننا نستبعد ما ارتآه ابن فارس من العرب تنحت من كلمتين كلمة واحدة طلبا للاختصار. وإلا فهل كان بإمكان القائل أن يقول لمخاطبته :

ألم يحزنك "حي على" المنادي

لو لم ينحت الجملة الفعلية ليحولها إلى وحدة اسمية (حيعلة)؟ فالنحت، فضلا عن كونه واقعة لغوية ككل الوقائع اللغوية الأخرى فهو يقوم بوظيفة أساسية لا يمكن لأية واقعة لغوية أخرى من غير جنسه أن تنوب منابه أو تغنينا عنه.

وحين يلجأ الاشتقاقيون إلى نحت كلمة من جملة اسمية أو فعلية، فإنهم لا يفكرون في مرحلة أولى فيما سوف يشتق من الكلمة المنحوتة من مشتقات، لأن المرحلة الثانية هذه من تحصيل الحاصل، أي العبرة أولا بتوليد كلمة جديدة حسب مقتضيات الاحتياج.

إن المتكلم الذي يريد أن يعبر باسم واحد منحوت من جملة فعلية أو اسمية، يدرك سلفا أن الاسم المنحوت يساعده في توظيفه بكيفية أفضل وأسرع وأكثر تنوعا مما لو تحدث بجملة بكاملها، وخاصة أن الاسم متعدد الوظائف خلافا للفعل، وحين يوظف المستعمل اسما منحوتا من جملة فعلية أو اسمية مبتدأ أو فاعلا أو خبرا أو مفعولا،... فكأنما يوظف جملة بكاملها.

د – الكلمات المنحوتة من وحدتين

ومر بنا أن الكلمات المنحوتة من فعلين أكثر من أن تحصر إلا بمجلدات مثلما فعل ابن فارس في معجمه"مقاييس اللغة"، ولكنا سننمذج ببعض الكلمات المنحوتة المشتقة من اسمين أو وحدتين لغويتين:

- العَجَمْضى (نوع من التمر) ← عجم وهو النوى + ضاجم (اسم واد)
- شَقَحْطب ← شِقَ + حَطَب (الكبش ذو القرون الشبيهة بشق الحطب)
- بلحارث ← بنو الحارث
- بلهجيم ← بنو الهجيم
- بلعنبر ← بنو العنبر
- ويْلمهِ ← أصلها : ويل + أم، أي : ويل لأمه.

وفي التركيب الأخير صرح الخليل أنه مركب من : وَيْ + لأمه[1] واستعمل هذا النحت شاعر متقدم (جبيهاء الأشجعي)[2]

---

[1]. الكتاب: 5/3.

[2]. المفضليات، ص. 168، تحقيق : شاكر وهارون، ط4 – دار المعارف – مصر.

ويلمها كانت غبوقة طارقٍ ترامي به بيدُ الإِكامِ القراوِحُ

– الإمَّعة ⟵ إني + معك أن أو إنه + معه،...

وهذه التراكيب الاسمية المنحوتة معتمدة على السماع أكثر مما معول فيها على القياس لأنها غير متجانسة في نحتها وفق قواعد صارمة، ولكنها عامل من عوامل تشجيع المستعملين العارفين بخبايا اللغة العربية على المضي قدما في هذا الباب مع تقنينه إلى أبعد ما يمكن من تبسيط وتوحيد بين كل الناحتين في العربية، ولسنا مندهشين من التفاوتات التي قد تحصل في قواعد النحت، لأن القواعد اللغوية المهيأة بصرامة في العربية لم تخل كلها من شذوذ في القياس والاستعمال والاطراد.

فليس محظورا حظرا فاحشا علينا أن نشتق من الكلمات السابقة أفعالا مثل :

– تعجمض أو عَجْمضة، ...

– تلهجم أو لهجمه، ...

– تويلم أو أمعه تمعيها فهو ممعه، الخ.

9. النحت في العربية الجديدة

وإذا ما انتقلنا من سمات النحت في العربية الجاهلية إلى سمات النحت في العربية الجديدة التي عاصرت مجيء الإسلام ونزول القرآن ووضع العلوم وخاصة القواعد اللغوية، فإننا نكون قد خرجنا من عربية شفوية سليقية كانت القواعد فيها تهيأ بالفطرة والجبلة، ودخلنا عربية بدأت تسجل وتدون باعتماد الكتابة عونا مرجعيا تدريجيا، غير أن سمات النحت ظلت واحدة، لأن علماء اللغة المتقدمين أو روادها – كما أشرنا – لم يعيروا هذا الباب كبير اهتمام، على الرغم من شعورهم بوجوده كظاهرة لغوية، ولكنهم صرفوا النظر عنه وكأنهم قدروا أنه من حقول المعاجم

لا من اختصاص القواعد، ونجد هذا التقدير، فيما يبدو، لدى ابن فارس الذي له كلام مستفيض في مقاييس اللغة، ألم يقل مما قال فيه :

" يقال : تبعثق الماء من الحوض : إذا انكسرت منه ناحية فخرج منها، وذلك منحوت من كلمتين : بعق، وبثق، يقال : انبعق الماء : تفتح"[1].

وقال : "بزمخ الرجل : إذا تكبر، وهي منحوتة من قولهم : زمخ إذا شمخ بأنفه، وهو زامخ، ومن قولهم : يزخ، إذا تقاعس"[2] ونحا نحوه معجميون آخرون كالفيروزأبادي (817 هـ) الذي يستخدم مصطلح "مركب" عوضا عن المنحوت، فتراه عند حديثه عن الآية الكريمة﴿ وإذا القبور بعثرت﴾ يقول: "أي قلب ترابها، وأثير ما فيها، ومن رأى أن تركيب الرباعي والخماسي من ثلاثيين نحو: هلل وبسمل، إذا قال : لا إله إلا الله، وبسم الله الرحمن الرحيم، يقول : إن بعثر مركب من بعث وأثير، وهذا غير بعيد عن هذا الحرف، وإن البعثرة يتضمن معنى بعث وأثير"[3] وقال في كلمة " القمطرير" التي جاءت في القرآن : "والقمطرير : الشديد كالقماطر، كأنه مركب من قمط وقطر أو قمر"[4].

10. الخليل والنحت

---

[1]. مقاييس اللغة : 330/1.

[2]. نفسه، ص. 331.

[3]. بصائر ذوي التمييز :261/2 للفيروز أبادي نقلا عن : نشوء الفعل الرباعي في اللغة العربية، ص. 22، أحمد عبد المجيد هريدي، ط : 1988 مكتبة الزهراء، القاهرة.

[4]. نشوء الفعل الرباعي في اللغة العربية، ص. 22.

بل ما لنا ولابن فارس والفيروزأبـادي ؟ ألم نجـد هـذا التقـدير صـراحة في أول معجم عربي، أي العين ؟ قال الخليل بن أحمد : "إن العين لا تأتلف مع الحـاء في كلمة واحدة لقرب مخرجيهما إلا أن يشتق فعل من جمع بين كلمتين، مثل : حـي على، كقول الشاعر :

ألا ربّ طـيف بات مـنـط مـعانـقي إلى أن دعا داعـي الفلاح : فحيعلا

يريد "حي على الفلاح"، أو كما قال الآخر :

فـبـــات خـيـــال طـيفـــك لـــي إلى أن حـــيـعـل الـداعي الـفـلاحـا عـنـيـقـا

أو كما قال الثالث :

أقــول لـهـا ودمــع الــعـيـن جـار ألـم يـحـزنـك حـيـعـلـة المنادي ؟

فهذه كلمة جمعت من "حي" ومن "على" وتقول منه : حيعل يحيعل حيعلة، وقد أكثر من الحيعلة، أي : من قول : "حي على" وهـذا يشـبه قـولهم : "تعبشـم الرجل وتعبقس، ورجل عبشمي" إذا كان من عبد شمس أو من عبد قـيس، فأخـذوا من كلمتين متعاقبتين كلمة، واشتقوا فعلا قال :

وتـضـحـك مـنـي شـيـخة عـبشمية كـأن لـم تـرَيْ قـبـلـي أسـيـرا

نسبها إلى عبد شمس، فأخذ العين والبـاء مـن عبـد، وأخـذ الشـين والمـيم مـن شمس، وأسقط الدال والسين، فبنى من الكلمتين كلمة، فهذا من النحت، وهـو مـن

الحجة، كقولهم: حيعل حيعلة، فإنها مأخوذة من كلمتين (حي، على) وما وجد من ذلك فهذا بابه"[1].

ونص الخليل الذي تعمدنا إيراده كاملا من أول مؤلف لغوي يصلنا، ليدل دلالة قاطعة على أن صاحبه كان مدركا إدراكا علميا لموضوع النحت وطريقة نحته وكيفية اشتقاق ما شئنا منه من مشتقات يمكن استعمالها بطلاقة لتعويض ما تشعر به اللغة من عجز أمام اللغات الأخرى التي تحتوي على آلاف من الكلمات المنحوتة فيها مسايرة لعصرها مرحليا للدلالة على ما يبتكر فيها من إنجازات ثقافية وعلمية لحل مشكل ميلاد المصطلح الذي يولد فيها يوميا بالعشرات أو المئات.

وعليه، فإذا كانت كتب الطبقات تجمع على أن عبد الله بن أبي إسحاق أول من بعج النحو ومدّ القياس والعلل، فإن المقولة نفسها تنطبق على الخليل بن أحمد في باب النحت.

ونلاحظ أن الخليل ركز على ثلاثة نصوص ترجع إلى العربية الإسلامية الجيدة، وعلى نص واحد يعود إلى العربية الجاهلية القديمة، والشاعر الجاهلي (عَبْدُ يَغوثَ بْنُ وقَاص) يكون نحت هذه الكلمة (عبشمية) نحتا طبيعيا مثلما وظف في نفس القصيدة[2] تركيبا مزجيا (حضرموت) ممنوعا من الصرف توظيفا سليقياً.

---

[1]. العين – 68/1 –69، الخليل بن أحمد، تحقيق، د عبد الله درويش، ط : 1967. مطبعة العاني – بغداد.

2. انظر المفضليات ص. 157، والبيت :

أبا كَرِبٍ والأيْهَمَيْنِ كليهما وقيْساً بأعلى حَضْرَمَوْتَ اليمانيا

"التفكيكيّةُ بينَ النظريّةِ والتطبيقِ :
كانَ ما سوفَ يكونُ... نموذجًا"

د. مهدي أسعد عرار

أستاذ بجامعة بيرزيت بفلسطين

الملخص

ليسَ المَقْصِدُ المُتعيِّنُ مِن هذا العُنوانِ العَريضِ تحسُّسَ جميعِ جوانـبِ المـنهجِ التفكيكيِّ، والمُضيَّ مع أعلامِه ونظراتِهم، بلْ هو نظرٌ نقديٌّ تطبيقيٌّ مِضمارُه الأوّل قصيدةُ "كانَ ما سوفَ يكونُ... " لمحمـود درويـش والباحـثُ – إذ يقـاربُ هـذه القصيدةَ — يفيءُ إلى استرفادِ أجلى مَقولاتِ التفكيكيّةِ، ليتّخذَها مَـدْخلاً تتأسّـسُ عليه قراءتُه تلكم ؛ وذلك نحو الحديثِ عن بِنيـةِ القصـيدةِ وتفكيكِهـا، والتنـاصّ وتعايشاتِ المعاني، والرمزيّةِ والإرجاءِ، والدالّ العائمِ والمدلولِ المنزلـقِ، كـلُّ ذلـك يُستَشرَفُ في القصيدةِ مِن وجهةٍ تفكيكيّةٍ.

مقدِّمة وملاحظُ أوّليّةٌ

أفكارٌ تتحاورُ، ومفكِّر يقف تجاهَ آخرَ مُحاميًا عن وجهةِ نظره، ووجاهةِ سببه، ومنهجٌ ينبني على آخرَ مُستدرِكا أو مُفنِّدا أو مُضيفًا، فهاهي التفكيكيّة قد تجافتْ عمّا ذهبتْ إليه البنيويّة، وأصبح الباحثون يقفون على مناهجَ متباينةٍ، أو لأقلْ متقابلة، أمّا البنيويّةُ فهي منْ محصول المفهومِ الألسنيِّ الحديثِ؛ إذ تتبنّى بعضَ النظريّاتِ اللغويّةِ الحديثةِ، وبخاصّةٍ آراء العالمِ اللغويّ دي سوسير، كانتفاءِ القولِ بوجود مناسبةٍ طبيعيّةٍ بين الدالِّ والمدلولِ، فالعَلاقة بينهما اعتباطيّةٌ، وتتبنّى أيضا البَوْنَ بين الكلامِ واللغة، والافتراقَ في منهجي الدراسةِ: الآنيّ والتاريخيِّ، والحديثَ عن نظريّةِ الفونيم. لقد انطلقتْ هذه المدرسةُ مُعلِنةً أنّ منطلقَها في قراءةِ النصّ هو البنيةُ، فأصبحوا يتحدّثون عن النسق والنظامِ، وشبكةِ العلائق الداخليّة التي تلفّها بنيةٌ كليّةٌ، وهي ـ البنية ـ في معناها الواسعِ "طريقةٌ بحثٍ في الواقعِ، ليس في الأشياءِ الفرديّةِ، بلْ في العَلاقاتِ بينها"[1]، والمؤلِّف عندَهم مستثنى، بلْ هو ميّت، ولذلك يذهبُ أنصارُ هذه المدرسةِ إلى أنّ إغلاقَ النصّ هو السبيلُ الأولى في قراءتِه، ولكنّ ما أثقلَ البنيويين أنفسَهم تلك المساءلةُ التي تقولُ إنّ النصّ إنتاجُ ذاتٍ فرديّة، وهذه الذاتُ والنصُّ معاً مُكتنَفان في زمانٍ ومكانٍ وشروطٍ اجتماعيّة محددةٍ، فكيف يتسنّى لأنصارِ هذا المذهبِ أنْ يصلوا إلى اقتناصِ بنيةِ النصّ متجافين عن عالمِه الخارجيِّ، وكيف يكونُ بمُكْنَتِهم أنْ يقطعوا أنظارَهم عن شروط إنتاجِه؟[2]، ومنْ هذا الشططِ

---

[1]. روبرت شولز، البنيوية في الأدب، ترجمة حنا عبود، اتحاد الكتاب العربي، القاهرة، 1984م، 14.

[2]. انظر: إبراهيم السعافين، نظرية الأدب و مغامرة التجريب، دار الشرق العربية، القدس، 1993م، 9/1، وقد أشار شولز إلى هذه المشكلة، وإلى أن البنيوية تعرضت لهجوم فكري؛ إذ إنها تأبى أن تقول بوجود عالم ثقافي خلف النص. انظر: البنيوية في الأدب، 21.

والتكلّفِ الظاهرين في إغلاقِ النصّ، والحديثِ عن بنيةٍ شاملة، انبثقتْ حركةٌ نقديّة تفنّد بعض ما تقدّم آنفا□، ولذا يمكن القولُ "إنّ التفكيكيّة في جزءٍ منها ردٌّ فعلٍ حذرٍ إزاءَ هذه النزعةِ في الفكر البنيويّ للتخفيفِ مِن غلوائِها وتوضيحِ رؤيتِها الداخليّة بالطريقةِ المثلى، وبعض من أقوى مقالات جاك ديريدا مُكرَّسة لمهمّة تفكيكِ مفهوم "البناء "التي تخدم تجميدَ التلاعبِ بالمعاني في النصّ"□. إنّ ما تقدّم يوحي بأنّ التفكيكيّة قائمةٌ على رفضِ المركزِ الثابت، والعنصرِ المسيطرِ،والثنائيّاتِ التي تؤطّرُ للشكلِ فتجعلُ له حدودا ثابتة، فالنصّ في نظر ديريدا مجموعٌ غيرُ متجانسٍ□،وقد تحسّس ديريدا جوانبَ النقد التفكيكيِّ، ؛ إذْ إنّ هناك إمكاناتٍ لأنْ يجدَ القارئ في النصِّ المقروءِ ما يساعدُ على استنطاقِه، وجعلِه يتفكّكُ بنفسِه□، والذي يهمّه في القراءاتِ التي يحاولُ إقامتَها هو نقدٌ يسلّطُ الأضواءَ على بنيةٍ غيرِ متجانسةٍ،على نقدٍ يتغلغلُ في أعماقِ التناقضاتِ الداخليّة، على نقدٍ يعثرُ على التوتّراتِ، فيقرأ النصّ من

□. تجدر الإشارة إلى أن عز الدين إسماعيل عمل على تحديد نقاط الارتكاز الأساسية للإستراتيجية النقدية للحداثة، وفي تحديده لهذه النقاط جمع بين البنيوية والتفكيكية في مضمار واحد، "وكأننا نتحدث عنهما كمشروع نقدي واحد، وليس كمشروعين متناقضين يفترقان في الكثير"، انظر : عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك،عالم المعرفة، الكويت، ع232–1998م،334. وانظر كلام عز الدين إسماعيل : جدلية الإبداع والموقف النقدي" فصول، م10، ع1–2، القاهرة، 1991م.

□. كريستوفر نورس، التفكيكية : النظرية والتطبيق،ترجمة رعد عبد الجليل جواد،دار الشؤون الثقافية،الثقافة الأجنبية،ع4–1989م،79.

□. انظر : الاستنطاق والتفكيك، حوار مع جاك ديريدا، أجراه كاظم جهاد، مجلة الكرمل، قبرص، ع17–1985م،58.

□. انظر : المرجع السابق، 58.

خلالِها نفسَه ؛ إذ إنّ فيه قوى متناثرةً تُعينُ القارئَ على تقويضِه وتجزئتِـه[1] ، هـذا هو التفكيكُ مِن منظورِ ديريدا ، فهو حركةٌ بنيانيّةٌ وضـدّ البنيانيـّةِ في الآن نفسِـه[2] ، "فنحن نفكّك بناءً أو حادثا مصطَنعا لنبرزَ بنيانَه ،أو أضلاعَه ،أو هيكلَـه كمـا قلـتُ ، ولكنْ نفكّ في آن معا البنيةَ الشكليّة العارضةَ والمخرّبة ،البنيةَ التي لا تفسِّر شيئا ،فهي ليستْ مركـــــزا ،ولا مبدأ ، ولا قوةً "[3].

التفكيكيّةُ بين النظريّة والتطبيق

لتجليةِ الحديثِ عن هـذا المَطْلَـبِ لـيس ثمّـة بـدٌّ مـن اسـتجماعِ نثـارِ مقـولاتِ التفكيكيّين ، ولعلّه مِن التكريرِ ولكنّه مِن التذكرةِ أنْ يُشارَ إلى "المعنى المنزلقِ" و"عشقِ النصّ " "وموتِ المؤلّف " و"التناصّ " و"نقضِ المركزيّة"[4].إخالُ أنّ هـذه مِـن أجلـى المرتكزاتِ التي تقومُ عليها القراءةُ التفكيكيّة ، والذي ينبغي تأسيسُه أوّلا هو التجـافي

---

[1]. انظر : المرجع السابق، 59.

[2]. انظر : حوار مع جاك ديريدا ،أجراه كريستان ديكان ، مجلة الفكر العربي المعاصـر ،بيروت ، ع 18-19، 1989م، 254.

[3]. المرجع السابق، 254، وقد عرض جوناثان كولر إلى هذا الرأي قائلا : "تحـاول التفكيكيـة جاهدة أن تظهر أن هذا النوع من معاملة المعنى مقوض بالنظرية الـتي تعتمـد عليـه ، إن إمكانيـة القراءة ـ يقول بول دي مان ـ لا يمكن أن تكون محمولة على محمل الضمانة ، إنها نوع من الفهم الذي لا يمكن أن يلاحظ أو يؤكد أو يفرض". انظر :

J. Culler, On Deconstruction, Theory and Critisism After Structuralism, Routledge and kegan Paul, London, 1983, p. 224.

4. ومن بواعث تعدد القراءات أيضا نقض المركزية التي عملت على مـوت المؤلف ،وهـدم البنيـة ، فصار القارئ وارثا شرعيا ، بل عاشقا ،وعن أهمية القارئ يقول كولر : "إن الأدب المعاصر يشجع التركيز والاحتفاء بالقارئ ؛ إذ إن كثيرا مـن العقبـات والانقطـاع عـن الأعمـال الأدبيـة الأخـيرة أصبحت سهلة الانقياد، مذعانا للنقاش النقدي ،وهذا لم يحدث إلا عندما أصبح القـارئ يتعامـل مع تلك النصوص وكأنه صاحبها ونصيرها الفعال"، انظر : Culler, On Deconstruction ,38

عن نظريّةِ الاتّصالِ وعناصرِها الستّةِ التي تغطّي وظائفَ اللغةِ في هذا المَقامِ[1]، فليس ثمّ رسالةٌ موجَّهة مِن مُرسِلٍ إلى مُستقبِل، و"على الجملةِ، فإنّ الأدبَ ليس شيئا آخرَ سوى تقنيّةِ الدلالة، إنّ وجودَه كائنٌ في شكلِه، وليس في المحتوى أو الرسالةِ الإيجابيّةِ للخطابِ : في إنتاجِه للمعنى، وليس في المعنى المنتَجِ. إنّ الكاتبَ وهو مُنغلِق في "كيف تكتبُ الكتابة " لا يستطيع أنْ يُنتجَ سوى علاماتٍ فارغة، تاركًا للآخرين مهمّةَ ملئِها، إنّ مهمّتَه هي أنْ يبنيَ الدلالة تقنيّا دونَ أنْ يعلّقَ الوصف، أنْ يخلقَ نظاما من العلاماتِ الداخليّةِ المركونةِ فيه، أيْ نظامًا مِن العلاماتِ من طرازٍ مرجعيٍّ خاصّ، لعبة دالّة في المدلول وفي حركةٍ واحدة موضوعةٍ ومنتزعَة، مفتوحة، وموقوفة، مختنقةٍ في صمتِ الجواب"[2]، والحديثُ عن ملءِ العلاماتِ الفارغةِ التي تقدّمتْ آنفا وجهٌ من وجوهِ الحديثِ عن تعدّدِ المعاني في النصّ ؛ إذ إنّ الدالّ ينفلتُ من القيودِ المعجميّةِ التي كانتْ تثقلُه، ولعلّ هذا يُفضي إلى الالتباسِ النصيِّ، فالأثرُ- فيما يراه بارت ـ ملتبس، و "الالتباسُ فيه خالصٌ تماما، ومهما يكنْ مُطنبا، فهو يتوفّر على شيء مِن اقتضابِ لغةِ العرّافين : كلماتٌ مطابقةٌ للقانونِ الأوّل (إنّ العرّاف لايهذي أبدا) ومفتوحةٌ معَ ذلك أمامَ معانٍ متعدّدة، نظرا لأنّ

---

[1]. يفرق بعضهم بين الاستدلال والاتصال، ولمزيد بسط القول في هذا المطلب انظر : وليم راي، المعنى الأدبي من الظاهراتية إلى التفكيكية، ترجمة يوئيل عزيز،دار المأمون، بغداد،1987م، 141.

[2]. ستيفن دابل لاند، قراءة لرولان بارت، مغامرة الدال، ترجمة أحمد المديني، مجلة الفكر العربي المعاصر،بيروت ع18-1989م، 85.

النطقَ بها قد تمّ خارجَ كلّ وضعيّةٍ سوى وضعيّةِ الالتباسِ ذاتِها "□. مِن هذا كلِّه يصبحُ اللفظُ سائرا في فضاءٍ لا يُحدّ، متألّقًا في حريّةٍ غيرِ محدَّدة،ويتهيّأ ليشعّ "بألفِ عَلاقةٍ غيرِ أكيدةٍ وممكنة، لقدْ أُلغيتْ العَلاقاتُ الثابتة..."□.

ولعلّ هذا الذي نحن فيه يقودُ إلى الحديثِ عن "الإرْجاءِ "، فالقولُ بتعدّدِ المعاني نابعٌ مِن ظاهرةِ تناولِ اللغةِ بقدرٍ كبيرٍ من التشككِ بوصفِها متجافيةً عن التعبيرِ الموضوعيِّ الشفّافِ،فاللغةُ عند ديريدا ـ بجميعِ أنواعِها ـ لغةٌ استعاريّة، ولذلك ينسحبُ هذا التشكّكُ على التفسيرِ النصيّ نفسِه،ثمّ إنّ النصّ لا يمثّل بنيةً لغويّة تخضعُ لتقاليدَ ثابتةٍ، بل إنّه يمثّل تركيبةً لغويّةً تعارضُ نفسَها مِن الداخل، وتعجّ بالكسورِ والشروخِ و الفجوات على نحوٍ يجعلُ النصّ قابلا لتفسيراتٍ وتأويلاتٍ لا مُنتهَى لها□، ومِن مثلِ ذلك في القصيدةِ :

رثاءُ القصيدةِ ورثاءُ العلاقاتِ المعجميّةِ فيها

ابنُ فلاحينَ مِن ضلعِ فلسطين

جنوبيّ

□. رولان بارت، النقد والحقيقة،ترجمة إبراهيم الخطيب، الشركة المغربية للناشرين، الدار البيضاء، 1985م،58.

□. رولان بارت، الكتابة في درجة الصفر، ترجمة نعيم الحمصي، وزارة الثقافة، دمشق، 1970م،53.

□. على الرغم من أن المدرسة التفكيكية أصبحت مدرسة رائدة بين المدارس النقدية في الولايات المتحدة إلا أنها تعرضت لهجوم فكري بوصفها فلسفة قائمة على الشك والعبثية اللغوية. لمزيد بسط القول انظر :

Academic American Encyclopedia, Grolier Incorporated, 6 /76.

شَقيٌّ مثلُ دوريّ

قَويٌّ فاتحُ الصَّوت

كَبيرُ القَدَميْن

لعلّه يحسُنُ أنْ يُبدأَ أوّلا برثاءِ العَلاقاتِ المعجميّةِ بين الدالّ والمدلولِ قبل أنْ يُشارَ إلى رثاءِ شاعرٍ شاعرا آخرَ، فالمُساءلةُ التي تَرِدُ على الخاطرِ ههنا مِضمارُها تلكم الصفاتُ التي أُسبِغتْ على المرثيِّ ودَلالاتُها التي تومِئ إليها، فما المعنى المتعيِّنُ فيها، ثمّ ما معنى "جَنوبيّ " ؟ لعّلَ فيها دِلالةً على المكانِ، أو أنّها تُومِئ إلى أنّه كادحٌ مظلوم، "وشقيٌّ مثلُ دوريّ " فالدوريّ دائبُ التوثّبِ والحركة، ولعلّ معناه أنّه دائمُ التنقّلِ، أو أنّه يفتقدُ بيتاً يأويه، أوْ أنّ حياتَه متواضعةٌ ليستْ معقَّدةً، وكذلك : "كبيرُ القدمَين "، فقد يعني هذا التركيبُ أنّه يتنقلُ كثيرا، أوْ أنّه فلاحٌ بَسَطتْ الأرضُ قدميْه، وقد يُؤذِن هذا — مِن وجهةٍ تفكيكيّةٍ أخرى– بالقولِ إنّ ثمّ إحساسا بالطبقيّةِ في هذه العبارةِ، كلُّ هذا المتقدِّم مَعانٍ في الذهن مُزدحمَةٌ، وتبقى الإجابةُ عنها مُعلَّقةً مُرجأةً إلى أجلٍ إنّي لستُ بالغَ أجلِه.

عَوْدا على بَدْءِ هذا النصّ غيرِ المكتمِلِ في معناه وتشكّلِه :

في الشارعِ الخامسِ حيّاني. بَكى.

مالَ على السورِ الزجاجيِّ.ولا صفصافَ في نيويورك.

أبكاني.أعادَ الماءَ للنهرِ.

شربنا قهوةً.ثمّ افترقْنا في الثّواني.

لعلّ هذا التقديمَ قائمٌ على فهمٍ جديدٍ للعَلائقِ اللغويّةِ، فانعدامُ حروفِ العطفِ، والإلحاحُ على الكلامِ الموقوفِ،والجملِ المجتزَأةِ المنتهيةِ بنقطة، والتي تعملُ على

انفساخِ نسيجِ التركيبِ، كلّ ذلك يصرِّحُ أو يلوِّحُ بأنّ المرثِيَّ غريبٌ، وأنّ هذه الغربةَ انعكستْ على واقعِ اللغةِ في ذاتِها، فتجافتْ عن حروف العطفِ لتحدّثَنا عن وَحشتِه ووَحْدتِه، ومِن وجهةٍ تفكيكيّة أخرى، لعلّ شدّة التواصلِ والتلاحمِ بين الراثي والمرثيّ أفضتْ به إلى أنْ يَضربَ صفحًا عن حروفِ العطفِ ؛ إذ إنّ العطفَ موجود، والتواصلَ الروحيَّ بينهما قائمٌ، فلماذا نلجأ إلى عطفٍ شكليٍّ لغويٍّ. حقّا لقد تناثرتْ في أروقةِ النصّ مجموعةٌ مِن السؤالاتِ التي تُضيء فضاءاتٍ من الحَيْرةِ وتعدّدِ الإجاباتِ، وتبقى الإجابةُ عنها مُرجَأَةً :

فهلْ في غابةِ الإسمنتِ ريشٌ لِحَمام

مِنْ أينَ يمرُّ القَلْب ؟!

مَن يلتقطُ الحلمَ الذي يسقطُ قربَ الأوبرا والبنك ؟

يُضيفُ ديريدا فكرةً أخرى تلقي الضَّوْءَ على ما تقدّم،فهو يرى أنّ العلامةَ توضعُ مكانَ الشيءِ نفسِه أو الشيءِ الموجودِ، والشيءُ ههنا هو المعنى والمشارُ إليه،أي : أنّ ثمّ تمثيلا للموجود (present) في حال غيابه، ولهذا نحن لا نستطيعُ أنْ نظفرَ بالموجودِ أو أنْ نظهرَه، فعندما ينبري الموجودُ متواريا عنّا، فإنّنا نتّكئ على الإشاراتِ (العلامات)، وهكذا تصبحُ العلامةُ وجودا مُرْجَأً،أي إنّها ترجِئ لحظةَ مواجهةِ الشيء نفسِه، وهي اللحظةُ التي يكون بمُكنَتِنا أنْ نضعَ أيديَنا عليه، أو أنْ نتلمّسَه أو نراه، ولذلك تخلّقَ عند ديريدا ـ اعتمادًا على ما تقدّم آنفا ـ فكرةٌ قائلةٌ "بالاختلافِ المُرْجَإ للإطالة "، وهي فكرةٌ تُؤذِن بالافتراضِ القبليّ بأنّ العلامةَ التي

تُرجئ الموجودَ لا يمكن إدراكُها إلا على أساسِ الموجودِ الذي تُرجِئه ، والنصّ نفسُه قائمٌ على الإرجاء، فلم يعدْ النصّ ـ كما تقدّم قَبْلا وسنتبيّنُ بَعْدا ـ جسدا مِن الكتابةِ المعبَّرِ عنها برموزٍ، أو مَضمونًا مُكتنَفًا بين دفّتي كتابٍ، بلْ إنّه غدا نسيجًا مرجَأ يعودُ بشكلِ غيرِ متناهٍ إلى آثارٍ أخرى مُرْجَأةٍ أيضا، والذي حدثَ ـ مِن وجهةِ نظرِ ديريدا – هو تجاوزٌ واجتياحٌ أطاحَ بكلّ الحدود والتقسيمات، "فأجبرنا على أنْ نوسعَ المفهومَ السائدَ، والفكرةَ المسيطرةَ حولَ مفهوم النصّ" .

بنيةُ القصيدةِ بين ألمِ التبدُّدِ ولَذّةِ التوحُّدِ

قد تقدّمَ قَبْلا أنّهم رفضوا التمركزَ حولَ بنيةٍ ثابتة، ولكنّ هذا لا يعني أنّهم يُنكرون وجودَ بنيةٍ في النصّ، بل إنّها موجودةٌ، ولكنّها ليستْ كالبنيةِ التي تحدّث عنها البنيويّون، إنّها غيرُ متجانسةٍ في النصّ، والذي يهمّهم في القراءاتِ التي يحاولون إقامتَها هو " الاستقرارُ أو التموضعُ في البنية غيرِ المتجانسة للنصّ، والعثورُ على توتّراتٍ أو تناقضاتٍ داخليّة يقرأ النصُّ من خلالِها نفسِه، ويفكّك نفسَه كما عبّرتُ منذ وهلةٍ. أنْ يُفكّكَ النصّ نفسَه فهذا لا يعني أنّه يتّبعُ حركةً مرجعيّةً ذاتيّةً، حركةَ نصّ لا يرجعُ إلا إلى نفسِه، ولكنْ هناك في النصّ قوى متنافرةٌ تأتي لتقويضِه وتجزئتِه"[3] . أمّا الفكرةُ التي اختمرتْ في فكرِ بارت ـ وهي فكرةٌ توافق ما تقدّم آنفا ـ

. انظر : جاك ديريدا، الاختلاف المرجأ، ترجمة هدى شكري عياد، فصول، مج6، ع3 – 1986م، 56.

. السعافين، نظرية الأدب، 15.

. ديريدا، الاستنطاق والتفكيك، 58.

فهي قائلةٌ بأنّ البنيويّةَ " كلمةٌ مغيظةٌ يجب أنْ تُطهّر اللغة الفرنسيّة مِنها "□، وهو ينعَى على البنيويّةِ تجافيَها عن فتحِ النصّ، " صحيحٌ أنّ قراءةَ الأثرِ يجبُ أنْ تُنْجَزَ في مستوى الأثرِ ذاتِه، غيرَ أنّنا لا نستطيعُ أنْ نتصوّرَ فيما إذا وُضعتْ الأشكالُ، كيف يمكنُ تلافي اللقاءِ بمضامينَ مصدرُها التاريخُ أو النفسُ..."□.

قبلَ الولوجِ في مَطْلَبِ الحديثِ عن البنيةِ التي تُلَمْلمُ هذه القصيدةَ وتجعلُها كُلاًّ واحدا غيرَ مُتفاصلٍ، ليس ثمّة بدٌّ مِن تفكيكِها وكشفِ مُكوِّناتها، والظاهرُ أنّ ثالوثا يَسري في أوصالِ القصيدةِ، وهو مُؤتلفٌ مِن بُعدٍ زمانيّ، وآخرَ مكانيّ، وثالثٍ آدميّ. أمّا البُعد المكانيّ فهو جليٌّ الحضورِ، وقد ألفيتُ في النصّ تركيزا على هذا البعدِ بمختلفِ صورِه : بعدٍ مكانيٍّ ماضٍ، وبعدٍ مكانيّ حاضرٍ، وآخرَ إيجابيّ، ورابعٍ سلبيٍّ، وتكادُ تؤلّفُ هذه الأبعادُ المكانيّةُ متضافرةً فضاءً يُوحي بجوٍّ مِن الحَيْرَة والسديميّةِ، كالشارعِ الخامسِ والبكاءِ فيه، ونيويورك التي لا صفصافَ فيها،ومطارِ القاهرةِ، ومطعمِ خريستو.ولكنْ، يقفُ تجاهَ هذا الجمعِ مِن مفرداتِ المكانِ السلبيّةِ "الماضيةِ والحاضرة " بُعدٌ مكانيّ إيجابيّ، كفلسطينَ الوطنِ، وعكّا،والساحلِ الطويلِ، وسجونِ الناصرةِ التي غدا التمنّي بالبقاءِ فيها مَطْلَبا أسمى مِن المَنْفَى البعيدِ إذ إنّه سيكونُ حرّا طليقا في سجنِ الوطنِ أكثرَ مِن سجنِه في زنزانةِ المَنْفَى، وبينَ هذا الجدلِ المتمثِّلِ في التردّدِ بين البُعدِ المكانيّ "الماضي والحاضرِ "و" السلبيّ والإيجابيّ " يطفو على السطحِ تفوّقُ العنصرِ السلبيّ الذي يُشكِّلُ مِن مجموعِ هذه الأمثلةِ مَنفى مُغْلَقا يقابلُ الوطنَ وإنْ تمثّل في سجونِ الناصرة. والبُعد الزمنيّ قائمٌ على مقابلةٍ بينَ الماضي والحاضرِ. أمّا البُعدُ الآدميّ فهو مُؤتلِفٌ مِن الراثي والمرثيّ وشرطةِ الميناءِ

□. بارت، النقد والحقيقة، 40.

□. المرجع السابق، 40.

والقتلة. والحقّ أنّ أبعادَ هذا الثالوثِ تتعالقُ متضافرةً لتتخلّقَ لنا قصيدةٌ عِمادُها بنيةٌ كليّة تُلملِم نثارَ ما تقدّم مِن تفكيكٍ : إنّها جدلٌ بينَ لَذّةِ التوحُّدِ وألمِ التبدّد، أمّا لّذة التوحُّدِ فمِضمارُها الثالوث : لَذّة توحّدٍ مع المكانِ، والزمانِ، والإنسـانِ، وألمُ التبـدّدِ كذلك مضمارُه، تبدّدٌ معَ المكانِ، والزمانِ، والإنسانِ، ومِن الأمثلةِ المجلِيّةِ لِمـا تقـدّمَ لذّةُ التوحّدِ بين الراثي والمرثيّ؛ أي بينَ طرفِي البُعدِ الإنسـانيّ، فعنـدَ حـدوثِ اللقـاءِ بينهما تباكيا، فعادَ الماءُ للنهرِ :

أبكاني. أعادَ الماءَ للنهر.

شربنا قهوةً. ثمّ افترقْنا في الثّواني

وتذكّرْنا معًا إيقاعَنا الماضي

وموجات السنونو فوقَ كفّ تقرعُ الحائط

ولكنّ لذّة التوحّدِ تلك لا تقفُ عندَ هذا الحدّ، بلْ تتعدّاه إلى عتبةِ التماهي بينَ الراثي والمرثيّ، فالمرثيّ هو المقتولُ، ولكنّ الراثيَ أَسقطَ هذا على نفسِه فغدا المقتـولَ، وَفاءً للذّة التوحّدِ بينَهما :

وخانتْني الغصون

كانَ ما سوفَ يكون

فضحتني السنبلهْ

ثمّ أهدتني السنونو

لسيوفِ القتلهْ

ثمّ يعقبُ هذا، في مُخْتَتَمِ القصيدةِ، صحوةٌ مِن غَفْوة، ليَرفعَ الراثي التماهيَ الذي وقعَ بينَه وبين المرثيّ، جانِحا إلى التقريرِ بالتقدير : ألا وهو : كانَ ما سوف يكونُ، متوسِّلا بضميرِ الغائبِ الرافعِ للتماهي، المُعَيِّن لمرجعِه الغائبِ :

كانَ ما سوفَ يكون

فضحتُه السنونو

ثمّ أهدتُه السنبلهْ

لرياحِ القتلهْ

ولذّةُ التوحّدِ ليستْ مقصورةً على البُعدِ الآدميّ، بلْ نجدُها واقعةً بين البُعدِ الإنسانيّ والمكانيّ، إنّها لذّةُ التوحّدِ مع الأرضِ، مع الوطنِ فلسطينَ والحقلِ، وتبلغُ لَذةُ التوحّد ذروتَها حين يغدو التمنّي بأنْ يكونَ السجنُ في الوطنِ مَعناه الحريّةُ والانعتاقُ، أمّا المُغْتَرَبُ والمَنفَى فهو القيدُ والسجن :

والتقينا بعدَ عامٍ في مطار القاهرة

قالَ لي بعدَ ثلاثين دقيقهْ :

ليتني كنتُ طليقا

في سجونِ النّاصرة

أمّا عن الشقّ الثاني الذي يُؤلّفُ بينَ أبعادِ هذا الثالوثِ فهو جليٌّ الحضورِ كسابقِه، فألمُ التبدّدِ واقعٌ في العَلاقةِ بين البُعدِ الإنسانيّ والمكانيّ، فالمرثيُّ غريبٌ منفيٌّ عن البعدِ المكانيِّ الأوّل"الوطن"، ولذا فإنّه سينظرُ إلى البُعدِ المكانيّ الجديدِ" المنفى" بعينِ السوداويّةِ والسديميّةِ، فهو في "نيويوركَ التي لاصفصافَ فيها"، وقد أفضتْ به هذه السوداويّةُ إلى أنْ ينظرَ إلى البُعدِ المكانيّ الحادثِ بعينِها، فالشمسُ –

وهي الشمسُ أينما كانَ الإنسان– شاحبةٌ لا تُومئ بأيّ مَعْلَم مِن معالمِ الجمالِ، وقد كانَ المرثيّ "شاحبا كالشمسِ في نيويورك". وألمُ التبدّدِ بين البعدِ الإنسانيّ والإنسانيّ قائمٌ، كالقتلةِ وشرطةِ المِيناء، وفوقَ هذا كلِّه، وفي لَحظةٍ هي ذروةُ التراخي والارتكاسِ في "ألمِ التبدّدِ "، نُلفي المَرثيّ مُمعِنا بهاجسِ الاغترابِ، مسكونا بنظرةٍ سَديميّة، نافضاً عنْ نفسِه غبارَ هذا البعدِ المكانيّ والزمانيّ والإنسانيّ، مُعترِفا بلحظةٍ عُنوانُها: " كانَ ما سوفَ يكون"، مُقرّا بألمِ التبدّدِ مع أركانِ ذلكم الثالوثِ، إنّها لحظةُ الموتِ :

والأغاني شرّدتني شرّدتني
ليسَ هذا زمني
لا ليسَ هذا وطني
لا ليسَ هذا بدني
كانَ ما سوفَ يكون
فضحتُه السنبلهْ
ثمّ أهدتُه السنونو
لرياحِ القتله

الرمزيّةُ وتعايشاتُ المعاني

يرى بارت أنّه إذا أرادَ أنْ يدّعيَ معالجةَ الأثر الأدبيِّ في ذاتِه مهتمّا بطريقةِ تشكّله فإنّه سيسكنُه خاطرٌ من استحالةِ فهم الأثرِ الأدبيّ إذا غُيِّبت القراءةُ الرمزيّة□، ولنْ يكونَ بمُكْنةِ القارئ أنْ يقتنصَ " تعايشاتِ المعاني المتعدّدة ". يُحامي بارت عن فكرتِه كثيرا،

□. انظر : المرجع السابق، 45.

ويُسائلُ أولئك الذين يؤمنونَ بالحقوقِ الشموليِّة للفظِ دونَ أنْ يسمحوا بسماعِ أنّ الرمزَ يمكن أنْ تكونَ له حقوقٌ مماثلة، وربّما يكون باعثُها تلك الحريةَ التي أرادها له اللفظ المُنْعَتِق، فالعلاقة اعتباطيّة بين الدالّ والمدلول، فثمّ مدلولٌ ينزلق (Sliding)، ودالّ يعومُ (Floating)، وبمكنةِ الدالّ أنْ يخلعَ عنه رداءَ مدلولِه، فهو في حركةٍ حرّةٍ أذنتْ بوجودِ انشقاقٍ بينه وبينَ مدلولِه، وهذا يُفضي إلى دخولِ عالمٍ مِن المعاني المتعدّدةِ التي لا يُوقَف عليها إلا بالتوهُّم في القراءةِ، و"تلك واقعةٌ عاديّة يمكنُ أنْ نجدَ آلافَ الأمثلةِ عليها في تاريخِ النقدِ، وتنوّعِ القراءاتِ التي يُمكنُ أنْ يُوحيَ بها أثرٌ أدبيٌّ بذاتِه : لكنّها على الأقلّ وقائعُ تشهدُ بأنّ الأثرَ ينطوي على مَعانٍ متعدّدةٍ "[1].

ولكنْ، إذا ما تلبّثَ المرءُ قليلا عند رمزِ بارت في هيئتِه ومعناه فإنّه سيجدُ أنّ ثمّة جِدّةً ولَمْحة مُضافةً في الرمزِ عندَه، فلمْ يعد الرمزُ جماعَ صورٍ متكاثفةٍ في النصّ، بل هو تعدّدُ المعاني، ولا يُعَدّ هذا مَثْلَبا يُرمَى به النصّ أو قارئُه، ولكنّه يُلْمِح إلى استعدادِ الأثر الأدبيّ على الانفتاحِ، ثمّ إنّ كونَ الأثرِ يمتلكُ في وقتٍ واحدٍ معانيَ متعددّةً فذلك باعثُه بنيتُه لا خللٌ في عقولِ مَن يقرؤونه، إنّها الخاصيّة الرمزيّةُ للأثرِ عندَه، ثمّ إنّ الأثرَ لا يخلدُ لكونِه فَرضَ معنى وحيدا على أناسٍ مختلفين، وإنّما لكونِه مُوحِيا بمَعانٍ مختلفةٍ لإنسانٍ واحد يتكلّم دائما ـ كما يرى بارت ـ اللغةَ الرمزيّةَ، فالأثرُ يقترحُ، والإنسانُ يدبّرُ[2]، ويتساءلُ بارت عن رفضِ بعضِ أولئك الذين وقفوا تجاهَ هذه الفكرةِ الرمزيّةِ التي يراها : "ولكنْ لماذا بعدَ كلِّ ذلك هذا الصممُ

[1]. المرجع السابق 54.

[2]. انظر : المرجع السابق، 55، وانظر : إبراهيم السعافين، نظرية الأدب 1 /57.

تجاه الرموزِ وهذه الرمزيّة ؟ وماذا إذن يهدّدُ في الرمزِ ؟ ولماذا يُعـرَّضُ المعنـى المتعـدّدُ الكلام حولَ الكتابِ للخطر ؟ ولماذا مرّة أخرى أيضا اليومَ بالذات "□.

أمّا استشرافُ هذا المَلْحَظِ في القصيدةِ فهو متكاثرٌ؛ إذ هي قصيدةٌ لم تُنْشَأ لتُغنَّى مع الحمائمِ في روضٍ أغنّ،لا ولا لكيْ أهيمَ معها في عشيّاتِ السواقي الحالمـةِ، لا ولا لأرجعَ وقتَ انجلاءِ النجومِ السَّكرى بخمرِ الغـروبِ، قصـيدةُ رثـاءٍ ليسـت كالرثـاءِ، قصيدةٌ أوّلُ ما يسترعي الانتباهَ فيها انفلاتٌ مِن القيودِ المعجميّةِ، وتفجُّرٌ للدلالات على نحوٍ يصبحُ معَه : "دَخّن الكأسَ" مَقام "دخَّن السيجارةَ " أمرا مُتقبَّلا يحتملُ وجوها عديـدةً،ويثيرُ في الـنفسِ استحسـانا مِـن بعـد، و أنْ يكـونَ المرثـيّ" طـويلا كنشـيدٍ ساحليّ"،وأنْ " يَمضيَ كنهاياتِ صلاةٍ "،و "أنْ تخترقَ العصفورةُ رمحًا،لا أنْ يخترقَ الرمحُ العصفورةَ. إخالُ أنّ هذا الذي تقدّم يُفضي بي إلى أنْ أرثيَ العَلاقةَ بـينَ الـدالّ والمدلولِ ثانيةً وثالثةً،ولعلّ هذا الانفلاتَ يعملُ على إقحامِ القارئِ في فضـاءِ جـوّ مِـن تعدّدِ المعاني،وانتفاءِ الوقوفِ على معنى واحدٍ على التعيينِ،ويبقى المُحتَكَمُ هو الإيهامَ دونَ الإحكامِ، فلماذا "الشارعُ الخامسُ" لا السادسُ أو الرابعُ ؟ قد يُؤخَـذ هـذا علـى مَحْمَل الحقيقةِ، وقد يكونُ فيه إلماحةٌ بعيدةٌ إلى أنّه يدلّ على حَضارةٍ الإنسـانُ فيهـا رقمٌ، والذي يزيدُ الأمرَ اعتياصا أنّه حيّاه في الشارعِ الخامسِ الذي ودّعه فيه، فهـلْ ثمّة معنى يتيهُ خلفَ سرابِ هذه الجملةِ، وكأنّي خلتُها قالتْ جميعًا لستُ أدري.

واختَفى في الشارعِ الخامسِ،أو بوّابةِ القُطْبِ الشماليّ
ولا أذكرُ مِن عينيهِ إلا مُدنًا تأتي وتَمضي
تَلاشى... وتَلاشى

□. بارت، النقد والحقيقة، 47.

نعم، لقدْ تَلاشى هذا المرثيُّ،وتلاشى المعنى، فلمْ يعدْ يَسكنني سوى مساءلاتٍ تنتظرُ إجاباتٍ متعددةً،فكيف يكونُ "حَقْلا مِن بطاطا وذُرَة "، ولعلّ في تحطيمِ العَلاقاتِ اللغويّةِ المعجميّةِ التقليديّةِ دَلالةً على ارتباطِه بالأرض، ومِن وجهةٍ تفكيكيّة أخرى، قد تُشعرُ هذه العبارةُ أنّه فقيرٌ مُعْوز، أو أنّه بسيطٌ متواضعٌ، أو أنّ فيها إلماحةً إلى انتمائِه الطبقيّ،أو أنّ هذه المُساءلاتِ تتضافرُ لتشكّلَ لنا معنى مركّبًا مِن كلماتٍ تشعّ بمعانٍ متعدّدةٍ، ثمّ إنّه :

كانَ حقلا مِن بطاطا وذرة

لا يحبُّ المدرسة

ويحبُّ النثرَ والشعر

لعلّ السهلَ نثر

ولعلّ القمحَ شعر

"لا يحبّ المدرسةَ"، ربَّما يكونُ مردّ هذا إلى حقيقةٍ عاشها المرثيّ،وربّما يكونُ فيه إلماحةٌ إلى أنّ المدرسةَ ترمزُ إلى النظامِ والسلطةِ والتقيّدِ، وهو خارجٌ عن هذا كلّه. ليتني ـ وليسَ ينفعُ التمنّي مع هذا الانفلاتِ المعجميِّ ـ أملكُ إجابةً جازمةً تريحُ نفسي مِن عناءِ هذه المُساءلاتِ،وكأنّ النصَّ لمّا يكتملْ بعدُ، بل هو دائمُ التشكُّل والتكوينِ ؛ إذْ إنّ هذا "الانفلاتَ المعجميَّ" و"تعايشاتِ المعاني"، و"الرمزيّةَ"، كلُّ ذلك يأبى إلا أنْ يجعلَني شريكاً مُنتِجا لدِلالةِ النصِّ بعدَ استرفادِ مَلْحَظِ "موتِ المؤلّفِ"،وانتفاءِ المَقْصِديّة"،ويُفضي هذا إلى إثارةِ عددٍ من السُؤالات والدلالاتِ الجماليّةِ.

إنّها قصيدةُ رثاءٍ ليستْ كالرِّثاء،لمْ يُحوِّم فيها حولَ القبرِ،ولمْ يبقَ الشاعرُ أسيرَ الثوابتِ القديمةِ (كالقافية والوزن ...)، فيها عَلاقاتٌ لغويّة غيرُ مألوفةٍ،صورٌ شعريّةٌ

لا تتّفقُ والبلاغةَ القديمة، مُحاوِرَةٌ للفكرِ،فيها جِدّةٌ ولَمْحَة مُضافة على نحوٍ يصبحُ معَه مَلْحَظُ "تعايشات المعاني " أمراً مُتَقَبَّلا ذا نكهةٍ فيها فَرادةٌ،ويوضّحُ بارت هذه الفكرةَ مُشيرا إلى المذكِّراتِ الشخصيّةِ ـ باعتبارِها نوعًا أدبيّا ـ التي دُرِستْ بطريقتين مختلفتين، فسبيلٌ سلكها عالمُ اجتماعٍ،وأخرى سلكها كاتبٌ، وقد كانتْ محصِّلةُ النظرِ في تلك المذكِّراتِ متباينةً□، وهذه واقعةٌ ليس فيها غَرابةٌ؛ إذْ إنّها واقعةٌ لها أمثالُها في تاريخِ النقدِ وفي تنوّعِ القراءاتِ التي يُمْكِن أنْ يُوحيَ بها أثرٌ أدبيّ، ولكنّها وقائعُ تُعيدُنا ثانيةً إلى الشهادةِ بأنّ الأثرَ الأدبيَّ ينطوي على مَعانٍ متعدّدةٍ□، فلا يُوقَف عليها إلا بالتوّهم ورميِ النظرِ في تكهُّنٍ وتَخَطُّف.

القصيدةُ بين عشقِ النصّ وموتِ المؤلّفِ

يُعَدّ بارت من أبرزِ النقادِ الذين التفتوا إلى دورِ القارئِ بكثيرٍ مِن بسطِ القولِ في هذا المَطْلَب، وعندما يُتَحَدّثُ عن القارئِ ودورِه في قراءةِ الآثارِ الأدبيّةِ أجدُ نفسي متردّدا بينَ قطبينِ اثنينِ :عشقِ النصّ وموتِ المؤلّفِ،وبينَ ذَيْنِكَ القُطبين إشارةٌ عائمةٌ ومعنى منزلقٌ، والحاصلُ أنّ القولَ" بتشظّي اللغة"،و"الإشارةِ العائمة"، و"المعنى المنزلِقِ "،أصبح باعثًا على أنْ يَقرأَ القارئُ النصَّ على وَفْق ثقافته وهواه، ولذلك تُحُدِّث عن عشقِ النصّ،وكأنّه المعشوقُ الذي لا يُدانيه أحدٌ سوى عاشقِه، ولم يكتفِ بارت بهذا الحدّ،بل إنّه تعدّى ذلك مشيرًا إلى عشقِ النصّ له، فقدْ صارَ النصّ" الحجابَ " الذي يَشتهيه، وفي ذلك يقولُ: "إنّ النصّ حجابٌ، وهذا الحجابُ يشتهيني، بلْ إنّه يختارُني معتمدًا على ترتيبٍ لشاشاتٍ غيرِ مرئيّة،

□. انظر : المرجع السابق،54.

□. انظر : المرجع السابق، 54.

وعلى انتقاءِ إرباكاتٍ معيّنة تتّصلُ بالمفرداتِ والمراجعِ والقراءة،...، لقد ماتَ المؤلّف الذي هو مؤسِّس، لقد اختفى وضعُه المدنيّ، وسيرتُه الشخصيّة قد توارتْ أيضا..." . وبعدَ موتِ المؤلّف وولادةِ الأثرِ، يأتي دورُ القارئ، ولكنْ، تجدرُ الإشارةُ إلى أنّ القراءةَ- مِن وجهة نظرٍ تفكيكيّةٍ - تعشقُ الأثرَ الأدبيّ كذلك، بلْ إنّها تتجاوزُ هذا لتقيمَ معَه عَلاقةَ شهوةٍ ، وبذلك يصبحُ ثمَّ مصطلحٌ مرادفٌ للقراءةِ، فأنْ نقرأَ معناه أنْ نشتهيَ الأثر ؛ إذ إنّه " لا أحدَ يعرفُ شيئا عن المعنى الذي تمنحُه القراءةُ للأثرِ الأدبيّ، ولا عن المدلولِ، وذلك ربّما لأنّ هذا المعنى - اعتبارا لكونِه شهوةً - ينتصبُ فيما وراءَ سنن اللغةِ. القراءةُ وحدَها تعشقُ الأثرَ الأدبيّ، وتقيمُ معَه عَلاقةَ شهوةٍ، فأنْ نقرأَ معناه أنْ نشتهيَ الأثرَ، ونرغبَ في أنْ نكوِّنَه، وأنْ نرفضَ مضاعفتَه بمعزلٍ عن كلّ كلامٍ آخرَ غيرِ كلامِه هو ذاته " .

وبعدُ، هل مِن تعليل لاقتناصِ بارت هذا المَلْحَظَ النقديّ ؟ أرى أنّ الفكرةَ النقديّةَ "عشقَ النصّ وموتَ المؤلف "باعثُها القولُ باعتباطيّةٍ بين الدالِّ والمدلولِ، ليس هذا فحسب، بلْ إنّ الباعثَ الرئيسَ هو حركةُ الدالّ في فضاءٍ لا يُحَدّ، فلمْ يَعُدْ هناك معجمٌ تقليديّ في القراءةِ التفكيكيّةِ، لذا فإنّ قراءةَ قارئٍ ما ستتباينُ عن قراءةِ آخرَ؛ إذ إنّ الإشارةَ - كما تقدّم قَبْلا - عائمةٌ، والمعنى منزلقٌ لا يُوقَف عليه إلا بالتوهُّم، وكلّ قارئٍ يتعاملُ والأثرَ الأدبيّ معتمدا لا على الأثرِ الأدبيّ، وإنّما على قولِه الخاصّ

. R. Baland, The Pleasure of The Text, Translated By Richard Miller, Jonathan Cape, London, 1976, p. 27.

. انظر : بارت، النقد والحقيقة 86.

. المرجع السابق، 86.

به، وهو، في هذا كلِّه، يَفيءُ إلى هوى نفسِه في ذلك التعاملِ متجافيا عن "مَقْصِديّة المؤلّفِ" ؛ إذ لا وجودَ له في ذلك المقام البتةَ، ولذا تتولّدُ حميميّةٌ "عشقٌ "بينَ القارئِ والنصِّ في ثِنْيِ القراءةِ، فالنصُّ ملكُه ـ كما تقدّم قبلاـ وهو الذي يُدخله في ثقافتِه، ويتناولُه متّكئا على هوى نفسِه، وممّا إخالُه يسندُ هذا أنّ ديريدا نفسَه لا يُقيم وزنًا لنيّة المؤلّفِ، بلْ إنّ المعوَّلَ عليه في القراءةِ التفكيكيّةِ هو النصُّ نفسُه، وفي هذا يقول "جوناثان كولر" عارضًا رأيَ ديريدا، بعدَ أنْ أشارَ إلى أنّ بعضَ النقادِ يُعوّلون على نيّةِ المؤلّفِ، بل إنّهم يتبصّرون بها مُستعينين قارئين: "بالنسبةِ لديريدا فالأمرُ بخلاف ذلك، فالنيّةُ ربّما تُلاحظُ باعتبارِها نتاجًا نصيّا مُعيّنا أو أثراً، وهي تُميَّز بالقراءةِ النقديّةِ، ولكنّها دائما مُتجاوَزَةٌ بالنصّ. إنّ النيّة ـ كما أشير في القسم الثاني مِن هذا الجزء ـ ليستْ شيئا سابقا للنصِّ أو مقرِّرا لمعناه"، ولذا فليس يصحّ في الفهمِ ولا يستقيمُ في مقاربةِ هذه القصيدةِ أنْ يَسأل القارئُ نفسَه ماذا أرادَ أنْ يقولَ المؤلّفُ، أو إلى أيّ مَقْصِدٍ رمى ؛ ذلك أنّ المقصديّةَ منتفيةٌ مِن جهةٍ، ومِن جهةٍ أخرى، أُعلنَ عن تغييبِ المؤلِّف بل موتِه.

التّناصّ

. انظر : المرجع السابق، 76.

. إن القول بعشق النص، وانتفاء المقصدية من وجهة نظر تفكيكية، وموت المؤلف، كل هذه الملاحظ التفكيكية باعثها إسقاط "المركزية" و تضخيم الذات، إنها نوع من الإيمان بسلطة القارئ لا سلطة النص..

. Culler ,On Deconstruction ,218.

في مَطْلَب الحديثِ عن التناصّ تجدرُ الإشارةُ إلى أنّ هذا المفهومَ يُؤذنُ بالدخولِ إلى عالم النصّ مِن بوّابةٍ عريضةٍ، أو لأقلْ : يُمكِّنُ القارئَ مِن النظرِ إلى النصّ مِن عَلٍ ليستكشفَ أغوارَ هذه التجربةِ المتّصلةِ بغيرِها، ومِن أشهرِ الأعلامِ التفكيكيينَ الذين وقفوا على هذا المَطلبِ "جوليا كريستيفا "؛ إذ إنّها ترى أنّ فكرةَ التناصِّ ترشِّح لوجودِ آثارٍ أخرى،ويصلُ الأمرُ بكريستيفا إلى أنْ تنظرَ إلى النصِّ مِن زاويةِ أنّه لوحةٌ فسيفسائيةٌ مِن الاقتباساتِ،وأنّه امتصاصٌ وتحويلٌ من نصوصٍ أخرى سابقة[□]، إنّ المدلولَ الشعريّ ـ كما ترى كريستيفا ـ يُحيلُ إلى مدلولاتٍ خطابيّةٍ متغايرة،ممّا يُؤذِن بقراءةِ خطاباتٍ عديدةٍ داخلَ القولِ الشعريّ[□]، وهكذا " يتمّ خلقُ فضاءٍ نصيٍّ متعددٍ حولَ المدلولِ الشعريّ تكون عناصرُه قابلةً للتطبيق في النصِّ الشعريّ الملموسِ.هذا الفضاءُ سنسمِّيه فضاءً متداخلا نصيّا "[□].

وقد قدّمتْ كريستيفا أشعارا ل "لوترياموِن " باعتبارِها– كما ترى– مثالاً على هذا الفضاءِ النصيّ المتداخِلِ،وقد استطاعتْ أنْ تميِّزَ بينَ ثلاثةِ أنماطٍ من الترابطاتِ بينَ المقاطعِ الشعريّةِ والنصوصِ الملموسةِ القريبةِ مِن صيغتِها لشعراءَ سابقين[□]، ولمّا

[□]. J. Culler, Structaralist Poetics,Routledge and Kegan paul, London, 1975, p. 139.

[□]. انظر : جوليا كريستيفا،علم النص،ترجمة فريد الزاهي، دار توبقال، الدار البيضاء، 1991م، 78.

[□]. المرجع السابق، 78، وقد عقد "تودوروف" بابا يتحدث فيه عن التناص، وهو يؤمن بأنه لا توجد لغة خاصة ؛ إذ إن الكلمات يمتلكها كل شخص، انظر :

T. Todorov, Symbolism and Interpretation, tran. By Catherine, Porter, Routledge and Kegan Paul, London, 1983, p. 64.

[□]. انظر : كريستيفا،علم النص، 78–79.

حوورَتْ كريستيفا في هذا الفكرِ المتقدِّمِ في النظرِ إلى النصوصِ أشارتْ إلى أنّ معادلةَ النصوصِ قد غُيِّبَتْ، وانبرى طيفُها، وقد تجلّى مكانُها "مقارنةُ النصوصِ" و"التقاطُ القواسمِ والفوارق" بينها، فالناسُ - كما ترى- يبحثون في الأدبِ عن الأنباءِ والاستعلامِ أو ما يزعمون أنّه انعكاسٌ للحقيقةِ أو الانفعالاتِ التي تسفرُ عنها،إنّها ترفضُ ما تقدّم بكلّيتِه، وترى أنّ النصّ يؤكّد قيمتَه في كثافتِه وليس في الوظيفةِ التي تؤدِّيها بالنسبةِ إلى ما ليس هو النصّ[1]، إنّها تريدُ أنْ تصلَ إلى فهم متعمِّقٍ في سبرِ غَورِ هذا الأثر، إلى" استكشافِ الكهوفِ البلوريّةِ في النصّ حيث يتداخلُ ما يهبطُ مِن السقفِ مع ما ينبتُ مِن الأرضِ"[2]. أمّا ديريدا فقد ذهبَ المذهبَ نفسَه؛ إذ إنّه يقولُ بانتفاءِ وجودِ حدودٍ أو فواصلَ بين نصٍّ وآخرَ، ويجلّي فكرتَه متّكئا على مبدإ الاقتباسِ، ومن ثَمّ "تداخلُ النصوصِ "، وهو يرى أنّ كلّ نصٍّ أو أيّ جزءٍ منه لهو دائمُ التوثّبِ مِن سياقٍ إلى آخرَ ؛ إذ إنّ كلّ نصٍّ هو خلاصة تأليفٍ مِن الكلماتِ، والكلماتُ هذه سابقةٌ للنصّ في وجودِها،كما أنّها قابلةٌ للانتقالِ، وهي بهذا تحملُ معها تاريخَها القديمَ والمكتسَب[3]، وحينما وردتْ هذه الفكرةُ على تودوروف أشارَ إلى أنّ حضورَ هذا المبدأ العالميّ الشاملِ في الآثارِ الأدبيّةِ ناموسٌ نافذٌ له مكانتُه، ولكنّه لا يُلقي قولَه هذا على عَواهنِه، بلْ يقيّدُه حتّى يغدوَ التناصّ سائرا في فضاءٍ ذي حدودٍ، أي أنّه لا

---

[1]. انظر : سيمولوجيا الرعب و الابتذال في الكتابة الجديدة، حوار أجراه فؤاد أبو منصور مع جوليا كريستيفا، مجلة الفكر العربي المعاصر، بيروت، ع 18-19 –1989م، 125.

[2]. المرجع السابق، 125.

[3]. انظر : عبد الله الغذامي، الخطيئة والتكفير، النادي الأدبي الثقافي،ط1، الطائف، 1985م، 55.

يُؤمن به على إطلاقِه، وهذا رأيٌ حصيفٌ ؛ إذ إنّ ثمّة بَونا شاسعا بين تناصٍّ مفتَعلٍ قائم على سرقة،أو ليس له لُحْمَة بغيرِه، وتناصٍّ فنيّ قائمٍ على خلقٍ وإبداعٍ. يقول :"وهذا المبدأ العالميُّ الشاملُ من تجلّي التناصّ في الأثرِ الأدبيِّ يجبُ أنْ يُعدَّلَ أو يُقنَّنَ وأن يُدرَكَ بمبادئَ مناسبةٍ تُعيننا على تمييزِ الحالاتِ التي يكونُ فيها التناصُّ وثيقَ الصلةِ بالنصوصِ الأخرى أو يكونُ متجافيا عن ذلك..."[1]، ومِن تجلّياتِ التناصّ في القصيدة

ابنُ فلاحينَ من ضلعِ فلسطين

ثَمّ تناصٌّ "تقاطع" في قولِه :ابن فلاحين مِن ضلع فلسطينَ ؛ ذلك أنّ الموروثَ الدينيّ يقول إنّ حواءَ قد خُلِقتْ مِن ضلع آدمَ[2]، وهذا النصُّ يتقاطعُ مع المتقدِّم، وإذا كانَ ذلك كذلك، فالظاهرُ من المتقدِّم إلماحةٌ إلى تعالقِه بالأرض، وإلى أنّه جزءٌ منها لا ينفصمُ ؛ فكأنّها أمّه التي خرجَ مِن بينِ أحشائِها.

وكذلك قولُه :

أريدُ الصفةَ الأولى لأعضائي

أشتهي أن أشتهي

إخالُ أنّ هذا يتقاطعُ مع قولِ المتنبّي :

---

[1]. Todorov, Symbolism and Interpretation, 65.

[2]. وهذا ما يذهب إليه أهل التفسير في قوله – تعالى- :"وخلق منها زوجها"، أي حواء من ضلع آدم. انظر : القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996م، 3/5.

وَشَـكِـيَّـتـي فَـقْـدُ الـسَّـقـام لأنّــه قـــــدْ كــــانَ لَمّـــا كــــانَ لــــي أعــضــاءُ[1]

فالشكيّة أنّه لم يعدْ يسقمُ ؛ لأنّه فَقَد أماكنَ السقمِ ؛ فَقَد أعضاءَه، ولذلك يريـدُ الصفةَ الأولى لأعضائِه.

ومِن مثلِ ما تقدّم :

منذ عشرين سنة

وأنا أعرفه في الأربعين

لقد ثُبِّتَ المرثيّ في الزمانِ، فقد بقيَ في الأربعين منذ عشرين سـنةً، ولعلّهـا — أعني الأربعين – تُوحي باكتمالِ العقلِ وبلوغِ الرُّشد الذي يبلغُه الأنبياء،وهنـا مَكْمـن التناصّ، ومن وجهةِ نظرٍ تفكيكيّةٍ أخرى،قد يكونُ رقما طائشًـا لا قِبَـلَ لنـا بتعليلِـه واقتناصِ مطلوبِه، بل قدْ يكونُ المَقصِد هنا مِن هذه العبارةِ أنّه لم يغيّرْ مواقفَـه، فقـد بقي ثابتا حتّـى في نضـارةِ الشـبابِ والحيويّـة، حمّـالا لرسـالةِ الـوطنِ منـذ عشـرين سنةً،كلُّ هذا المتقدّمِ قائمٌ علـى استشـرافِ مَلحَـظِ "التنـاصّ" و"تعايشـاتِ المعـاني"، و"الإرجاءِ"، و"انزلاقِ المعنى"، ويبقى المعنى كامنـا في مُسـاءلةٍ عِمادُهـا الإيهـامُ دون الإحكامِ،والذي يركنُ إليه الخاطرُ مِن هذا الدالِّ العائمِ والمدلولِ المنزلقِ هو أنّ المرثـيّ

---

[1]. انظر : المتنبي، ديوانه، شرح أبي البقـاء العكـبري، تحقيـق مصـطفى السـقا وآخـرين، دار المعرفة، بيروت، 1978، 14/1.

ثُبِّتَ في الزمانِ مِن أجلِ التحريكِ،ولكنْ في أيّ اتجاهٍ ؟! ليتني أقفُ على المعنى المركوز فيه فأدريَ .

ولكنْ،هل مِن محاولةٍ لتفسيرٍ يوضّحُ، أو يكادُ، انتفاءَ الحدودِ بين النصوصِ من وجهة نظرٍ تفكيكيّة ؟. تقدّم قَبْلا أنّ التفكيكيّةَ هي ردّةُ فعلٍ إزاءَ التمركزِ الغربيّ حولَ الذات، ولذلك تولّى التفكيكيّون نقدَ هذا المفهومِ المعرفيّ الذي يتمركزُ حولَ الذاتِ مُقْصِيا الآخرَ ،مؤمنا بسلطةِ النصّ المُطلَقة،ولعلّ هذه الفكرةَ ؛ فكرةَ التناصّ تعملُ على نقضِ هذا التمركزِ عندَ الإيمانِ بأنّ النصّ ليس مستقلّا أو قائما برأسِه.إنّ فكرةَ التناصّ نوعٌ مِن أنواعِ نقضِ فكرةِ ملكيّةِ النصّ، ولذلك" جاء مفهومُ التناصّ ليحلَّ محلّ مفهومِ الذاتيّة" .

تحوّطٌ واحتراسٌ

والحقّ أنّه يتعذّر عليّ أن أستقصيَ جميعَ جوانبِ المنهج التفكيكيِّ ماضيا مع جميعِ أعلامِه وآرائهم وتفصيلاتِهم الجزئيةِ في هذه الورقةِ ؛ إذ إنّ لكلّ ناقدٍ منهم

. وهكذا لم يعد النقد ترجمة أو تفسيرا،وليس بمكنة القارئ أن يدعي أنه اقتنص في قراءته عمق الأثر الأدبي، " فالعمل الأدبي وقد دخل في الطبيعة الرمزية للكلام هو غموض، جوهريا : إنه جاهزية تظل مفتوحة خارج كل جواب خضوعي. من هنا يصبح لغزا وسؤالا مطروحا على العالم..." انظر : دابل لاند، مغامرة الدال، 87.

. وقد أشار مترجم كتاب "العمى والبصيرة إلى هذا الملحظ قائلا : "كان التفكيك، وهو النتاج الطبيعي لنمو الثقافة الغربية، نقدا معرفيا لأيديولوجية التمركز الغربي حول الذات، وسبرا لغور إستراتيجيات المعرفية التي تؤدي الى هذا التمركز وإقصاء الآخر". انظر النص : بول دي مان, العمى والبصيرة في بلاغة النقد المعاصر، ترجمة سعيد الغانمي منشورات المجمع الثقافي، الإمارات العربية المتحدة، 1995م, 4.

. انظر : Culler ,Structuralist Poetics ,139.

تميّزا وسبيلا تكادُ تقترن باسمِه، ولا يعني هذا الـذي تقـدّمَ أنّ ثمّـة منـاهجَ يشـملُها المـنهجُ التفكيكيّ،ولكنّـه يرمـي إلى الإشـارةِ إلى أنّ ثمّـة نقّـادا متعـدّدين في المـنهجِ التفكيكيِّ يلتفّونَ حولَ معـالمَ رئيسـةٍ فيـه،"كانتفـاءِ المَقْصِـديّة"، "ومـوتِ المؤلّـف"، ويختصّ بعضُهم أو يتميّزُ بمَعْلَمٍ يكادُ يقترنُ باسمِه ؛ وذلك نحو "التنـاصّ " وشـهرةِ كريستيفا وإفاضتِها في هذا المَلْحَـظِ النقـديّ، وتـودوروف وتعريجِـه علـى " الإسـقاطِ" و"التعليقِ" و"الشِّعريّة"[1].

وبعدُ،فهذه تَطوافةٌ في فضاءِ المنهجِ التفكيكيِّ مع بعضِ أعلامِـه، ولمْ يفـتني أنّ هذا المنهجَ إنّما هو حلقةٌ في سلسلةِ النقد الغربيِّ، ولـيس حسـناً أنْ يتناولَـه الـدارسُ بمنأى عن منطلقاتِه وخلفيّاتِه ؛ إذ إنّه منبثقٌ من حضارة غربيّـةٍ، ومِـن حركـةٍ تبـدأ بفصلِ النصّ عن حركةِ التاريخِ والعوالمِ الخارجيّةِ، فتعملُ على إماتـةِ الإنسـانِ، ثـمّ تعودُ ثانيةً " لتميتَ المؤلّفَ، ثمّ النصّ ليتشظّى وليكونَ على قـدرٍ مـع هاويـةِ العـدمِ

---

[1]. يرى تودوروف أن مقاربة النص تتحقق بغير سبيل، وقد أشار شولز إلى أن تودوروف تصـدى لشتى المقاربات الممكنة في دراسة الأدب في مقالته" كيف نقرأ، وفتحها بـثلاث مقاربـات رئيسـة سماها الإسقاط والتعليق والشعرية.أما الإسقاط فهي طريقة في القراءة عبر النصوص الأدبية باتجـاه المؤلف أو المجتمع أو شيء آخر يهم الناقد، وهذا ينطبق على النقد الماركسـي،والنقد الفرويـدي، والتعليق مكمل للإسقاط، وإذا كان الإسقاط هدفه السعي عـبر الـنص وخلفـه فـإن التعليـق هدفـه المثول داخل النص والمكث فيه، وينطبق هذا انطباقا مبينـا علـى مـا يـدعى أنـه تفسـير أو قـراءة ممحصة مدققة. أما المقاربة الثالثة فهي "الشعرية" الباحثـة عـن المبـادئ العامـة الـتي تتجلـى في الأعمال الخاصة، وهي ـ فيما يرى تودوروف ـ يجب أن تقود إلى نتائج تكمل أو تعدل الفرضيات الأدبية للدراسة، انظر : شولز، البنيوية، 163، السعافين، نظرية الأدب، 19.

"□ ، وأمامَ هذا الذي تقدّم، فليس مِن صفة الناقدِ المتثبّتِ أنْ يـزعمَ أنّـه تـابعٌ لـمنهجٍ ما،وأنّه ارتضى منهجًا واحدا يصلحُ مَدخلا ليتأسّسَ عليه قراءةُ كلّ نصٍّ يعرضُ له، ولا يخفى على ذي تأمُّلٍ أنّ هـذا ضـربٌ مـن الشـططِ والتكلّـفِ وتحميـلِ كـثيرٍ مـن النصوصِ غيرَ الذي تحتملُ،إنّها سبيلٌ لا يُترَك فيها فُسْحةٌ للنصّ حتّى يتحدثَ عن نفسِـه، وسيصـبحُ،آنَ هـذا، الناقـدُ هـو المركـزَ والمُحْـتَكمَ في عمليّـة القـراءةِ لا النصّ،والسبيلُ المُثلى في القراءةِ هي اقتناصُ مِفتاح النصّ، وهذا لا يكونُ إلا إذا قـرأ القارئُ النصَّ مرّةً بعدَ مرّة ليعيدَه على صاغي سمعِـه وفكـرِه، مُقتنِصا المـنهجَ الـذي سيرشدُه إليه النصُّ نفسُه ؛ إذ إنّه المحتكمُ وبه الدليلُ. ولكنْ لـيس ثمّـة ضـيرٌ مـن اطلاعٍ يستغرقُ،أو يكادُ، هذه المناهجَ النقديّةَ الغربيّة، مع انتفاءِ التجافي عن بواعثِها ومنطلقاتِها ووشائجِها في الذي بينَها،واعتبارِها جزءا مِـن امتـدادٍ فلسـفيّ ومعـرفيّ في سكّة الحضارةِ الغربيّةِ التي ما زلنا نقفُ في نهاياتِها مُستهلِكين. أمّا تجربتي في هذه الورقةِ مع نصٍّ لمحمود درويش فقد أحسستُ في قوابلِها بعبءٍ يجثم على الصدرِ ؛إذ إنّ الشاعرَ صاحبُ رسالةٍ، والقولُ بانعدامِها، أو "بعبثيّةِ اللغةِ " أو "بانتفـاءِ المعنـى "و" الشكِّ في جدوى الأشياء " مَطْلَبٌ قد يتعذّرُ تأسيسُه في ظلّ وضعٍ تاريخيّ حرجٍ، فهل يحقّ للقارئِ أنْ يصفَ (كانَ ما سوفَ يكون) أو (أزهارُ الدم) أو (فرسٌ للغريب) بأنّها عبثيّةٌ جديدةٌ إلا إذا كانَ هذا مِن بابِ المُعاياةِ أو المماحكةِ،وهذا ممّـا لا يكـونُ في البحثِ ولا في شبهِه □ ،والحقّ أنّ الـذي يسـترعي الخـواطرَ في نـصّ درويـش هـو "تعدّد المعاني"، و"التناصّ "، و"انفلاتُ الدالّ مِن قيدِ المدلولِ" ؛ إذ إنّ الشاعرَ يتميّز

□. انظر : السعافين، نظرية الأدب، 29.

□. للتبصر في نقد المنهج التفكيكي انظر: حمودة، المرايا المحدبة، 396-404.

بأنّه يقيمُ عَلاقاتٍ دِلاليّةً غيرَ مأنوسةٍ، وهو يقصدُ هذا البابَ قصدَ الأديبِ المجرِّبِ المتثبِّتِ،ومعَ هذا الانفلاتِ مِن القيودِ المعجميّةِ يصبحُ أمرُ تعدّد المعاني مُتَقَبَّلا ممكنًا، ولكنّه ليس مُلقَى على عَواهنِه، أو مُجْتزَأ مِن منظومتِه اللغويّةِ الكليّةِ في النصّ، صحيحٌ أنّ بِمُكْنَة القارئِ أنْ يضربَ صَفْحَا عن المَقْصِديّةِ، وأنْ يعيَ هذا الانحرافَ اللغويّ المتمثِّلَ في الانفلاتِ من القيودِ المعجميّةِ، ولكنّ هذا الذي تقدّمَ محكومٌ بالنصّ نفسِه وبإيحاءاتِه على وَفْقِ نظرةٍ شاملةٍ للنصّ، فليس ينبغي أنْ يُمليَ القارئُ موقفَه القَبْليّ، أو هوى نفسِه السائرَ كيفما اتفقّ، أو مَلْمَحا قرائيّا غيرَ مُستندٍ إلى النصّ وعلائقِه .

المصادر والمراجع

1. إبراهيم السعافين، نظرية الأدب و مغامرة التجريب،دار الشرق العربية، القدس، 1993م.

2. بول دي مان، العمى والبصيرة، مقالات في بلاغة النقد المعاصر،ترجمة سعيد الغانمي،ط1، منشورات المجمع الثقافي،الإمارات، 1995م.

3. تزفيتان تودوروف، الأدب والاستيهامي، ترجمة الصديق بوعلام، مجلة الكرمل، قبرص ع17، 1985م.

4. جاك ديريدا، الاختلاف المرجأ، ترجمة هدى شكري عياد، فصول، القاهرة، مج6،ع3 – 1986م.

5. جاك ديريدا،حوار أجراه كريستان ديكان، مجلة الفكر العربي المعاصر، بيروت، ع 18-19، 1989م.

6. جاك ديريدا، الاستنطاق والتفكيك، مقابلة أجراها كاظم جهاد، مجلة الكرمل، قبرص، 1985م.

7. جوليا كريستيفيا، علم النص،ترجمة فريد الزاهي، دار توبقال، الدار البيضاء، 1991م.

8. جوليا كريستيفا، سيمولوجيا الرعب و الابتذال في الكتابة الجديدة، حوار أجراه فؤاد أبو منصور مع جوليا كريستيفا، مجلة الفكر العربي المعاصر، بيروت، ع 18-19،1989م.

9. روبرت شولز، البنيوية في الأدب، ترجمة حنا عبود، اتحاد الكتاب العربي، القاهرة، 1984م.

10. رولان بارت، الكتابة في درجة الصفر،ترجمة نعيم الحمصي،وزارة الثقافة، دمشق، 1970م.

11. رولان بارت، النقد والحقيقة، ترجمة إبراهيم الخطيب، الشركة المغربية للناشرين، الدار البيضاء، 1985م.

12. ستيفن دابل لاند، قراءة لرولان بارت، مغامرة الدال، ترجمة أحمد المديني، مجلة الفكر العربي المعاصر، بيروت ع18-1989م.

13. شكري عياد، موقف من البنيوية، فصول، القاهرة، م1، ع2، 1981م.

عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك، عالم المعرفة، الكويت، ع232-1998م.

14. عز الدين إسماعيل، جدلية الإبداع والموقف النقدي، فصول، القاهرة، م10، ع1-1991،2م.

15. الغذامي، عبد الله، الخطيئة و التكفير، النادي الأدبي الثقافي، ط1، الطائف، 1985م.

16. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996م.

17. كريستوفر نورس، التفكيكية: النظرية والتطبيق، ترجمة رعد عبد الجليل جواد، دار الشؤون الثقافية، الثقافة الأجنبية، بغداد، ع4-1989م.

18. المتنبي، ديوانه، شرح أبي البقاء العكبري، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، دار المعرفة، بيروت، 1978.

19. محمود درويش، ديوانه" الأعمال الكاملة"، ط13، دار العودة، بيروت، 1989م.

20. وليم راي، المعنى الأدبي من الظاهراتية إلى التفكيكية، ترجمة يوئيـل عزيـز، دار المأمون، بغداد، 1987م.

21. R. Barthes, The Pleasure of The Text, tran. By Richard Miller, Jonathan Cape, London, 1976.

22. R. Barthes, S/Z, tran. By Richard Miller, Hillannd and Wang , New York, 1974.

23. J. Culler, Structuralist Poetics, Routledge and Kegan Paul, London, 1975.

24. J. Culler, On Deconstruction, Theory and Criticism After Struturalism, Routledge and Kegan Paul, London, 1983.

25. T. Todorov, Symbolism and Interpretation, tran. By Cathrine Porter, Routledge and Kegan Paul, London, 1983.

26. J. Ellis, Against Deconstruction,University of Princeton, Princeton, 1989.

بنية النص الإشهاري

(Structure de Texte Publicitaire)

د. مُحَّد عيلان
أستاذ بجامعة عنابة

لم يعد الإشهار في عالمنا اليوم مناداة في سوق معينة لبضاعة ما، أو هو الأخبـار والمعلومات الشفوية تُتَداول عبر أماكن محدودة كالسوق الأسبوعي أوالقريـة أو أمـاكن

التجمع اليومي كالمساجد والمقاهي والحارات.. ترويجا لسلعة متراكمة مخزنة، أو دعوة لرأي سياسي أو اجتماعي يهم وحدة اجتماعية ما، ويقوم بها أشخاص يملكون القدرة الصوتية على الترويج.

فالإشهار اليوم يوظف لغات وثقافات وإمكانات علمية وتكنولوجية ومالية هائلة لتوزيع تراكمات ومخزنات سلعية تغطي مساحة اجتماعية واسعة عبر أمكنة مختلفة من العالم، وفقا لتقنيات النص اللغوية والجمالية، وتقنيات الصورة والصوت واللون والحركة، وهو في كل ذلك يتجاوز حدود التجارة والاقتصاد إلى التأثير في الثقافة والأنظمة السياسية، وتغيير نمط العيش وأساليبه لمجتمعات قريبة وبعيدة متباينة المشارب والمواقع، بوساطة تقنيات اتصالية جيدة متطورة. ولذلك فلا عجب من أن أصبح الإشهار مجالا للاستثمارات العالمية الضخمة، ووسيلة من وسائل التوجهات العالمية على مستويات عديدة، انطلاقا من التكتلات الاقتصادية (Cartels) أو الإقليمية الجديدة إلى اتفاقية الجات (Gatt)، إلى إعادة النظر في خريطة العالم السياسية والاجتماعية والجغرافية..

ومن هنا كان على النص الإشهاري (Texte Publicitaire) أن يواكب هذه التحولات، فيحتويها ويعبر عنها بدقة وشمولية واضحين، بحكم تنوع الجماهير المتلقية للخطاب الإشهاري وكثافتها، وبحكم العلاقة القائمة بين الوسائل والأدوات التكنولوجية وبين النص الإشهاري، ذلك أن التقنيات وحدها قد لا تستطيع أن تبلغ الخطاب كاملا مالم تكن الكلمة مصاحبة لها، مكتوبة أو مسموعة أو متضمنة يوحي بها الخطاب الصوتي أو المرئي...

وقد ارتأينا أن نقدم للقارئ صورة عن النص الإشهاري وأشكاله و بنيته اللغوية ومظاهره الأسلوبية، وشروط إنتاجه وعلاقته بالفنون المرئية والسمعية والمقروءة. و لا

نريد أن ندرس الإشهار وآثاره الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، بقدر ما نريد أن ندرس النص الإشهاري كغيره من نصوص الأدب له خصائصه وله شروطه مما هو من اختصاص أقسام اللغة العربية وآدابها دون غيرها□. لأن النص الإشهاري ينتجه في الواقع اليومي غير المتخصصين في اللغة والأدب.

وقد اجتهدت في أن أضع بعض الأسس النظرية الهادية إلى التعريف بالنص الإشهاري في مجموعة من المقالات تكوِّن معارف أولية متكاملة، وأولها هذا المقال الذي ستليه مجموعة من المقالات تنشر لاحقا عبر هذه المجلة، تتعلق بتطبيقات ميدانية تدرِّب على إنتاج النص الإشهاري أو الدعائي (Texte de Propagande) في أي موضوع من الموضوعات مما يقتضي الإشهار والدعاية.

ما هو النص الإشهاري ؟

إنه تركيب لغوي يتحدد وفقا لمعايير اللغة التي ينتج بها، وهو تركيب جمالي لا يكتمل رسالة إلا بمساعدة فنون أخرى تلابسه لترتسم جماليات الخطاب. وهو أشكال متعددة متباينة متغيرة، كما أنه من حيث بنيته أقرب إلى بنية النص الشفوي الذي يتم بناؤه وفقا للهجة المتداولة غير المدونة التي تتجاوب مع متغيرات الأحداث

□. كان قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة عنابة بالجزائر سباقا إلى إدراج مادة "النص الإشهاري" في برامج طلبة السنة الأولى ماجستير للعام الجامعي 1999/1998.. دون غيره من أقسام اللغة العربية وآدابها في الجامعات الجزائرية، و كان لي شرف تدريس هذه المادة أول مرة على مستوى هذا الاختصاص بعنوان (تحليل الخطاب الإشهاري) وعانيت معاناة شديدة في لم شمل المادة لأن المراجع المتوفرة عن الإشهار نادرا ما تتناول النص الإشهاري من حيث كونه نصا لغويا وأدبيا جماليا، يخضع في بنائه وتركيبه إلى تقنيات أسلوبية دقيقة، وإنما تتناول الإشهار في أهدافه ومناهجه وتقنياته، وقلما كان لها إشارة إلى ذلك.

اليومية والتطورات السريعة التي يعيشها اللاهجون بتلك اللهجة. ويمكن القول من زاوية أخرى: إنه النص اللغوي الذي قوامه الكلمة واللون والصورة والحركة والإيقاع، وهي عناصر تتضافر وتلتقي كلها أو بعضها لتكوِّن لغة أخرى تلغي الحاجز اللغوي والجغرافي والعرقي والثقافي والاجتماعي في كثير من الأحيان بين أمم وشعوب متباينة..، وبذلك تتحول لغة الإشهار بمكوناتها إلى وسيلة تقارب أممية مهمة تعد أحد أهداف العولمة (Mondialisation) التي شملت العالم منذ أرسطو الفيلسوف اليوناني...

إن النص الإشهاري رسالة (ذات محتوى يهم الجماهير في المكان والزمان)، تتميز بالجدة والطرافة والتفرد بالإعلان عن الجديد والسبق المرغوب، وتتوسل بالكلمة وإيحاءاتها للتعبير عن ذلك المحتوى، قصد الوصول إلى مشاعر المتلقي ودغدغة عواطفه واستدرار سخائه. ولكن ما موقع النص الإشهاري من أشكال الخطاب في الأدب العربي ؟ هل نعتبره شكلا مستقلا فنقول بأن النص الإشهاري شكل قائم بذاته وبأنه أحد أشكال الخطاب في الأدب العربي، لما له من خصائص ومميزات وسمات تسمه وتخصه ؟ وهل أسسنا لذلك في تنظيرنا للأدب العربي ؟

الواقع أننا ـ حسب علمي ـ مازلنا لم ننتبه إلى هذه الظاهرة الجديدة في الأدب العربي، غير أن ذلك لايمنعني من القول بأنه يمكن أن يدرج مع غيره من النصوص كنصوص أدب الطفل ضمن الشكل الذي يعبر عنه في الآداب الغربية بـ (Paratextualité)، لكونه نصا يستمر ويتواصل ويحفظ ويؤدي غرضه بمقدار دوام ما يعبر عنه، من جهة، ولكونه من جهة أخرى ليس كالنصوص الأدبية الأخرى، ينشئها المبدع وفق تيار أدبي، وتعبر عن موضوعات لها حضورها على مستوى الإبداع، وتظل تلك النصوص تدرس في سياقاتها المختلفة، وتؤسس لإبداعات أخرى. فالنص الإشهاري ليس له شيء من هذا الأخير، لأن تأثيره آني محدود بزمن قصير،

ولأنه يتماشى مع تطورات ما يعبر عنه، ثم إن شكله وبناءه يتحددان من خلال أهداف الإشهار وتوجهه، وكلما حدث تطور في الأهداف والتوجهات أو النوعية تولَّدَ نص جديد يلغي حضور الآخر. لذلك كان النص الإشهاري يستمد وجوده وحضوره وتأثيره من خلال وضوح الهدف من الإشهار ، ومن المعرفة الجيدة لمتغيرات الواقع النفسي والاجتماعي والثقافي والاقتصادي والسياسي لمن يخاطبهم ويبلغهم رسالته التي تستوحي أساليبها في الغالب من الموروث الثقافي الجماهيري وهي تماما خصائص ما يعـرف بـ (Paratextualité) في الآداب الأوروبية..

معارف كاتب النص الإشهاري

يشترط في كاتب النص الإشهاري ما يلي :

1. أن يجيد اللغة التي يشهر بها إجادة تامة وأن يمتلك أسرارها وخواصها التعبيرية بتلقائية، كما يشترط أن يكون له إلمام بلهجة أو لهجات وطنه وخواصها في التعبير (الكلمة، الإشارة، الحركة، الإيحاءات المتباينة لها...).

2. أن تكون له معرفة بثقافة مجتمعه المدرسية (الفصيحة) أو الشعبية (الفكرية والمادية) وأن يكون متشبعا بهما.

3. أن يكون على دراية بقيم المجتمع وتوجهه الحضاري.

4. أن يكون على دراية بعلم الإشارات أو العلامات السيميولوجيا (La Sémiologie).

5. أن يكون مطلعا على التاريخ الحضاري للأمم والشعوب، وملما نوعا ما بتحولاتها الاجتماعية والثقافية والسياسية.

6. أن يكون له إلمام بالتوجه الاقتصادي والسياسي والثقافي للدولة التي يشهر فيها، وبمدى تأثير الاقتصادي السياسي في اختلاف الأنظمة.

7. أن يجيد لغتين أو ثلاث من اللغات العالمية إلى جانب لغته الأم التي تظل بالنسبة إليه هوية ثقافية وسياسية وعلمية.

8. أن تكون له دراية بعالم التجارة والمال وخاصة ما يتعلق باقتصاد السوق (Economie de marché)، وعلاقة الدولة والجهات المشهِّرة، لأن الإشهار أداة اقتصاد السوق.

9. أن يكون على دراية بنفسية المشاهد أو القارئ أو المستمع وأن ينتج النص وفي ذهنه الخلفية التالية وهي : إن غالبية المتلقين ممن يوجه إليهم الخطاب لا يحللون ولا يناقشون (الموضوع) ولا يبحثون عن علاقات الأشياء ولا مسبباتها.. ولكنهم في كثير من الحالات يقلدون ويستهلكون، يضاف إلى ذلك السعي من خلال النص إلى السيطرة على أفكار ومشاعر الجماهير بأنواعها، لكسب تأييد أو تقبل توجه في الجانب السياسي، ومحاولة جعل المتلقي يتصرف وفقا لمبادئ ومصالحها الجهة المشهِّرة، عن طريق دفع مخيال المتلقي في أن يفكر في اتجاه اقتناعي مندفعا نحو التمَثُّل للمشهر به. وكل ذلك ينجز وفقا لجماليات التعبير في اللغة أو اللهجة أداة الإشهار مع تقنيات الضوء والصورة واللون والحركة وجماليات الخط.

خصائص النص الإشهاري

1. النص الإشهاري خطاب يفهمه جميع الناس على اختلاف مستوياتهم ممن يتواصلون بلغة مشتركة، أو بلهجات متقاربة : متأثر بعضها ببعض، أو منحدرة من لغة أم.. خطاب مرتبط بالحداثة والمعاصرة.

2. النص الإشهاري لا يشرح ولا يفسر، ولكنه أدلة إقناعية تستهدف التفرد بمخيال المتلقي واستبطان شعوره بإثارة مكبوته اليومي، بوساطة الرمز وسحر الكلمة

وتأثير الألوان والإيقاع، وبعث الإحساس بالامتلاك والاستحواذ، أو بقرب تغير الواقع المعيش..

3. النص الإشهاري متغير في شكله وفي دلالته باستمرار.

4. النص الإشهاري مجهول المؤلف عند المتلقين، ولكنه معروف لدى المؤسسات الإشهارية.

5. من خصائص النص الإشهاري أنه لا يعبر عن الماضي ولا يمجده إلا بقدر ما يثير جماليات الحاضر وسحره بأساليب متنوعة.

6. النص الإشهاري قد لا يستقيم دالا على الإشهار وحده إلا بمساعدة غيره من ألوان الخطاب، كالألوان و الإيقاع و الحركة، أو جماليات الخطوط أو بها جميعا.

7. الزمن الذي يعبر عنه النص الإشهاري محدود، و تأثير النص فيه آني، محتواه يفقد قيمته إن لم يواكب تطور ما يعبر عنه، مما يؤدي إلى اعتباره نصا يأخذ طريقه نحو الأرشيف الذي قد نحتاج إليه في يوم ما لإعادة إنتاج التعبير به كنوع من العجائبية الإشهارية المتحفية.

8. النص الإشهاري يعتمد على لغة جماهيرية تستمد من المعجم اليومي المتداول المتطور تطورا سريعا بتطور منشئيه. ولكننا بالرغم من ذلك نحاول أن نطوع هذا المعجم إلى اللغة الفصيحة المكتوبة، لغة العلم والمعرفة.

9. مرجعية النص الإشهاري في بنائه وتأثيره ودلالته تستمد من خلفيات متعددة أهمها :

أ. الخلفية التاريخية للأشخاص، وهي خلفية أشبه ما تكون بالمنعطف الرومانسي الجماهيري.

ب. الخلفية الاجتماعية التي تتأسس في مراعاة القيم والنوازع النبيلة في المجتمع، وتوحي بأحداثه والاهتمام بها، والعمل على تواصلها، أو تأسيسا لتجاوزها وتطويرها، لأن يفقد الإشهار عملا فنيا مدروسا يواكب آخر المستجدات في عالم الإبداع والاختراع أو عالم الأفكار الاجتماعية والسياسية والثقافية..

ج. الخلفية الاقتصادية التي يعبر النص الإشهاري من خلالها على الإمكانات الهائلة التي تتيح آفاقا جديدة للمتلقي تمكنه من اكتشاف التحولات الاقتصادية، ومعرفة طاقاتها ومنتجاتها وطرائق استغلالها والاستفادة منها بأيسر السبل، ومن أقرب الطرق، وسواء في مجال الإنتاج الزراعي أم الصناعي أم التجاري أم أي نشاط اقتصادي له أثره في الحركة الاجتماعية.

10. النص الإشهاري نص براق وجذاب، يعتمد في كلماته وجمله وإيحاءاته على المبالغة التي أساسها الإيحاء المباشر المثير للكوامن والغرائز، بحيث تتسق مؤثرات الأصوات والألوان والحركات.. مع تلك الغنائية المحببة المتضمنة في حمولة النص بوساطة التطابق في حروف الكلمات، وفي كلمات الجمل البسيطة المكونة للنص.

11. النص الإشهاري يوظف مختلف مضامين الأدب الفصيح والشعبي وأشكالهما. من مثل إلى قصة إلى لغز إلى أغنية إلى شعر... بشرط ألا تكون تلك المضامين غريبة في دلالاتها وفي كلماتها وفي إيحاءاتها عمن يوجه إليهم الخطاب.

13. النص الإشهاري ينزع نحو التجديد واستشراف المستقبل... يأخذ بيد المجتمع نحو آفاق المستقبل ويحسسه بالعيش في هذا المستقبل بأبسط السبل،

والوصول إليه من خلال التمكن من المادة الإشهارية أو تتبع الآراء الـتي يشـهر لهـا. إنه وسيلة تدريب المجتمع على مسايرة التطورات الحضارية.

14. النص الإشهاري لا يخرج في محتواه ودلالاته عن الاتجاه العـام لسياسـة الدولة الاقتصادية والاجتماعية وكل توجهاتها التي ترعاها. ويمكن أن يكـون الـنص خلاف ذلك عندما يتعلق الأمر بمجال الدعاية السياسية...

شروط بناء النص الإشهاري

يشترط في بناء النص الإشهاري ما يلي :

1. أن تكون كلمات النص مفهومة لمن يوجه إليهم الخطـاب الإشـهاري، فـلا تعتمد الكلمات الصعبة غير المعروفة ولا المصطلحات المبتكرة غير المألوفة، ما عدا مـا كان من تسمية المنتج أو المشهر به مما له صلة بعالم السياسة والإدارة وغـير ذلـك... فالمفردات التي يُلجأ إليها غالبا من استعمالات المحيط الحي الذي تتحرك فيه اللغة أو اللهجة، إلا أنه يمكن الاستنجاد بألفاظ المعجم اللغوي التي فيهـا سـحر الكلمـة، وإثارة الذكريات الحالمة والحنين الرومانسي العجيب.

2. ألا تتجاوز حروف الكلمة المنتقاة لبنـاء الـنص الإشـهاري ثلاثـة أحـرف، ماعدا المصطلحات أو مسميات الأشياء...

3. أن تكون الجملة في النص الإشهاري بسيطة غير مركبة وقصيرة لا تتجاوز حدود العناصر التالية : الفعل والفاعل والمفعول أو ما شابهه من كلمات الإتباع أو الصفات...

4. أن تركب الجمل تركيبا منطقيا على ما هو شائع في اللغة المشتركة للمتلقين، ويـجتنبب ما يعرف في النحو العربي من التقديم والتأخير والحذف والتأويل ...

5. أن يبنى النص على نحـو يـؤدي إلى تنـاغم كلماتـه أو جملـه، مـن خـلال التوافق الصوتي في نهايات الكلمات من جهة، والتوازن الجملي من جهة أخرى إن كان النص مركبا. ويستحسن اللجوء إلى الإتباع المعـروف في النحـو العربـي في أواخـر الجمل القصيرة.

6. أن لا تكون رموز النص وإشاراته معقدة تفاديا للإخلال بعملية التواصل مع المشهر به.

7. أن لا تكون الكلمة وحدها هي الأداة في تبليغ الخطاب، إنما يراعـى أنهـا سترفق بوسائل الخطاب الأخرى كالموسيقى والألوان والصور والخطـوط بحسـب أداة الإشهار..، وهذه الوسائل تـؤدي وظيفـتين مهمـتين أو لاهمـا : العمـل علـى كشـف شفرات الكلمة. وثانيتهما ربط المعلن عنه أو المشهر به بمنظومة الجماهير الثقافية.

8. أن لا يكون النص الإشهاري نصا طويلا مملا يخل بالهدف المتوخى.

9. أن يقوم منتج النص بمتابعة ردود الفعل على السلوك العام ودرجة التجاوب في اتخاذ المواقف أو استهلاك السلع أو غيرها من أجل معرفة أثـر شـعرية الـنص في درجة التجاوب مع الرسالة الإشهارية.

10. في حالة قراءة النص الإشهاري في الوسائل السمعية البصرية ، يراعى أن تكون الكلمات التي تختار وترافق الصورة أو الحركة التمثيلية.. كلمـات موحيـة بمـا يأتي كاستعمال الشرط مثلا أو غيره من الأساليب اللغوية المناسبة.

11. أن لا يكون النص معبرا أو موحيا بما يرسخ الدونية والفوقية المؤثرة، بل يسعى إلى إشراك الجميع في المتعة التي تحصل من جراء التمثل للمشهَّر به.

مضامين النص الإشهاري ومناصاته

النص الإشهاري المشبع بمضامين نفعية جمالية ذوقية، ووظيفته إثارة الإحساس بالتواصل العاطفي والوجداني من خلال ربط المنتج بالموروث الثقافي العام المشترك، عن طريق استلهام مضامينه، لذلك فالنص الإشهاري في نظرنا يستلهم مضامين ويحدث معها تناصا واضحا ويصل من خلالها إلى إثارة المخزون العاطفي والوجداني في المتلقي. ذلك أن الموروث المتداول لدى الفئات الشعبية العريضة يثير فيها إحساسا رومانسيا غريبا عند إعادة صياغته وإنتاجه، فيدفعها إلى تمثل الخطاب الإشهاري دون مناقشة.

ويمكن الإشارة إلى المضامين التالية على سبيل التمثيل لا الحصر:

1. تاريخ الأشخاص ومواقفهم بحيث توظف الرموز الشعبية البطولية التي لها حضور تاريخي في أذهان الناس ببطولاتها ومواقفها.. وترتبط بهم ارتباطا عاطفيا وجدانيا.

2. مظاهر الحياة الحالمة الساحرة التي يصورها التاريخ الثقافي الشعبي المبني على رومانسية حالمة، وتجد رغبة عارمة في اكتشافها واكتشاف مظاهرها، فيعمل النص على تقريبها من المتلقي عن طريق استغلال الكلمات والفقرات الشائعة المعبرة عن نوازع الجمهور، مع ما يرافق ذلك من مؤثرات أخرى تستثير الخيال.

3. العناصر الخرافية، من أسماء وتعابير ونصوص وصور وأشكال وملامح ورموز.

4. نصوص أدب الطفولة المشهورة بين الأطفال يمكن تحويلها إلى نصوص إشهارية لمنتوج أو سلوك ما، ويراعى في ذلك أن تتحدد دلالة الكلمة أو الجملة

بالصورة واللون أو بهما وبالصوت والخط وغيرها من المـؤثرات، بحيـث تفهـم دلالـة النص مباشرة وتتأكد بوساطة ما يصاحب هذا النص من وسائل أخرى...

5. المضامين الدينيـة : لـيس بالإمكـان اتخـاذ الـدين وسيلة للإشـهار في أي موضـوع، فـالنص الـديني يوظـف في الترغيـب في فضـيلة، أو العمـل علـى توجيـه المجتمع نحو سلوك معين لتجنب مخاطر تراها الدولة كالأوبئة والأمراض والآفـات، وما يحل بالمجتمع مما يمكـن أن يـؤدي إلى هلاكـه. أو لغـرض التعـاون والتعاضـد والتآزر.. ولا يوظف لأغراض لا توافق ما يـدعو إليـه .كمـا يشـترط ألا يكـون مضـمون النص الديني المشهر به من عقيدة غير عقيدة من يوجه إليهم النص، وإلا عـدل عنـه إلى غيره.

6. المضـامين الاجتماعيـة، كـأن تسـتوحى الأسـرة في علاقاتهـا، الأب، الأم، الأبناء، الجد، الجدة، الحماة، الأخت، علاقاتهم فيمـا بيـنهم في مختلـف مظـاهر شؤون حياتهم اليومية الواقعية، سلوكهم التلقائي في البيت، مع الجيران والمحـيط، ظروفهم، حياتهم الخاصة، ويسعى النص مع غيره من المؤثرات إلى تقديم المعلومـات التي تجعلهم يكتشـفون ذاتهـم ومحـيطهم بيسـر دون عنـاء، ولكـن بوسـاطة الـنص الإشهاري الذي يقدم المعلومة، لأن الإشهار في الأصل يقـدم مفـاتيح فهـم التطـورات التي تحدث في عالم ما ينجزه الإنسان مما يوفر له الجهد والوقت بأقل ثمن وبراحة بال دون قلق...

7. المضامين الاقتصادية: يتم التركيز في إعداد النص على الظروف الاقتصادية للدولة وللسوق وإمكانات الأُسر والمجتمع بصفة عامة، وعلاقـاتهم بـالمنتج التقليـدي والمنتج التكنولوجي، وأثرهم في حياتهما، ودرجة تقبل الناس لـما يحـدث مـن تطـور

على المستوى المعيشي، وأسلوب الاقتناء لديهم، وتعاملهم مع الوفرة، و الندرة والرغبة في الاقتناء والتخزين، أو الاقتناء اليومي أو الأسبوعي، وتحسيس المتلقي بإمكانية الثراء والوصول إليه بالعمل، عن طريق اكتشاف السبل الميسرة لذلك. وصولا إلى اقتصاد أسري سليم يعوض الاقتصاد التقليدي العرفي...

8. المضامين السياسية : وفي مجال الإشهار السياسي يراعى تحسيس المجتمع بالوضعية المعيشية والظروف المحيطة به، وأثر التطورات الاقتصادية العالمية على الاقتصاد الوطني، وموقف الدولة ومشاريعها، وإن كان المشهر له شخصية سياسية مقبلة على إقناع الجماهير بوساطة الإشهار والدعاية، فإنه يكثر من إقناع الجمهور بالنتائج التي تستخلص من الدراسة والآراء التي يقدمها لكاتب النص مستشارو المشهَّر له في الميدان عن الآفاق المستقبلية، ويُرَكَّز في بناء النص على الجمل المنغمة المتضمنة للمعلومة بوساطة أسلوب المثل أو الحكمة، معبرا عما يشغل أفراد المجتمع وما يأملونه من حلول فقدوها في الراهن، بحيث يراها كل واحد منهم، و سيكون معنيا بها... من هنا يكون النص حاملا لهذا الوعي المؤثر في الجمهور.

9. المضامين الإدارية : وهي مضامين إعلامية (Informationnels) أكثر منها دعائية (de Propagande)، ويكون ذلك في موضوع، تريد الدولة من خلاله أن تقترب من المجتمع لأمر يهمه أو تمهد لظهوره، لجس النبض من أجل معرفة درجة التقبل. والإشهار ويأخذ في هذه اتجاهين :

الأول أن الدولة تريد التعريف ببنيتها ومكوناتها الإدارية وطاقاتها وخدماتها التي نتجت عن البحث والتطور الذي وصلت إليه لخدمة مواطنيها، أو تنوه في نوع من الإعلام بالامتيازات الجديدة التي وفرتها للمواطن وأثرها عليه في مستقبل الأيام.

والثاني أن الدولة تعمل على تهيئة المجتمع لتقبل تغيير قد لا يرغب فيه المواطن مباشرة لأثره المادي والمعنوي فيه، فتعمد إلى تهيئة المجتمع نفسيا وماديا للسلوك والعلاقات التي ستتخذها في موضوع إداري أو اجتماعي أو اقتصادي. وقد يكون الإشهار من باب حماية الاقتصاد ومراعاة عدم التبذير، وتنبيه الرأي العام إلى أخذ الحيطة والحذر في مسائل عامة تهم الوطن والمجتمع.

أشكال النص الإشهاري

للنص الإشهاري أشكال متعددة لا يمكن فصل بعضها عن بعض لتما هي حدودها، وهي أشكال تعبر بالكلمة و الصورة والألوان و الأصوات والإيقاعات والحروف، و الصور الثابتة والمتحركة لمختلف الأشكال والألوان والمظاهر، وقلما ينفرد عنصر منها ليكون أداة تعبير. ذلك أن الخطاب الإشهاري في عالمنا يسهم اليوم في الحركة الاقتصادية، ويعمل على توسيع مجالات التبادل السلعي الاستهلاكي، وإيجاد أسواق جديدة، وانتشار على نطاق دولي واسع. ولذلك فإن الخطاب الإشهاري الذي يعتمد على الكلمة وحدها قد لا يؤدي غرضه إلا بالقدر الذي يمكن أن يصل إلى من يجيدون تلك اللغة، وهو أمر لا يساعد كثيرا على الرواج، وعلى سرعة الحركة الاقتصادية والتجارية وغيرها على نطاق واسع، ومع ذلك فالكلمة تبقى من وسائل الخطاب الإشهاري، بالنظر إلى وسائل الخطاب الأخرى، كالألوان والرموز والحركة والصورة. إلا أن الإصرار على حضور الكلمة في الإشهار ضرورة ترتبط بأيديولوجيا مهمة تحدد الهوية الثقافية والحضارية والإصرار عليهما من جهة، ومن جهة أخرى العمل على أن تواكب لغة المجتمع التطور.

وبالرغم من قرب النص الإشهاري من الفنون السمعية البصرية وتناغمه معها، فإننا في إعداد النص الإشهاري نعتمد على التقسيمات المعروفة في الأدب شعره ونثره

حتى يظل النص مرتبطا بجذوره وبأصوله متحليا بجماليات إبداعه الأدبية واللغوية، مادامت الكلمة أساسه وغيرها من الوسائل والأدوات، من هنا يكون النص الإشهاري :

1. نصا تمثيليا إذا قصد منه تجسيد محتوى النص على الركح حركيا عمليا. فيحول إلى سيناريو يضبط فيه الحوار ويستعان فيه بفن آخر هو فن الإلقاء. والنص لا ينتج في هذا السياق بمعزل عن عناصر أخرى مهمة تكون حاضرة وتبدي رأيا يسهم في إنتاج النص المعبر، كالممثلين (Acteurs) ومقدرتهم على النطق السليم بالألفاظ، وكذا حضور المكلف بـ (السينوغرافيا) (Scénographie) ومختلف التقنيين بإشراف المخرج المدرب المؤهل، كما أن معرفة الفضاء الذي يُجْري فيه التمثيل واختياره من بين الفضاءات التي يرغب الجمهور في مشاهدتها أو التنقل إليها أمر في غاية الأهمية... وتلك عناصر تتعاضد لتسهم في تبليغ محتوى النص بوضوح.

والممثلون الذين يتحاورون يستحسن ألا يتجاوز عددهم أربعة، وما زاد على ذلك لا يكون له صوت حواري بقدر ما يكون تواشيح دينية كورالا (Choral) أو ممثلا صامتا (Comparse) ماعدا الأطفال فإنه يمكن الإكثار من حركاتهم وأصواتهم المدروسة الموحية بالسلوك التلقائي، لأن ذلك مما يدخل في نمو الرغبة لدى الطفل وتقبله لما يشهر له به تمثيلا. ولايحبذ أن يتجاوز الحوار الدقيقتين في أفضل الأحوال، كما أن النص يكون إيقاعه اللغوي متسقا مع الحركة واللباس والألوان والمظاهر المختلفة، والتأثير باستغلال الـمَشاهد الحركية التي يرغب فيها الجمهور ويحبها ويريد تقليدها، خاصة إذا كان الممثل ممن له تأثير نفسي في الجمهور بأدواره التمثيلية التي يعرفها عنه ويحترمه ويقدره من أجلها...

ويركز في الحوار على العناصر التالية :

أ ـ العلامة (Marque) وأهميتها في السوق التجاري إن كان النص الإشهاري في مجال التجارة والتسوق (Shopping). وقد يكون التركيز على فعالية المنتوج دون العلامة (Marque) أو يكونان معا.

ب ـ المبدأ في المجال السياسي وربط كل المعطيات الدرامية به في حالة الحملات الانتخابية أو التنافس السياسي في مواقف أخرى، كالتهيئة للقاء الخصم على المباشر وإشراك الجمهور في الحوار، كل ذلك يصب في قناة تهيئة الجمهور وإعداده لتقبل قناعات المشهر له، و النص الحواري في ذلك يراوح بين العودة إلى الموروث وبين استغلال تطلعات الجمهور فيما يرغب أن يعبر عنه ولايستطيع قوله، فيكون النص متضمنا لتلك الرغبة مركزا عليها متوخيا الدليل الحسي المفحم الذي يمارسه المثلون أو المتحاورون.

ج ـ النمطية والخصوصية المتفردة لما يشهَّر به.

د ـ جذب المتلقي نحو المشهر به بقوة اللغة والحركة واللون والصوت والصورة.

وفي حالة انعدام الصورة يركز في الحوار على دقة الكلمات وفخامة أصواتها، وعلى الممثل والموسيقى والمؤثرات الصوتية.

قد يستهدف النص ودلالته الإقصاء من السوق أو من الساحة السياسية أو من غيرهما، فيعتمد النص على المؤثرات الصوتية والضوئية والحركية أثناء الحوار في التمثيل المرئي وعلى صوت الممثل والمؤثرات الصوتية لأداء الحوار والتمثيل المسموع، وبعبارة أخرى فإن النص الحواري يعتمد بالتداول (كلمة، حركة، صورة) أو (كلمة، مؤثر صوتي، موسيقى)، بحيث يؤدي محتوى النص إلى التشكيك في قناعات

المتلقي من خلال عرض موقف آخر بديل يوحي بالثراء والوفرة والجودة والمتعة وإزالة الحيرة والقلق...

2. مثلا شعبيا أو فصيحا : كأن يعتمد على الأمثال الدارجة الشائعة المقنعة، التي تشيع بكثرة في الأوساط الشعبية، لأن المثل بمجرد مروره وسريانه يصبح أكثر قابلية للتصديق ولا يناقش، لأنه حكمة السلف مغربلة، لا تحتاج إلى تأمل وتدبر. وقس على ذلك الأحجية (البوقالة) والفزورة والنادرة والخرافة.، الخ.

والواقع أن الأمثال مفتاح للمقارنة، وتزويد المستهلك للخطاب بثقافة ماضوية جاهزة تيسر سبل الاستيعاب، وتجد لها مبررا في أمور كثيرة.. ولكن يشترط في النص المثلي أن يكون قصيرا بعيدا عن الأمثال المعقدة أو المركبة التي تركز على خصوصية فردية، فلا نلجأ إلى الأمثال التي ترسخ الأمية والفكر الأمي أو القروي أو القبلي، أو تلك التي تكون وسيلة للتواكل، أو خلق الفوارق في المجتمع، أو تؤسس لمجتمع غير متجانس في قيمه وثقافته، كما لا نلجأ إلى الأمثال المركبة الطويلة التي تخص منطقة معينة، أو لاتفهم إلا في إطار ضيق، ما عدا إذا كان الخطاب الإشهاري المراد به التوجه إلى منطقة معينة، وهي معنية به دون غيرها، فإنه يمكن في هذه الحالة استغلال إمكانيات التعبير في تلك المنطقة وتوظيف عناصر نصية من ثقافتها لتبليغ الخطاب الإشهاري.

كما يراعى عدم اللجوء إلى النصوص المعبرة التي تخدش الحياء لدى المتلقي والجمهور بصفة عامة، بحيث لا يكون تجاوزا لمحرماته وبعبارة أخرى يراعى العرف في إعداد النص الإشهاري.

3. أغنية شعبية أو فصيحة : متداولة معروفة لها طابع الشعبية، والنص قد يكون هو الأغنية توظف لأداء معاني محددة. وقد يضاف إلى نص الأغنية جُمَل تتقدمه أو تتخلله، أو تأتي بعده مع ما يصاحب ذلك من موسيقى أو ألوان وخطوط وصور..، والنص المركب لا يقتطع الأغنية ويذهب بسحرها الفلكلوري، بل يتساوق معها خفة وأداء وتعبيرا دون ملل أو ضجر.

وإن كان النص الإشهاري يعتمد على مقطع غنائي، فإنه يقتطع منها (أي الأغنية) المقطع المرغوب فيه المحبب ويشهر به ويُتَّخَذ خطابا إلى جانب الصورة، أو توضع صورة من اشتهر بغناء تلك الأغنية ضمن مكونات لوحة الإشهار. وأحيانا يكتفي بنص الأغنية الشعبية الشهيرة المقروء ولا يكتب معها شيء لأن ذلك أبلغ الخطاب.

4. نصا قصصيا : كأن نلجأ إلى القصة الخرافية أو الحكاية الشعبية فنأخذ مقدماتها من مثل : " يا سادة ويا مَادَة واجعلنا من أهل السعادة... " كما في اللهجة الجزائرية، أومقتطعات منها مشهورة. أو كان يا مكان في سالف العصر والأوان فارس من الفرسان أو بطل من الأبطال... لإحداث عنصر المفاجأة وحب المعرفة مثلا، فتذكر مثلا : المقولة المشهورة في القصة الخرافية الشعبية التي يعرفها تقريبا سكان الجزائر (تيس، تيس، حزر فكر واش في القلمون أو التليس !)[] والتليس أو القلمون يتضح من

[]. تيس : كلمة من كلمات الإتباع في العربية، وهي هنا تؤدي وظيفة التنبيه بتكرارها وتكرار حرف السين الذي يتحول إلى حرف همس رقيق جدا. أما التليس فإنه عبارة عن كيس كبير معد لنقل الحبوب أو غيرها، ينسج من شعر الماعز الممزوج بالصوف مقسم قسمين، بحيث يتحول إلى كيسين ملتصقين يوضعان على ظهر الدابة، أحدهما على يمينها والأخر على يسارها. وشبيهه الزنبيل أو الشّواري ومسمياته الأخرى، إلا أن الزنبيل ينسج من الحلفاء وهو عبارة عن سلتين ملتصقتين توضعان على ظهر الدابة لحمل الحبوب أو الرمل أو أي شيئ آخر..، إحداهما في اليمين والأخرى في اليسار مفتوحتان إلى أعلى.. والقلمون (ثاقلمونت) كلمة أمازيغية تطلق على غطاء الرأس الممتد من البرنس.

خلال الصورة بحسب القصد، الحسنُ أو القبح للمشهر به.. وفي كل ذلك لا يتجاوز النص القصصي الفقرة ذات 10 كلمات أو 15 كلمة، إلا أن الإشهار بنصوص الموروثات الشعبية يحبذ فيها أن تكون منطوقة لاعتياد الناس عليها منطوقة بصوت مناسب وفقا للمقام وللمشهر به وله، ولأن نطقها يضفي عليها الجو الذي يتخيله المستمع، وسواء أكان ذلك في الإذاعة أم في التلفزيون.

4. شعرا قديما أو حديثا : فنلتقط منه ما هو مشهور متداول ومحبب ترديده، وفي هذا الميدان تملك الشعوب رصيدا هائلا من الكلمة الساحرة الحالمة التي تستثير العواطف والأشجان..

بنية النص الإشهاري وخصوصية المكان

النص المقروء نوعان :

فالأول نص **مكتوب محمول** وهو المتداول الموثق في صحيفة يومية أو أسبوعية أو في كتاب أو نشرة أو مطبوعة يحملها القارئ، يراعى في إعداده مستوى الجمهور الذي تتوجه إليه الوثيقة بالخطاب، وعلى قدر ثقافة القارئ يكون إنتاج النص ؛ فإن كانت مجلة جماهيرية عامة يستحسن أن يرفق بصورة ما، أو بصورة ساخرة من نوع الكريكاتور.. وإن كانت مجلة متخصصة علمية فإن لغة النص الإشهاري يتوخى فيها بناء لغويا يسمو إلى لغة المتخصصين الذين تتوجه إليهم المجلة أو الصحيفة بالإشهار، والصورة ليست مهمة لهذا النوع من الجمهور بقدر ما هو مهم ذكر الخصائص والمزايا في عالم المنتوج الجديد أو الماثل في السوق، أو في ما يمكن أن يثيره، باكتشاف لونه أو حجمه أو مكوناته الظاهرة... أو بما يثيره من أسئلة... أو ما يقدمه من خدمات للباحثين والدارسين...

وفي كل الأحوال فإننا في النص الإشهاري الذي واسطته الوثائق، يراعى في إنتاجه الدراية بالميدان والاختصاص والمصطلحات المعرفية المتعلقة بالمشهَّر به، ومعرفة أساليب الإقناع العلمي. والنص الموجه للعلماء والمثقفين غير النص الموجه إلى عامة الناس...

والثاني النص **المكتوب غير المحمول** (مثبت) وهو أشكال بحسب مواقع الإشهار كأن يكون في :

أ ـ الملاعب.

ب ـ القاعات.

ج ـ الطريق.

د ـ على شاشات عرض إلكترونية.

هـ ـ على سيارات النقل المتحركة.

و ـ على ألبسة يرتديها الأشخاص.

ز ـ أدوات ووسائل يحملها الأشخاص ويتجولون بها أو يستعملونها في حياتهم اليومية، أو أي موقع من المواقع.

وفي كل ذلك نفرق بين نص يعد لمؤسسة تجارية كبرى لها عراقة وتاريخ وثقافة متواصلة في الإنتاج، ولها سلطة ونفوذ في المجال السياسي والاقتصادي والإعلامي، وبين مؤسسة تجارية صغيرة ناشئة تستغل الإشهار للتعريف بإنتاجها وبخدماتها، والبحث عن مكانة لها بين عالم المؤسسات الكبرى.

كما أننا ننتبه حين إنتاج النص الإشهاري إلى أن لكل ميدان لغته التي تتلاءم معه وتتوافق مع الوسائل الأخرى، كالأضواء، الألوان والأصوات والأشكال ومساحات الحروف...

أ ـ الإشهار في الملاعب يقتضي التركيز على الجملة القصيرة المنغمة، وعلى مساحة الحرف، بحيث تقرأ من مسافات بعيدة، وتسمح للكاميرات المقابلة بالتقاطها وقراءتها بسرعة من قبل المتفرج المتابع لما يجري في الملعب عبر شاشات التلفزة، والنص هنا لا يكتفي بمساحته، بل يرفق بشعار (Slogon) أو رمز (Logo) المؤسسات التي أَشْهَرت. ويكون في مكان يسمح للجمهور برؤيته فيترسخ في ذهنه كلما جرى حديث عن المباراة أو شاهد ما شُهر به خارج الملعب، والنص في هذه الأماكن لا يتجاوز الجملتين من ست كلمات تنتقى بدقة وعناية وتركب تركيبا منغما، وبألوان ومساحة للحروف جاذبة.

ب ـ في الأماكن العامة الأخرى يراعى أن تكون لغة النص قريبة من لغة الجمهور من جهة، ومن جهة أخرى لا مانع من استعمال الكلمات الأجنبية الدخيلة المشهورة المتداولة التي لا يجد لها الجمهور مرادفا في لهجته أو لغته، ولكن لا يجب أن تطغى على النص، لأن الإشهار أيضا يستهدف الحفاظ على القيم وثوابت المجتمع الذي تقوم مؤسساته الإشهارية بتوجيه الخطاب الإشهاري إليه. وفي حالة إرفاق النص بالصورة المثبتة في الأماكن العامة، كأماكن الحافلات والسيارات أو التجمهر ونقاط التلاقي والعبور، فإنه يشترط في النص أن يقدم المعلومة التي تدفع الشخص إلى الإقبال على المشهر به من منتوج المؤسسات التجارية أو السياسية أو الثقافية، لأن الإشهار في هذه الأماكن يسمح بوصول الخطاب إلى فئات عريضة من أبناء الوطن والأوطان الأخرى، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن النص الذي يكون بهذه الأماكن يتوخى الثقافات، ويتوخى المناطق وخصائصها، والعادات والسلوكات المتباينة بتباين الموطن والمنشإ والثقافة... و على معد النص أن يكون

مدركا لذلك بعيدا عن التأثير العاطفي والإيديولوجي إلا ما كان من خطاب سياسي فإنه يراعي الخطاب الذي يستقطب الجمهور حول نقاط مشتركة تهم مختلف الفئات والثقافات...

ج ـ أما نص الإشهار في القاعات: فإنه يكون على ملصقات أو معلقات يتمكن جمهور القاعة من رؤيتها، وبما أن الجمهور يمكث في القاعة فترة طويلة، فإنه يمكن للنص الإشهاري أن يتجاوز خمس جمل في كل ملصقة، وأن تتكامل النصوص لتكوِّن فكرة إشهارية عن المشهَّر به، كأن تكون مواد تجارية حدث فيها تغير أو تبدل، أو إنتاجا جديدا، أو بلورة تعابير سياسية أو ثقافية. والأولى أن يبنى النص من مقاطع أو فقرات أو جمل تتوزع على مجموعة من الملصقات تعبر في مجملها عن محتوى موضوع ما...

د ـ النص الإشهاري على لوح إلكتروني يتكرر ظهوره، أو لا يتكرر، فإن النص الإشهاري يعد على أساس جمل أو كلمات متتالية توحي بموضوع الإشهار أو تعريفه أو أي غرض يقصد منه، لأن سرعة الشريط تحدد النص. ويراعى في ذلك أن تكون لغته من المحيط ومن الكلمات المتداولة أو المقتطعة من نصوص مشهورة، كأن تكون غنائية أو سياسية أو مدرسية أو أقوالا مشهورة... والنص يتحدد بالمدة التي يستغرقها الحرف في الظهور وفي إمكانية القراءة لمختلف الفئات والمستويات، هذا إذا كان اللوح الإلكتروني شريطا مضيئا ومتحركا. أما إ ن كان عارضة إلكترونية مضيئة مثبتة فإن الاقتصار على جملة أو جملتين يكون كافيا في بناء نص، كأن يكون اسم الشركة + جملة مشهرة، أو يكون شعار الشركة (Slogon) + جملة موحية... أو شعار الشركة واسمها وكلمة واحدة تتوافق مع المعطيات التي يمنحها الشعار المروج له، الخ .

هـ ـ وإن كان النص على ملبوسات تراعى مساحة الظهر أو الصدر، فتثبت الرسوم والشعارات على الظهر، ويكتفى بذكر أسماء المؤسسات مع بعض الخصائص المعروفة على نطاق واسع.

وإذا كان النص على الصدر فإنه يراعى الكلمات المتفائلة الدالة على الجوانب الجمالية والمحببة بعيدا عن المس بالعرف العام وبالقيم الاجتماعية... وفرق بين صدر المرأة وصدر الرجل وكذا صدر الطفل، من حيث النص والمساحة والموقع وحجم الحرف، ويبقى صدر المرأة أكثر جاذبية للإشهار. ولاننسى بأن الاشهار على ملبوسات الأطفال نقتصر فيه على الكلمة الموحية التي تتحدد دلالاتها بما يرافقها من صور وألوان أو غيرها من مؤثرات موضحة، وقد يكون النص جملة بسيطة رفقة شعار أو نمط معين من الخطوط عرفت به الجهة المشهرة ، يستثير رغبة الأطفال كلما شاهدوه...

و ـ أما إن كان النص الإشهاري متحركا أي أنه متنقل على واجهة سيارة، فإنه يركز على النص بحيث يكون سهل القراءة ويفهم مباشرة دون عناء.

ز ـ وإن كان النص الإشهاري معدا لأن يراه عابرو الطرق، فإنه يلتقي مع ذلك الذي أشرنا إليه في أماكن السفر والعبور والتجمعات، ولكن يضاف إلى ذلك التركيز على الصفات والأسماء المتعلقة بالمشاركة، وتكون في الغالب المساحة للحروف و بنية الكلمة لا تتجاوز الحروف الثلاثة وإلا أخَلَّت ببناء النص، إلا ما كان اسما للمشهر به، فإنه يتناغم مع الشعار أو الصورة، بحيث إن أحدهما يكون دالا على الآخر، والنص يظل أكثر وضوحا، لأنه يحدد المشهر به كما يحدد المنتج والمؤسسة. وهناك ملاحظة مهمة هي أن القارئ هو المتحرك، عكس ما يحدث عندما يكون النص

الإشهاري هو المتحرك، فالصورة قد تكون دالة على المشهر به أكثر من النص. كما يشترط أن يتموضع النص في الجهة المعاكسة للشخص المتحرك، فإن كان السير على طريق مزدوج فإن النص يقابله، بحيث يكون على يساره بزاوية شعاعية تسمح بقراءة النص، وإن كان يسير في طريق باتجاهين غير منفصلين، فإن اللوح يكون دائما على الجهة اليمنى في الذهاب والإياب.. و النص إذا توخى ما ذكرنا فإنه من قلة كلماته والاقتصاد في حروفه سيؤدي رسالة لها أثرها بدرجة فاعلة وكبيرة.

هل يمكن التأسيس لمعجم لغوي إشهاري ؟.

الواقع أن ربط الإشهار بمعجم معين يعد ضربا من التعسف، ذلك أن الإشهار منفتح على اللغات كما هو منفتح على اللهجات، ومهما كانت المفردات التي نقترحها لا يمكن إلا أن تشكل نقطة من بحر لغوي ينهل منه كاتب النص الإشهاري، لأن الإشهار في النهاية يواكب تطورات اللغة، والتطورات الاقتصادية والسياسية والعلمية، وهو في النهاية يهدف إلى تبليغ الخطاب الفاعل المؤثر من أجل الحصول على مراد ما بيسر و سهولة من خلال الترويج والدعاية، فقد يكون بالنص مصطلحات أجنبية عند الترويج أو التشهير لمنتج، وقد يكون بكلمات دارجة لا أثر لها في اللغة، وقد يكون استمد مفرداته من خليط لهجي ولغوي وطني وأجنبي، وهذا ما هو جار اليوم وسيكون غدا وبعد غد مادام الإشهار يلجأ إلى اللغة المنطوقة في غالب نصوصه. إلا أن ما تجدر إليه الملاحظة هو أن معد النص يراعي لغة المجتمع الذي يشهر فيه وله، وخاصة اللغة القومية أو المحلية التي تتضمن خصائص مرتبطة بعواطف ومشاعر الناطقين بها وتدخل ضمن احتياجاتهم النفسية والاجتماعية والثقافية .

هناك مراجع كان لها حضور غير مباشر في هذا المقال نذكر منها :

أ ـ المراجع العربية

1. د. هويدا مصطفى ـ الإعلان في الأنظمة الإذاعية المعاصرة ـ الدار المصرية اللبنانية ـ القاهرة ـ ط 1 ـ 1999.

2. جرار لانيو ـ سوسيولوجيا الإعلان ـ ترجمة د. خليل أحمد خليل ـ منشورات عويدات بيروت، لبنان ـ ط 1 ـ 1996.

3. فتحي الأبياري ـ فن الدعاية والمخطط الصهيوني ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة د/ت.

4. يوجين قال ـ فن كتابة السيناريو ـ ترجمة مصطفى محرم ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ 1997.

5. علامات ـ مجلة فصلية ـ صاحبها سعيد بن كَراد ـ تصدر بمكناس ـ المملكة المغربية العدد 7. 1997.

ب ـ المراجع الأجنبية :

1. Gaston Hanon, Découvrir la publicité, édition Labor. Bruxelles, 1984.
2. Robert Leduc, Comment lancer un produit nouveau, 2eme édition, Dunod, Paris.
3. Robert Leduc, La publicité une force au sein de l'entreprise, Dunod, Paris.
4. Francis Fehr, Publicité, 17 eme édition, Dunod, Paris, 1969.

العِرق والمورِّثات ونسبة الذكاء

نقاش سمّمه غموض المفاهيم

بقلم : نيد بلوك Ned Block

ترجمة : د. أبو بكر خالد سعد الله

أستاذ بالمدرسة العليا للأساتذة – الجزائر

تقديم (المترجم)

هل الذكاء يورث بنسبة 20 % أو 80 % ؟ لقد عاد هذا الموضوع إلى الواجهة مؤخرا بعد أن نشر الأستاذ ريتشارد هيرنشتاين (R. Herrnstein) (المختص في علم النفس، والمتوفى الآن) والأستاذ شارل موري (C. Murray) (المختص في العلوم السياسية) كتابا في الولايات المتحدة عام 1994، بعنوان The Bell Curve (Intelligence and Class Structure in American Life) [المنحنى الجرسي (الذكاء والبنية الطبقية في الحياة الأمريكية)].

وخلاصة القول التي توصّل إليها صاحبا هذا الكتاب، أن المورِّث (gene) يؤدي دورا أهمّ من دور البيئة في المستوى الفكري للإنسان. وكانت هذه النتيجة حصيلة دراسة المجتمع الأمريكي (الأبيض والأسود) التي قام بها المؤلفان سيما عبر روائز نسب الذكاء. ونظرا ما للموضوع من حساسية في المجتمع، ذاع صيت الكتاب وانتقده الكثيرون وأيده آخرون.

ومن بين المؤيدين، لفيف من الأساتذة الجامعيين الأمريكيين والبريطانيين زاد عددهم على الخمسين – قدموا أنفسهم على أنهم »خبراء في قضايا الذكاء والمواضيع المتصلة به« – وقد أصدروا بيانا يوم 15 ديسمبر 1994 نشر في الصحيفة الأمريكية (The Wall Street Journal) تحت عنوان (Mainstream science on intelligence) (وجهة نظر أغلبية أهل العلم في الذكاء). وتضامن هؤلاء الجامعيون مع مؤلفيْ الكتاب مؤكدين، بوجه خاص، على أن بإمكان المورّثات أن تكون مسؤولة عن الفارق في نسبة الذكاء بين السود والبيض... مع العلم أن الكتاب المذكور أوضح فارقا كبيرا في هذه النسبة لصالح البيض.

ولحد الساعة، مازال هذا الموضوع يسيل الكثير من الحبر بين مؤيد ومعارض. وقد نشرت مجلة (La Recherche) (عدد 294، يناير 1997) بحثا قيّما تناول فيه أحد المختصين الأمريكيين في فلسفة العلوم (وهو نيد بلوك، الأستاذ بجامعة نيويورك) هذا الموضوع، محاولا التوفيق بين أوجه النظر المختلفة. ونظرا لأهمية هذا المقال، أرتأينا ترجمته.

أنا مختص في فلسفة العلوم، أقوم بتحليل المجادلات العلمية من أجل توضيح المفاهيم، وهي مهمّة تعتبر، في نظري، مصدرا للتقدّم. وفي النزاع الذي نشب حول كتاب «المنحنى الجرسي» للمؤلفيْن ريتشارد هيرنشتاين وشارل موري[1]، يبدو لي أن الطرفين وقعا ضحية لغموض في المفاهيم المتعلقة بالتحديد الوراثي للسلوك البشري. سأحاول في هذا المقام أن أرفع هذا اللبس حتى يتمكّن القارئ من تقييم ما قد أُثبت فعلا وما لم يتمّ البرهان عليه.

لنتأكد، بادئ ذي بدء، بأننا استوعبنا حقا دعاوى الكتاب. يؤكد هيرنشتاين وموري أن نسبة ذكاء السود الأمريكيين أقل – وراثيا – من نسبة ذكاء البيض. كما يؤكدان أيضا على وجود ما يسمى بـ «الذكاء العام» ذي الأهمية الاجتماعية البالغة، والذي يبدو أنه قابل للقياس بواسطة روائز نسب الذكاء، وأنه «قابل للوراثة» بنسبة 60 %حسب الدراسات التي أجريت على البيض (بخصوص تفسير القابلية الوراثية، أنظر أدناه).

وفي مقال حديث عنوانه (The Real Bell Curve)[2] (المنحنى الجرسي الحقيقي) أبدى شارل موري امتعاضه من ملاحظة بعض النقاد – أمثال ستيفن جاي غولد

[1]. R. J. Herrnstein & C. Murray, The Bell Curve, Free Press, New York, 1994.

[2]. The Wall Street Journal, 2/12/1994.

(Stephen Jay Gould) – يقرؤون في كتابه دعوى تقول إن فروق نسب الذكاء بين الأعراق ترجع، بالدرجة الأولى، إلى العامل الوراثي. ويردّ موري على هذا التأويل بنص مأخوذ من الكتاب ذاته : »إذا اقتنع القارئ، الآن، بأن التفسير الوراثي أو التفسير البيئي هو المتغلب دون الآخر، فإننا نكون قد أسأنا تقديم كل من هاتين الأطروحتين. يبدو لنا أن هناك احتمالا قويا يجعل المورّثات، وكذا البيئة، تساهم في الفروق العرقية. لكن، كيف نقوم دور كل منهما ؟ إن درايتنا بهذا الموضوع معدومة؛ إذ أن المعطيات المتوفرة حوله لا تسمح بعد، بتبرير أي تقييم«.

إن النقطة التي يعلن هيرنشتاين وموري بشأنها أن "لا دراية لهما بها" هي مسألة معرفة ما إذا كانت مسؤولية انخفاض نسبة ذكاء السود تقع، بالدرجة الأولى، على العامل البيئي أو على العامل الوراثي. لكنهما لا يبديان أية« لاأدرية (agnostisism) »عندما يؤكدان بأن جزءا من الفارق في "نسبة الذكاء" – وهي صيغة ذات إشكالية عويصة، كما سنرى أدناه – بين السود والبيض، ذو مصدر وراثي. وإذا راعينا الطريقة التي يعالجان بها هذه المسألة فهذا يعني بأنهما لا يبديان أية »لاأدرية« فيما يتعلق ببعض النقص الوراثي لدى السود.

وتستند حجة هيرنشتاين وموري، المؤيدة للتفسير الوراثي لفروق نسبة الذكاء، إلى أمرين : نسبة الذكاء تورث بنسبة 60% لدى المجتمع الأبيض ؛ وهناك فرق مستقر يساوي خمس عشرة نقطة بين متوسط نسبة ذكاء البيض ونفس المتوسط لدى السود. ولما كانت نسبة ذكاء البيض تعود، بالدرجة الأولى، الى العامل الوراثي فمن الطبيعي أن نستخلص – حسب هيرنشتاين وموري – بأن الفرق بين السود والبيض هو الآخر يرجع، جزئيا على الأقل، الى العامل الوراثي. والواقع أن استدلالهما أكثر تفصيلا ؛ فهما يحلّلان أيضا توزّع وضخامة الفوارق. سأعود إلى هذه النقطة، لأن أهم مواطن الخلل قد تجلت منذ الآن.

ويقوم استدلال هيرنشتاين وموري على الفكرة القائلة إن الخمس عشرة نقطة التي تمثل فرق نسبتي الذكاء تقسم الى قسمين، أحدهما وراثي والآخر بيئي، وهو ما يوحي بأحد الحلول التالية :

* البيئوِيَّة المتطرفة : يتساوى السود مع البيض من الناحية الوراثية. وبالتالي فالفرق في نسبة الذكاء يرجع كله الى البيئة.

* الوراثية المتطرّفة : يتساوى السود مع البيض من الناحية البيئية. وبالتالي فالفرق في نسبة الذكاء يرجع كله الى أصل وراثي.

* وجهة النظر المعقولة : السود يعانون من الحرمان على المستويين الوراثي والبيئوي. إذن، فالفرق في نسبة الذكاء يعود جزء منه الى المورّثات، بينما يعود الجزء الآخر إلى البيئة.

إن كانت نسبة الذكاء تُورث بنسبة 60% فهذا يلغي، فيما يبدو، حالة "البيئوية المتطرّفة". ثمّ إن هناك أثارا معروفة للبيئة على نسبة الذكاء، تضاف إليها الفوارق بين بيئة البيض وبيئة السود، وهي فوارق سلّم بها هيرنشتاين وموري. إن هذه الآثار تلغي، بدورها، حالة "الوراثية المتطرّفة". وهكذا لم تبق سوى "وجهة النظر المعقولة" التي تتضمّن بعض النقص الوراثي لدى السود.

الفرضية الرابعة : السود متضررون، بيئيا، لكنهم متفوقون، وراثيا، على البيض

والملاحظ أن صيغة هذه الفرضيات الثلاث تخفي فرضية رابعة بالغة الأهمية : السود متضررون كثيرا من الناحية البيئية، لكنهم متفوقون، على البيض، من

الناحية الوراثية. إذا ما قبلنا بهذا الإحتمال، فسنحصل على مجموعة جديدة من الفرضيات تلغي كل منها الأخرى : من الناحية الوراثية، فإن السود متخلفون أو متفوقون أو يعادلون البيض. إني لا أقول إنه من الأرجح أن يكون السود متفوقين وراثيا على البيض، لكني أقول إن ذلك أمر وارد؛ مع الملاحظة أن ما نعتبره أمرا محتملا يؤثر على ما نحكم عليه بالموقف المتطرف، وهذه نقطة على جانب كبير من الأهمية. والجدير بالإشارة أن نقاد الكتاب مالوا الى التهرّب من هذه الإمكانية. ففي وجهة نظر حرة نشرت في صحيفة النيويورك تايمز – قُدّم فيها كتاب "المنحنى الجرسي" على أنه كتاب "خال من الجدية" وأنه "ليس سوى قدح عرقي" – أكد كاتب الافتتاحية، بوب هربرت (Bob Herbert)، بأن »الخبراء في هذا الموضوع يُجمِعون، بأغلبية ساحقة، على الاعتقاد بأن الظروف البيئية تفسّر أهمّ الفوارق المُلاحَظة لدى مقارنة نتائج الاختبارات التي أجريت على مجموعات كبيرة« □ .
والواقع أنه يشير هنا الى الآثار المعروفة للبيئة على نسبة الذكاء وذلك للدفاع عن الأطروحة التى ترى نقصا وراثيا طفيفا لدى السود. وبهذه الكيفية فهو يقبل بإحدى صيغ "وجهة النظر المعقولة". وحتى ستيفن جاي غولد فإننا نراه قد تعثّر بهذا الخصوص في مقاله – الممتاز – المنشور في صحيفة نيويوركر (New Yorker)□ . ذلك أنه تقبّل، فيما يبدو، منهج النقاش الذي اتّبعه كتاب "المنحنى الجرسي" ؛ وأعاب على هيرنشتاين وموري استنقاصهما تأثير العامل البيئي على نسبة الذكاء. ويقول إنهما "حوّلا كل قشّة الى وتد لصالحهما، مكتفيان بالإشارة إلى الحجج المدعّمة لمرونة

□. «Throwing a curve», New York Times, 26/10/1994.
□. «Curveball», New Yorker, LXX, 139-149, 1994.

نسب الذكاء وضعف متوسط الفارق الوراثي، وهذا قصد الإستنقاص من قيمة تلك الحجج". ولم يتخذ غولد احتياطات كافية إزاء التفسير الطبيعي لـ "ضعف متوسط الفارق الوراثي" الذي أشار إليه، إذ يعني نقصا وراثيا طفيفا للسود.

وفي الصحيفة الأسبوعية اليسارية (The New Republic) أظهر العديد من المؤلفين طريقة مماثلة في التفكير، متحججين بضعف حجم "المركبة الوراثية للفرق بين السود والبيض"□.

إذا قبلنا بالطريقة التي يقدّم بها "المنحنى الجرسي" الاختيارات الممكنة، فإن الفكرة القائلة إن الفوارق البيئية بين السود والبيض تكفي لتفسير فارق الخمس عشرة نقطة في نسبة الذكاء، فكرة تحمل ملامح التطرّف. غير أن مراعاة البدائل الموجودة فعلا – من الناحية الوراثية، فالسود يعادلون البيض أو هم أقل درجة أو أعلى درجة منهم – تبيّن بأن فكرة انعدام الفارق الوراثي لم تعد فكرة متطرّفة.

ألا تُعتَبر فرضية تفوّق السود – وراثيا – فيما يتصل بنسبة الذكاء، محاولة يائسة وشقية لاستغلال احتمال منطقي بسيط؟ لنأخذ حالة مماثلة. إن عدد أصابع الأرجل محدد وراثيا لدى الذابات (الكَسْلى) والبشر. نلاحظ أن للبشر خمسة أصابع، أما الدابات النهارية فلها ثلاثة. هل يجوز أن يتجه الفرق الوراثي المحدد لعدد أصابع الأرجل لدى الإنسان ولدى الدابات في الاتجاه المعاكس للفارق الذي نلاحظه؟ من المحتمل أن الدابات التي لها الآن ثلاثة أصابع قد كان لها في العصور الغابرة ستة، غير أننا لم نشاهد سوى ثلاثة؛ ربما أدت إحدى المواد الكيميائية من نوع التاليدومويد (Thalidomide) إلى تلوث غذاء تلك الحيوانات خلال السنوات التي

□. 31/10/1994.

شاهدناها فيها. إنه احتمال ضعيف جدا. لكن هذا المثال يوحي بمبدأ لم تتم صياغته بعد، وهو يدعم فكر هيرنشتاين وموري.

المبدأ الأساسي : إذا كانت إحدى السمات وراثية الى حد كبير وشاهدنا، بخصوص هذه السمة، فرقا وراثيا بين فئتين فإن الفرق الوراثي سيميل، بالتأكيد، الى نفس اتجاه الفرق المشاهَد.

لنطبق هذا المبدأ على حالة نسبة الذكاء : نظرا إلى الخاصية الوراثية لهذه النسبة (60% في المجتمع الأبيض) فإننا لو وجدنا تفوقا في نسبة الذكاء المحسوبة لدى مجتمع شرق آسيا لاستنتجنا – بناء على المبدأ الأساسي – بأن التفوّق الوراثي للشرق آسيويين شبه أكيد، وبأنه إذا كانت نسبة ذكاء السود ضعيفة فهناك احتمال قوي في أن يكونوا متخلفين وراثيا في هذا المجال.

وعلى الرغم من أن هذا المبدأ يبدو سليما من الناحية الحدسية، إلا أنه يخضع لأحد الاحتمالين : إما أنه مبدأ لا يلائم استدلال هيرنشتاين وموري وإما أنه مبدأ خاطئ. وحتى نحيط بهذه المسألة، ينبغي علينا، بادئ ذي بدء، تشخيص لبس بالغ الأهمية في لفظ "وراثي". إن لهذه الكلمة معنيين، سأناقشهما بالتفصيل، لاحقا. واختصر هنا القول في كلمتين : إن التأكيد على أن سمة ما سمة "وراثية" قد يعني بأن السمة ذاتها تحدّدت عبر مورّثات الفرد (السمة محدَّدة وراثيا)، وقد يعني أيضا أن مصدر الفروق، فيما يخص هذه السمة لدى بعض المجتمعات، يمكن استكشافه إلى حد المورّثات (تُظهر السمة درجة مرتفعة من القابلية الوراثية).

ينبغي علينا التمييز بين الفكرة الشائعة للتحديد الوراثي وبين المفهوم العلمي للقابلية الوراثيّة الذي تنبني عليه جميع معطيات هيرنشتاين وموري. يدلّ التحديد الوراثي على كل ما ينتج السمات: عدد أصابع الأرجل محدّد وراثيا لأن امتلاكنا

لخمسة أصابع مقنّن بمورّثاتنا ؛ بينما تدل القابلية الوراثية على ما ينتج الفروق المتعلقة سمة معيّنة. تشير قابلية وراثة عدد الأصابع إلى أي مدى تنتج فروق وراثية تغيّرا في عدد الأصابع [لدى بعض القطط خمسة أصابع (مخالب) في حين نجد لدى البعض الآخر ستة مخالب]. ولذلك فإن القابلية الوراثية تُعرَّف، هي أيضا، بنسبة : فهي تساوي نسبة التغيّر الوراثي الأصل على التغيّر الكلي (الناجم عن المورّثات إضافة الى التغيّر البيئي الأصل). وخلافا لهذا، فإن التحديد الوراثي لا يخضع لتعريف عددي، وهو يتضمّن فكرة سلامة البيئة. نقول عن سمة إنها محددة وراثيا إذا كانت مقننة وتنتج عن المورّثات الخاصة بها، وكانت تنمو في البيئة العادية. ولذا فإن التحديد الوراثي يحمل معنى لدى الفرد – لون شعر الأسمر محدّد وراثيا – بينما لا تحمل القابلية الوراثية معنى إلا بالنسبة لمجتمع معيّن، أفراده مختلفون. إننا لا نستطيع طرح السؤال التالي : "ما هي القابلية الوراثية لنسبة ذكائي ؟".

إن عدد أصابع اليد أو الرجل عند الإنسان محدد وراثيا : ذلك أن خمسة أصابع في اليد وخمسة أصابع في الرجل مقننة بمورّثات أغلبية الناس، كما أن أصابع اليد الخمسة وأصابع الرجل الخمسة تنمو في كل بيئة عادية. غير أن القابلية الوراثية لعدد أصابع اليد وأصابع الرجل لدى الإنسان هي، بالتأكيد، ضعيفة جدا، لأن التغيّر في عدد أصابع الرجل يرجع، بالدرجة الأولى، إلى عامل البيئة (هي مسألة تتعلق، أساسا، بالنمو الجنيني). عندما تناولت نسوة حاملات مادة التاليدوميد (Thalidomide) منذ عدة سنوات، فقد ولد الكثير من الرضّع بأصابع في اليد وفي الرجل لا يصل عددها الى خمسة أصابع. إذا نظرنا الى عدد أصابع اليد والرجل لدى الراشدين، فإننا نلاحظ، أحيانا، نقصا في هذا العدد نتيجة لحوادث. غير أن التقنين الوراثي لستة أصابع نادر جدا لدى الإنسان (على الرغم من كثرته، فيما يبدو، لدى القطط). وهكذا تبدو التغيرات الناجمة عن المورّثات ضعيفة بالنسبة

للتغيرات البيئيّة المصدر. وبالتالي إذا سأل أحد: "هل عدد الأصابع أمر وراثـي؟ "، فإن الجواب اللائق سيكون : "هذا يتوقف عمّا تسمّونه وراثيـا". إن عـدد الأصـابع محدّد وراثيا، لكن القابلية الوراثية ضعيفة لأن المورّثـات ليسـت مسـؤولة عـن جـزء كبير من التغيرات. وعلى العكس من ذلك، فإنه من الجائز أن تكون إحدى السمات ذات قابلية وراثية عالية، دون أن تكون محـدَّدة وراثيـا. منـذ عـدة سـنوات كانـت النساء تعلّقن في آذانهن أقراطا، دون الرجال. كانت القابلية الوراثية لتعليـق الأقـراط في الأذنين مرتفعة، لأن الفروق في هذه السمة السلوكية "يتسـبب" فيهـا فـرق وراثـي (صبغيّ). والآن، لم يعد تعليق قرط في الأذن حكرا للنسـاء، ولـذا فالقابليـة الوراثيـة لهذه السمة صارت، دون شك، ضعيفة. إلا أن تعليق القرط لم يكن، في أي وقت من الأوقات، محدّدا وراثيا بـالمعنى الـذي تُحـدَّد بـه سمـة امـتلاك خمسـة أصـابع. إن الكتابات المخصصة للقابلية الوراثية مليئة بحـالات مـن هـذا النـوع: قابليـة وراثيـة مرتفعة من أجل سمات يعتبر تحديدها الوراثي موضع شك.

حتى عدد الساعات التي تُـقْـضى أمام التلفزة تندرج ضمن القابلية الوراثية

إن هذه الطرق التي تعطي قابلية وراثية لنسبة الذكاء تعادل 60% تنصّ أيضا على قابلية وراثية للمواهب المدرسية والجامعيـة تبلـغ 50%، وتـنصّ كـذلك علـى قابلية وراثية في الوضع المهني تقدّر بـ 40%□. وهذا رغم أنه من الواضح بأن الوضع المهني ليس محـدَّدا وراثيـا : العمـل في مصـنع يخـتص في صـنع الـدارات المدمّجـة (المطبوعة) ليس مقننا في المورّثات.

□. R. Plomin, J. De Fries & G. Mc Clean, Behavional Genitics, A Primer, Freeman, New York,1990, p. 393.

إن بيئة الطفل غالبا ما تمثّل، بشكل معبّر، ميزة قابلة للوراثة، وذلك رغم ما في هذا الأمر من غرابة. فإذا كانت الموهبة الموسيقية سمة ذات قابلية وراثية عالية، وكان التغيّر في الموهبة الموسيقية يؤثر على تغيّر عدد الدروس في مادة الموسيقى التي يتلقاها الطفل، فإن هذا العدد – لدروس الموسيقى – يمكن أن يكون، بدوره، قابلا للوراثة، رغم أنه لا يُحدّد وراثيا. ومن ثمّ، فإن العديد من الدراسات التي أجريت حديثا حول القابلية الوراثية لميزات مختلفة تتعلق ببيئة الأطفال، قد بيّنت بأن هذه الميزات تتمتّع بقابلية وراثية معتبرة : ذلك هو حال "حرارة" سلوك الأولياء إزاء أطفالهم. وحتى عدد الساعات التي يقضيها الأطفال أمام التلفزة، وكذا عدد الألعاب واختلاف أنواعها، لها صلة بالقابلية الوراثية. وإن بدت هذه النقطة صعبة الإدراك، دعنا نقدّمها بالطريقة التالية : ترجع تغيرات هذه الميزات البيئيّة – بصفة جزئية – إلى التغيرات في السمات القابلة للوراثة لدى الطفل؛ وبالتالي فالخواص البيئيّة هي ذاتها قابلة للوراثة. إنه غالبا ما ينقاد قراء كتاب "المنحنى الجرسي" إلى افتراض تنقل الميزات الوراثية عبر المورّثات. إن هذا التصوّر لا أساس له. إذ أن عدد الألعاب التي تقع في حوزة طفل ليست مقنّنة من قبل المورثات. والقابلية الوراثة تدلّ على ما يُنتج الفروق، وليس على ما "ينتقل".

لقد قدّمت بعض الأمثلة لسمات محدَّدة وراثيا، لكنها ليست قابلة للوراثة، وقدّمت أيضا أمثلة أخرى لسمات قابلة للوراثة، غير أنها لا تتحدّد وراثيا. هل

. R. Plomin & C. Bergeman, «The Nature of Nurture : genitic influence on 'environmental' measure», The Behavioral and Brain Sciences, 143, 373,1991.

أنظر أيضا :

S. Scatt & K. Mc Carney, "How people make their own environnments : A Theory of genotype-environment effects", Child development, 54, 424, 1983.

تعتبر تلك الأمثلة الغريبة ملائمة لحالة نسبة الذكاء ؟ ربما توجد حالات أخرى أقرب إلى الواقع والى نسبة الذكاء، ولا نلتقي فيها بالغرائب التي مرّت بنا آنفا ؟

لا، أبدا ! ذلك أن نسبة الذكاء هي، بالتحديد، مثال ممتاز لسمة ذات قابلية وراثية عالية، ليست محدّدة وراثيا. لنذكّر أن عدد أصابع الأرجل محدّد وراثيا لأن امتلاك خمسة أصابع أمر مقنّن بالمورّثات، بحيث أن الأصابع الخمسة تنمو في كل بيئة عادية. وعلى العكس من ذلك، فإن نسبة الذكاء تتأثر كثيرا بالتغيّرات البيئية العادية، وهذا عبر قنوات لا ندركها بصفة جيدة. وكما أشار هيرنشتاين وموري، فإن الأطفال الذين ولدوا في عائلات تعاني من الحرمان، ثم تمّ تبنّيهم من قِبل عائلات ميسورة من الناحيتين الاجتماعية والإقتصادية، كانت نسبة ذكائهم أعلى بكثير من نسب ذكاء ذويهم. وهي حقيقة أوضحها هيرنشتاين وموري فيما سمّوه بـ "فعل فلاين Flynn" : تتزايد نسبة الذكاء في كل مكان عبر العالم بثلاث نقاط كل عشرة أعوام. وقد ارتفعت هذه النسبة، منذ الحرب العالمية الثانية، في العديد من البلدان بخمس عشرة نقطة – وهو رقم قريب من الفارق بين السود والبيض في الولايات المتحدة. وفي بعض البلدان، كان ارتفاع نسبة الذكاء يفوق هذا الرقم. ففي هولندا، ارتفعت نسبة الذكاء بإحدى وعشرين نقطة خلال الفترة 1952–1982[□]. لو وُجد نوع يتأثر عدد أصابع أرجله بهذه الكيفية إزاء البيئة (تخيّل مخلوقا من نوع الزواحف المسمّاة "كثيرات الأرجل" والتي يتزايد عدد سيقانها كلما زاد غذاؤها) ؛ لا أظن أن أحدهم اعتبرعدد أصابع الرجل لدى هذا الحيوان، محدَّد وراثيا.

□. J. R. Flynn, Psychological Bulletin, 101, 2, 171, 1987.

والجدير بالإشارة هو جدّية المعطيات حول قوة ارتفاع نسبة الذكاء الهولندي. إن زيادة الإحدى وعشرين نقطة التي أشار إليها فلاين تستند الى اختبار أجري على جميع الهولنديين البالغين سنّ 18 سنة ممن نجحوا في فحص طبي (نسبة النجاح لم تتغيّر). ويتمتع الاختبار الذي اُعتمد – وهو المسمى "مصفوفات رافن (Raven) التدريجية" – بسمعة عالية. إنه اختبار "غير شفوي، وهو وسيلة ناجعة في قياس 'g' [الذكاء العام]" □. وقد كتب الجنسني* [نسبة الى مذهب عالم النفس الأمريكي جنسن Jensen] المتطرّف ريتشارد لين (Richard Lynn) – الذي غذّت كتاباته مؤلَف "المنحنى الجرسي" حول مسألة العرق – يقول : " إن نسبة التزايد بلغت تقريبا ثلاث نقاط كل عقد، أي خمس عشرة نقطة على مدى خمسين سنة. بل نلاحظ نسبة أعلى لدى الذين نوديَ عليهم لأداء الخدمة العسكرية في هولندا وبلجيكا، يصل معدّلها الى سبع نقاط في نسبة الذكاء خلال كل عقد". كما أشار لين إلى نتائج مشابهة في فرنسا □. وقد تقبّل هيرنشتاين وموري النتيجة القائلة إن "هناك ارتفاعا، في بعض البلدان، بلغ نقطة واحدة سنويا، خلال مدة معتبرة". وما يلفت الانتباه في هذا الحقل، الذي غالبا ما تكون فيه الوقائع محل جدل، أن هذه النتائج قد سلّم بصحتها كلا الطرفين.

هناك خلاصة أساسية ينبغي استنتاجها من معطيات فلاين، وهي أنه لا أحد يدرك كيف تؤثر تغيّرات البيئة على نسبة الذكاء. وبعبارة بسيطة فإن سبب الارتفاع القوي لنسبة الذكاء في هولندا مجهول. وحتى هيرنشتاين وموري، فهما يسلمّان بأن

□. The Bell Curve, p. 273.

□. R. Lynn, «Lynn replies to Flynn» in J. Lynch, C. Modjil. & S. Modjil, Cultural Diversity and the Schools, London, Falmer Press, 1992, p. 382.

"جزءا ضئيلا [من التغيّر الناتج عن البيئة] يمكن أن يكون مصدره المحيط العائلي. إذ أن هناك مجموعة تأثيرات بيئيّة [جلّها مجهولة في الوقت الراهن] يخضع لها الأشخاص بوصفهم أفرادا " (الجملتان الموضوعتان بين عارضتين [ ] هما لصاحب هذا المقال). والواقع أن العامل الحاسم الذي أتاح القيام بالأبحاث التي يستند إليها هيرنشتاين وموري هو كوننا نستطيع قياس القابلية الوراثية لسمة من السمات دون أن تتوفرة لدينا فكرة واضحة حول تلك السمة. وحتى نقيس القابلية الوراثية لنسبة الذكاء فلسنا في حاجة الى معرفة ما تقيسه اختبارات نسب الذكاء. ذلك أنه يكفي أن نتمكّن من قياس نسبة الذكاء – مهما تكن طبيعة هذا الكيان – في ظروف شتى.

وهناك ملاحظات إضافية حول القابلية الوراثية من شأنها أن تؤكد على ضرورة التحلي بالحذر الشديد عندما نرغب في استخلاص النتائج حول مصدر الفروق في نسب الذكاء. توجد طريقة معروفة لقياس القابلية الوراثية تتمثل في مقارنة نسبة ذكاء سلسلة من "التوائم الحقيقيين" (أصلهم من نفس البيضة)، وتربّوا على أيدي ذويهم البيولوجيين، مع نسبة ذكاء سلسلة من "التوائم غير الحقيقيين" (أصلهم من بيضتين مختلفتين)، وتربّوا أيضا على أيدي ذويهم البيولوجيين. لنفترض أننا أجرينا اختبارا لنسبة الذكاء على طفلين وأنهما تحصلا على نفس النقطة. ولنفترض أن لأحد الطفلين توأما حقيقيا وأن للثاني توأما غير حقيقي. هب أننا نستطيع التنبؤ، بصفة شبه قطعية، بنقطة التوأم الحقيقي، وأن التنبؤ سيكون ضعيفا في حالة التوأم غير الحقيقي. سيكون هذا الفرق دليلا على قابلية وراثية قوية في نسبة الذكاء، لأن التوائم الحقيقيين لهم نفس المورّثات، بينما يبدو أن التوائم غير الحقيقيين يتقاسمون نصف تلك المورّثات.

تبيّن الدراسات حول مجتمع البيض في الولايات المتحدة وأوروبا الغربية، أن معدل القابلية الوراثية لنسبة الذكاء مرتفع ارتفاعا طفيفا: يبدو الرقم 60% الذي أشار إليه هيرنشتاين وموري معقولا. لكن علينا أن ننتبه بأنه لا يجوز أبدا القيام بدراسة حول القابلية الوراثية في مجتمع مختلط (بالبيض والسود). وسبب ذلك بسيط: عندما نضع زوجا من التوائم الحقيقيين السود في بيئات مختلفة »مختارة بالصدفة« فإن البيئة ستصبح تلقائيا غير "عشوائية"**. إذ أن التوأم الأسود سيجلب معه جزءا من بيئته؛ فهما أسودان وستعالج حالتهما بوصفهما أسودان.

لنتصوّر أننا تمكّنا من إنشاء مجموعة مليون نسمة من فئة لوبان (Le Pen) وأننا قمنا بتربيتهم في بيئات مختلفة جدا

وزيادة على ذلك، وخلافا للتحديد الوراثي، فإن القابلية الوراثية تستطيع أن تتغيّر كثيرا حسب المجتمعات. إذا انتقينا عن طريق الصدفة، في المجتمع الذي وقع عليه الإختيار، نصف الأفراد لإخضاعهم الى عملية في الدماغ قصد التأثير على نسب ذكائهم فإن القابلية الوراثية في هذا المجتمع ستتقلص: بسبب إلحاق أضرار بالأدمغة، سنرفع من دور العامل البيئي في تغيّر نتائج نسب الذكاء. لنتصوّر أننا تمكّنا من إنشاء مجموعة مليون نسمة من فئة لوبان (Le Pen) [السياسي الفرنسي المتطرف]، وأننا قمنا بتربيتهم في بيئات مختلفة جدا، بحيث نحصل على تغيّر في نسبة الذكاء يرجع كله للعامل البيئي. عندئذ ستكون القابلية الوراثية في هذا المجتمع معدومة لأن نسبة التغيّر الوراثي على التغيّر الكلي معدومة، ذلك أن التغيّر الوراثي معدوم. لنسق مثالا واقعيا : إن القابلية الوراثية لنسبة الذكاء تتزايد طيلة عهد الطفولة والمراهقة. وقد قدّمت إحدى الدراسات قابلية وراثية أقل من 20%

خلال الفترة الأولى من الطفولة، و30% تقريبا خلال الطفولة، و50% خلال فترة المراهقة، وقابلية أعلى من ذلك بقليل خلال سنّ الرشد. ويوضح صاحب الدراسة أن النتائج ليست مرتبطة بدرجة الثقة المتزايدة في اختبارات نسب الذكاء[□]. كما أن بعض الدراسات أجريت في السويد على توائم لهم سن متقدّم نسبيا. وأفادت نتائج تلك الدراسات أن القابلية الوراثية تصل إلى 80% لدى الراشدين البالغين سنّ الخمسين مقابل 50% لدى توائم الأطفال[□].

هناك سبب محتمل، وهو أن التغيّر الوراثي لا يتغيّر بتغيّر العمر، بينما يتناقص التغيّر الراجع الى البيئة تناقصا تدريجيا. إن بيئة الأطفال تختلف عن ذلك اختلافا كبيرا: فهناك بعض الأولياء الذين لا يتحادثون مع أطفالهم، وهناك من لا يتوقفون عن استشارتهم ويثيرون معهم المناظرات الشفوية. وفي الدول المصنّعة، نجد أن بيئة الأشخاص الراشدين أكثر تجانسا : فهم منغمسون في الثقافة المشتركة (حيث يتفرجون مثلا على نفس الحصص التلفزيونية، الخ). وكلما كانت البيئة متجانسة كانت القابلية الوراثية قوية. أأمل في أن تُزيل هذه الحجج المحاولة (الواضحة في كتاب "المنحنى الجرسي") الرامية الى جعل القابلية الوراثية لنسبة الذكاء من الثوابت (مثل سرعة الضوء). إن القابلية الوراثية مُعْطَى إحصائي يرتبط بالمجتمع، شأنها شأن معدل نسبة الولادات وعدد أجهزة التلفزة، ولذا فمن المتوقع أن تتغيّر مع الظروف: ليس هناك أي مبرر يجعلنا نعتقد بأن القابلية الوراثية لنسبة الذكاء بالهند تشبه مثيلتها بكوريا.

□. R. Plomin, Nature and Nurture, Brooks-Code, Pacific Grove, 1990.

□. N.L. Pedesen, R. Plomin, J. Nesselroade & G. McLearn, Psychological Science , 3, 6, 346, 1992.

إنـه مـن المـؤلم أن نجـد شـارل مـوري غـير مـدرك لهـذه النقـاط الأساسـية. فقـد أعلـن في اسـتجواب أجرتـه معـه قنـاة التلفـزة (CNN)[1] – نقـلا عـن صـحيفة (The New Republic) – أن "عندما نتحدّث عن قابلية وراثية تساوي 60% فهـذا لا يعني 60% من التغيّر ؛ بل هو 60% من نسبة ذكاء فرد معيّن". وعقب ذلـك، كرّر موري قوله بأن "60% من الذكاء تأتي وراثيا" بالنسبة للفـرد المتوسـط، مضـيفا أن ذلك يصدق على "جنس البشر"، في حين لا نجد معنى لقابليـة الوراثـة بالنسـبة لفـرد واحـد : لأن إحصـائية القابليـة الوراثيـة لا تحمـل معنـى إلا إذا تعلـق الأمـر بمجتمع. ثم اشتكى شارل موري، في رسالة موجهة إلى الصحيفة المشار إليها أعلاه، من كونه ذُكر في سياق غير مناسب، واستدرك هذا الخطأ موضحا فكرتـه قـائلا : " ... ربما تكون نسبة ذكائك قد حدّدتها بالدرجة الأولى، مورّثاتك، وربما حدّدتها – لك شخصيا – البيئة، بالدرجة الأولى. وهذا الأمر قد يتغيّر كثيرا من شخص لآخـر. وفيما يخص جنس البشر إجمالا، فإن المركبة الوراثية بالغة الأهمية"[2]. والملاحظ أن كتاب "المنحنى الجرسي" ذاته لا يحمل بين طياته مثل هذه الأخطاء المزعجة. ذلـك أن الراحل هيرنشتاين – أحد مؤلفيْ الكتاب – كـان يعـالج هـذه المواضـيع بطريقـة احترافية. لكننا نرى بأن قوة الإقناع في الاستدلال المركزي يعتمد جزئيا، على لـبس دقيق بين القابلية الوراثيـة والتحديـد الـوراثي. والخلـط الـذي ارتكبـه مـوري يُـبرز الصعوبة الكامنة في هذين المفهومين، حتى لدى شخص ملمّ بثقافة علمية متينة. كان أرثر جنسن قد أثار هذا الجـدل، سـنة 1969، في مقـال بمجلـة التربيـة لجامعـة

[1]. 02/01/1995.
[2]. 30/01/1995.

هارفارد (Harvard Educational Review) حيث تحجج بالقابلية الوراثية لنسبة الذكاء لدى البيض، وذلك للدفاع عن فكرة الفرق الوراثي بين البيض والسود، من وجهة نظر نسبة الذكاء[]

وبعد سنة، ردّ على هذا المقال ريتشارد لونتين (Richard Lewontin) المختص في علم الوراثة، موضحا الخطأ بواسطة رسم (أنظر رسم "تجربة التفكير لريتشارد لونتين" ضمن هذا المقال). لنفترض أنك اشتريت كيسا من حبوب الذُّرة العادية؛ وأنك قمت بزرع كمشة منها في بيئة مراقَبة بحيث تتلقى كل بذرة نفس كمية الضوء ونفس المحلول الغذائي. سيتغيّر ارتفاع النبتات. وبما أن البيئة هي نفسها بالنسبة لجميع تلك النبتات، فإن القابلية الوراثية – كما هي معرّفة أعلاه – لارتفاع النبتات ستكون 100%. خذ الآن كمشة أخرى من نفس الكيس وازرعها ضمن بيئة لها نفس المواصفات السابقة، لكن بكمية محلول غذائي غير كافية. في هذه المرة أيضا، سيتغيّر ارتفاع النبتات، غير أنها ستكون كلها ضامرة. إن القابلية الوراثية لارتفاع نبتات الذّرة في الحالة الثانية ستكون أيضا تعادل 100% فرغم قابلية وراثية تقدّر بـ 100% في كلا الحالتين، سيرجع الفرق في الارتفاع بين الفئتين، كله إلى البيئة. وهكذا يمكننا الحصول على قابلية وراثية كاملة داخل كل فئة مع فرق محسوس بين الفئتين، وهذا دون فرق وراثي بين الفئتين.

إن قيمة هذا المثال بالنسبة لمسألة العرق واضحة: فهو يعني أن القابلية الوراثية لنسبة الذكاء لدى البيض مرتفعة. لكن لونتين يبيّن بأن القابلية الوراثية المرتفعة

[]. A. R. Jensen, «How much can we boost IQ and scholastic achievement ?», Harvard Educational Review, 391-123, 1969.

داخل فئة لا تسهم أبدا في تفسير الفرق بين الفئات؛ وبوجه خاص، فهي لا تسمح بالحديث عن فرق ذي طابع وراثي. كما أن ارتفاع القابلية الوراثية داخل فئة لا تمنحنا معلومات إضافية حول مغزى فرق وراثي محتمل بين الفئات. فربما كانت حبات الذُّرة التي تولّدت عنها النبتات الضامرة ذات ارتفاع أعلى – من الناحية الوراثية – إلاّ أن الحرمان البيئي أزال هذه الخاصية.

لقد اُفترض في مثال لونتين بأنه لا توجد فروق وراثية بين فئتي الذُّرة. لنفترض أننا لا نعلم شيئا حول فئتين من المخلوقات الحية عدا أنهما تختلفان بخمس عشرة نقطة في نسبة الذكاء، وأن لكل فئة قابلية وراثية معيّنة. هب أنه ينبغي علينا تحديد سبب ذلك. فبمراعاة كل ما ذكرناه لحد الآن، يبدو من المعقول أن نميل إلى الاعتقاد بأن الفئة التي لها قابلية وراثية ضعيفة فئة متضررة على المستويين الوراثي والبيئي. سأبيّن بأن حتى هذا المبدأ الضعيف مبدأ خاطئ. لنلاحظ بأنه لا ينطبق على القضية العرقية التي نمتلك بشأنها بعض المعلومات. نحن نعلم أن البيئة قادرة على التأثير في نسبة الذكاء تأثيرا كبيرا (نذكّر بـ "فعل فلاين" وازدياد ثلاث نقاط كل عشر سنوات وبلوغ إحدى وعشرين نقطة بهولندا). كما نعلم، من الناحية البيئية، بأن السود الأمريكيين يعانون من الحرمان بشكل يؤثر على نسبة ذكائهم. غير أننا لا ندري كيف نقوم بقياس تأثير التعامل مع فئة باعتبارها "دون العادية Infranormal"؛ ولا تأثير الإرث التاريخي للرّق والميز العنصري. كيف يمكننا القول إن انعكاسات هذه الآثار كافية لتخفيض نسبة الذكاء بخمس عشرة نقطة أو بأقل من ذلك أو أكثر ؟ فنظرا للرهان الاجتماعي الذي يحيط بهذه المسألة فإننا لا نستطيع الاقتصار على اللعب بالألغاز.

إن الفرق في نسب الذكاء بين السود والبيض

أضعف لدى الفئات الدنيا اجتماعيا واقتصاديا

وبطبيعة الحال فقد أنصت هيرنشتاين وموري للحجج القائمة حول إرث الرق والميز العنصري. وقد أجابا عن ذلك بالإشارة، في آن واحد، إلى مظهر توزّع الفروق العرقية ومداها.

لنبدأ بمظهر توزع هذه الفروق. يذكّر هنا هيرنشتاين وموري بأن فرق نسبة الذكاء بين السود والبيض أضعف لدى الفئات الدنيا اقتصاديا واجتماعيا. ومن ثمّ، فهما يتساءلان : "إن كان الفرق بين السود والبيض يرجع كله إلى البيئة، فلماذا نجد التفوق في البيئة "البيضاء" بالنسبة للبيئة "السوداء" أعلى لدى الفئات الميسورة والأكثر تعلما عند السود والبيض؟ لم نتمكن من إيجاد تفسير مقبول لذلك. إن التحجج بآثار التمييز والميز العنصري لتفسير الفروق العرقية يتطلب تفسير سبب حصول فئات أخرى – لها أيضا بيئة مسمّمة بالميز العنصري، مثل الصينيين واليهود في بعض مناطق الولايات المتحدة – على علامات في نسب الذكاء أفضل من المعدل القومي."

ورغم ذلك فإن هذه الحقائق ليست صعبة الإدراك. إن السود والبيض يشكّلون، في أغلبيتهم، فئات ثقافية مختلفة، وليس هناك ما يدعو للاعتقاد بأن عاملا، كعامل الوضع الاجتماعي والاقتصادي، ينبغي أن يكون له نفس المغزى في كل الثقافات. وقد ذكر هيرنشتاين وموري عمل الأنثوبولوجي جون أغبو (John Ogbu) الذي ميّز بين عدة فئات من الأقليات المستضعفة□. هناك فئة أساسية وهي فئة الأقليات "من

□. J. Ogbu, «The consequences of the American caste system », in U. Neisser (ed.), The School Achievement of Minority Children : New Perspectives, 1986, p. 19-56.

النوع الطائفي الطبقة المغلقة (caste)" التي تعتبر نفسها (ونعتبرها) فئة دنيا، والتي لم يكونوا أهلها من المهاجرين الراغبين في الهجرة (إن كانوا من المهاجرين). وتشتمل هذه الفئة على الهاريجان (Harijans) في الهند وعلى البوراكومين (Burakumins) والكوريين في اليابان وعلى الماوريس (Maoris) في زيلندا الجديدة. وقد ميّز أغبو بين هؤلاء وبين الفئات الأخرى كالصينيين واليهود الذين هاجروا عن طواعية، والذين لهم ثقافة تجعلهم يعتبرون أنفسهم في مكانة راقية. وإذا كان السود ذوو الوضع الاجتماعي والاقتصادي الراقي ينتمون – إلى حد ما – لأقلية من النوع "الطائفي" فسيعانون، بيئيّا، مقارنة بالبيض الذين يتمتعون بنفس الوضع. لكن الظاهر أن السود والبيض ذوي الوضع المتدني يشتركون في الانتماء الى بيئة من النوع "الطائفي". وكما لاحظ هنري لويس غاتس (Henri Louis Gates Jr)، فعقب برنامج " Affirmative Action *** (الفعل الإيجابي)"، تضاعف عدد السود المنتمين الى الطبقة المتوسطة أربع مرات منذ 1967 □. وقد التحق معظم هؤلاء السود بالطبقة المتوسطة مؤخرا؛ وحدث ذلك في معظم الأحيان، في ظروف بعيدة عن المثالية التي تنمّي الاعتبار الذاتي. ولذا سيكون من الغريب أن يتمكّن أطفال هؤلاء السود، خلال هذه المدة الوجيزة، من التخلص كليا من ثقافتهم "الطائفية".

وأشار أغبو إلى أن نتائج اختبارات نسب الذكاء لـ "أطفال تلك الأقليات من النوع 'الطائفي' كانت أقل من نتائج أطفال الفئة المهيمنة بعدد نقاط يتراوح بين عشر نقاط وخمس عشرة نقطة ". ولاحظ أيضا بأن الفروق لا تزول "عندما يكون أعضاء الفئة المهيمنة وفئة الأقلية يشتركان في نفس الوضع الاجتماعي والاقتصادي". ورغم

□. New Republic, 31/10/1994.

هذا، فعندما "يهاجر أعضاء من النوع "الطائفي" الى مجتمع آخر يبدو أن مسألتي ضعف علامات نسب الذكاء والتخلف الدراسي لا تطرحان"□. هناك معطيات توحي بأن البوراكومين المهاجرين الى الولايات المتحدة "يوفّقون [مثلهم مثل يابانيين آخرين] في المدرسة وكذا في الحياة المهنية".

لنتصوّر ثقافة يتلقّى فيها الأطفال ذوو الشعر الأشقر ضربات خلف الرأس بشكل منتظم

لنتناول الآن قضية "مدى الفروق العرقية" : لقد قام هيرنشتاين وموري بحسابات أدت بهما الى استخلاص أنه " يجب أن تكون البيئة المتوسطة للسود في مستوى الـ 6% من البيض الأكثر حرمانا [...] حتى تُنسب الفروق العرقية إلى البيئة". وبعبارة أخرى، لكي نفسّر فارق الخمس عشرة نقطة بالعامل البيئي ينبغي أن تكون لـ 94% من البيض بيئة – لنمو نسبة الذكاء – أفضل من البيئة المتوسطة للسود. لا يعتقد هيرنشتاين وموري أن هذا الأمر معقولا لأن المعطيات التي تقيس البيئة – مثل الدخل العائلي أو نوعية المدارس – لا تبيّن بأن 94% من البيض يتمتّعون ببيئة أفضل من البيئة المتوسطة للسود. لكن هذا الحساب لا يراعي عامل الانتماء إلى فئة "الأقلية من النوع 'الطائفي' ". لنقارن الهولنديين الذين بلغوا سنّ 18 سنة عام 1982 مع آبائهم الذين كانوا في ذلك السنّ عام 1952. إن الفرق بينهما يعود كله إلى البيئة، رغم احتمال ارتفاع القابلية الوراثية في كل فئة. بتطبيق طريقة هيرنشتاين وموري، قدّر فلاين بأنه ينبغي أن تكون لـ 99% من فئة 1982

□. J. Ogbu, «The consequences of the American caste system », op. cit, p. 32-33.

بيئة أفضل من بيئة شخص متوسط في فئة 1952، وهذا حتى يكون ارتفاع نسبة الذكاء مفهوما□. ونظرا لحجم هذه الفروق بين أفراد ينتمون إلى نفس الثقافة، ولا يفصل بينهم سوى جيل، فهل من غير المعقول أن تكون لـ 94% من البيض بيئة أفضل من الأسود "الوسيط" **** ؟

وهكذا يتضح أن هناك فروقا بيئيّة – بما فيها تلك التي نجدها لدى السود الأمريكيين – تؤثر بشكل محسوس على نسبة الذكاء. وفضلا عن ذلك، فإننا لا نمتلك حاليا أية إمكانية تسمح لنا بالتقدير العددي لهذا التأثير، وعليه ينبغي ألا نستخلص أية نتائج بخصوص احتمال وجود تخلف أو تفوق وراثي في نسبة الذكاء لدى السود. إذن، فإن تطبيق المبدأ الأساسي – المشار إليه أعلاه – على نسبة الذكاء غير سليم : إن مزج ارتفاع القابلية الوراثية في مجتمع أبيض مع الفروق المستمرة بين السود والبيض لا يعزّز أطروحة الفرق الوراثي.

لنتصوّر ثقافة يتلقّى فيها الأطفال ذوو الشعر الأشقر ضربات خلف الرأس بشكل منتظم، مع حسن معاملة الأطفال الآخرين□. ستكون القابلية الوراثية لنسبة الذكاء المُقاسة مضخّمة، لأن نسبة ذكاء التوائم الحقيقيين ذوي الشعر الأشقر ستميل إلى التشابه – وهي منخفضة جدا – مهما كانت طبقة العائلة الاجتماعية التي نشأوا فيها.

□. J.R. Flynn, «Race and IQ : Jensen's case refuted», in S. Modjil & C. Modjil (ed.), Arthur Jensen : consensus and controversy, Falmer Press, London, 1987, p. 221-232.

□. C. Jensen, M. Smith, H. Acland, M. Bane, D. Cohen, H. Gintis, B. Heyns & S. Michelson, Inequality: A Reassessment of the Effects of Family and Schooling in America, Basic Books, New York, 1972.

يسمى تأثير المورّث الذي يقنّن لون الشعر الأشقر تـأثيرا "مباشـرا" لأن المـورّث يصيب اللون بطريقة بيوكيميائية داخلية. وخلافا لذلك، يؤثر مورّث على سمة بصفة "غير مباشرة" إذا نتج عنه تـأثير مباشـر يتفاعـل مـع البيئـة (أنظـر رسـم "القابليـة الوراثية غير المباشرة"). وفي حالة نسبة الذكاء، فلا أحد يدري كيف نميّز بين الآثار الوراثية المباشرة وغير المباشرة، ذلك أنه لا أحد يدري كيف تـؤثر المورّثـات والبيئـة على نسبة الذكاء. وبالتالي، فنحن لا نعلم مـا إذا كانـت القابليـة الوراثيـة – الـتي تقـارب 60% – في المجتمعـات البيضـاء، هـي قابليـة وراثيـة مباشـرة أو غـير مباشرة**** كما لا نعلم نطاقها.

إن المنهجية المتبعة في قياس القابلية الوراثية تخفي جهلنا لهـذا الجانـب، إذ أنها تفترض، كلما تعلق الأمر بوجود فرق وراثي، بأن الفروق بخصوص سمة معيّنـة هي ناتجة عن ذلك الفرق، وذلك حتى في حالة تواجد فرق ذي طابع بيئي. ويترتب عن ذلك تشوّه في تفكيرنا حول مفهوم "السبب". إذا طبقنا هذه المنهجية على مثالنا فإنها ستركّز على الفرق بين مورّثات الشقر ومورّثـات غيرهـم، دون الـتحجج بكـون الأطفال الوحيدين الذين يخضعون للضرب هم الشقر.

ذكرت آنفا أن تعليق قـرط في الأذن كـان، فيمـا مضـى، محـل قابليـة وراثيـة عالية، لأن الفروق في هذه السمة كانت "تكمن" في الفرق XY/XX. لقد وضعت لفـظ "تكمن" بين " " لأن المنهجية المذكورة أعلاه تـؤدي الى تـبني الاتفـاق الضـمني بـأن المورّثات تهيمن على البيئة. عندما كانت النسـاء هـن الوحيـدات، تقريبـا، اللـواتي تعلّقن قرط الأذن، كان التغيّر في هذه السمة – على الرغم من أنه اجتماعي ووراثي في آن واحد – يعتبر قابل للوراثة إلى حد كبير. إذا طرأ فرق وراثي في السلاسل السببية

المؤدية إلى تغيّر في إحدى السمات فإن التغيّر يُعتبَر وراثي المصدر، حتى لو طرأ فـرق بيئي بنفس المفعول. لنفترض أننا تبنّينا وجهة النظر العكسية المتمثّلة في استخلاص وجود حتمية بيئية لا لشيء سوى لأن السلاسل السببية تحتوي على تغيّر ذي طابع بيئي.. عندئذ ستكون المنهجية السارية المفعول غير عملية، إذ أن التقنيات الحاليـة لا توفر لنا طريقة عامة تسمح باستكشاف الآثار الوراثية غير المباشرة. وحسب وجهة النظر التي اخترناها فإن وجود آثار وراثية غير مباشرة ومحسوسة ستؤدي إلى فـرق جذري في القابلية الوراثية.

كنا رأينا بأن القابلية الوراثية تُعرَّف كنسبة: إنها التغيّر الذي تتسبّب فيه الفروق الوراثية مقسوما على التغيّر الكلي، ثم إن قياس التغيّر الذي يستعمل دائما (رغم وجود إمكانيات أخرى) هو كمية إحصائية المغايرة (variance). هناك عامل يزيد في قيمة المغايرة وهو وجود ارتباط إيجابي بين المتغيّرات الوراثية (نتحدث عندئذ عن التغاير covariance). لنتخيّل بأن الأطفال الذين يتمتعون بمورّثات مساعدة للمواهب الموسيقية لهم – أكثر من غيرهم – أولياء يوفرون لهم بيئة مناسبا لنموّ هذه المواهب: دروس في الموسيقى، حفلات موسيقية، توفير مجموعة من الأقراص المضغوطة (CD) الموسيقية، مناقشات حول الموسيقى خلال الأكل، الخ. ولنتخيّل أيضا أطفالا متضررين، وراثيا، فيما يخص الموهبة الموسيقية، وأن بيئتهم أيضا لا تساعد هذه الموهبة. إن الارتباط بين المورّثات والبيئة سيجعل هؤلاء الأطفال في طرفين متعارضين على سلّم التوزيع، وهو ما سيزيد في تغاير الموهبة الموسيقية.

إنه لا يجوز أن ندمج تغاير المورّثات–البيئة مع المركبة الوراثية للمغايرة. هناك طرق مختلفة لفصلها عنه. من المعتاد في علم وراثة السلوك التمييز بين عدة أنواع من

التغايرات□. والتغاير الذي أشرنا إليه آنفا (في حالة الأولياء الـذين يمنحـون، في آن واحد، مورّثات وبيئة مساعدة للمواهب الموسيقية) يسمى تغايرا سلبيا (passive) لأنه لا يتعلق بما يقوم به الطفل. وفي حالـة التغـاير المسـمى ارتكاسـيا (reactive)، فإننـا نراعي كون البيئة تتفاعل مع إيجابيـات الطفـل: كـأن تـوفر إحـدى المـدارس مـثلا دروسا إضافية في الموسيقى للأطفال الذين تظهر فيهم مواهب موسيقية. ونتحدّث عن التغاير النشط (active) إذا علمنا أن الطفل يخلق ارتباطا مورّثات – بيئة : كأن يقوم طفل موهوب في الموسيقى بتشغيل خياله حول مواضيع موسيقية أو أن يقوم باستثمار البيئة الموسيقية. من الممكن دمج التغاير السلبي في حسابات القابلية الوراثية، وذلـك بفضل دراسات التبنّي التي تسمح بإزالة حالات الامتياز المزدوج وكذا حالات التضرر المزدوج. بينما لا نسـتطيع وضـع التغـايرين الإرتكاسـي والنشـط موضـع قيـاس دون إدخال افتراض خاص حول الطريقة التي تؤثر بها البيئة علـى نسـبة الـذكاء. وهـي نقطة لا نعرف عنها الكثير، كما أسلفنا، وأطراف هذا النقاش متفقون على ذلك.

وهكذا فإن التمييز بين التغاير النشط والتغاير الإرتكاسي أمر يخـرج عـن نطـاق الطرق الراهنة في علم وراثة السلوك. ذلك أن هذه الطرق تركت مسألة معرفـة مغـزى نسبة الذكاء مسألة معلّقة : هل هي ملكة معالجة الخبر أو هي الطريقة التي تُستَغل بها هذه الملكة، وفي هذه الحالة فالأمر يتعلق بوجه خاص، بالانتبـاه ؟ ثـم إن هـذه الطرق تضع جانبا مسألة معرفة إلى أي مدى تتأثر نسبة الذكاء بالبيئة.

تفترض تحاليل التغاير وجود مورّثات لنسبة الذكاء، وتفترض أن هذه المورّثات قد تصيب البيئة بشكل ينتج رد فعل على نسبة الذكاء، مرتبط بالتأثير الناتج مباشرة

□. J. Loeblin & J. De Fries, Behavior Genetics, 17, 3, 263, 1987 ; R. Plomin, J. De Fries & J. Loeblin, Psychological Bulletin 84, 2, 309, 1977 ; Plomin, Nature and Nurture, op. cit.

عن المورّثات. لكن التأثير الوراثي غير المباشر لا يؤدي أبدا، كما يبيّن مثال الأطفال الشقر، إلى وجود "مورّثات لنسبة الذكاء" أو الى أي شيء من هذا القبيل.

وبما أننا لا نعلم الكثير حول الكيفية التي يؤثر بها التغيّر البيئي على نسبة الذكاء فلا سبيل لنا سوى صياغة الافتراضات حول الكيفية التي يؤثر بها التغيّر الوراثي بصفة غير مباشرة على نسبة الذكاء، عبر البيئة. لنفترض أن جمال طفل وثقته بنفسه يؤثران، عموما، على سلوك الراشدين، وأن هذا التأثير يفسر جزءا كبيرا من تغيّر نسبة ذكاء الأطفال□. يمكننا، طبعا، تصوّر أن الراشدين يولون انتباها أكبر لبعض الأطفال بالنسبة للآخرين، وأن هذا لا يؤثر في نسبة ذكائهم؛ إلا أن العكس أيضا وارد. ولنسلّم كذلك بأن الجمال والثقة بالنفس عاملان ذوا قابلية وراثية عالية. سنكون، عندئذ، أمام حالة ممتازة يحدث فيها تأثير وراثي بصفة غير مباشرة. ثم إن هذا التأثير ربما يُظهر، حسب علمنا، القابلية الوراثية لنسبة الذكاء. بدون فهم الطريقة التي تؤثر بها البيئة على نسبة الذكاء فإنه لا حيلة لنا تمكّننا من تحديد كمية مغايرة نسبة الذكاء التي تعتبر مغايرة وراثية غير مباشرة. وبطبيعة الحال، لو علمنا أن سلوكا راشدا، متمخضا عن خاصية قابلة للوراثة لدى الطفل، هو المسؤول فعلا عن جزء كبير من تغير نسبة الذكاء لاستطعنا قياس هذا السلوك. غير أنه لا توجد أية نظرية في مجال الذكاء ونسب الذكاء تسمح بإدراك هذا النوع من العوامل بصفة جدية. إننا نرى بأن قسطا كبيرا من القابلية الوراثية الناتجة عن آثار وراثية غير مباشرة (بما فيها ارتباط المورثات–البيئة) تقع خارج حدود ما يمكن قياسه وذلك نظرا لعاهة الطريقة المتوفرة اليوم والتي تفتقر الى كثير من"التقنين".

□. Scart & Mc Cartnrey, How People make their own environment, p.427..

أيــن يظهــر، إذن، التغــاير مورّثــات–بيئــة في حســابات القابليــة الوراثيــة ؟ الجواب : إن الآثار النشطة والإرتكاسية التي لا نعرف كيف نقيسها تقع، بالتأكيد، في المركبة الوراثية. وهناك العديد من علمـاء الوراثـة لا يجـدون مـا يضـيفون في هـذا المقام[1]. لو تمكّن الباحثون من التعرّف عن تأثير غير "اِسْـتِحْـقَاقرَاطِــي (أي خاضـع لقاعدة الاستحقاق) meritocratique" مثل التأثير غير المباشر للشعر الأشقر، لأدخلوا، قطعا، المغايرة الناتجة عن هذا التأثير بوصفها تغايرا بدل اعتبارها مغايرة وراثية. لكننا لا نعلم أي شيء حول حصة العامل الوراثي في الـ 60% من مغايرة نسبة الذكاء. ومن الناحية العملية، فإن التغاير الناتج عن الآثار غير المباشرة التي نسـتطيع قياسـها – على الأقل في الحالات التي لا يرتبط فيها التغـاير، بشـكل واضـح، بالاسـتحقاق – ليست محتواة في حساب القابلية الوراثية؛ بينما نجد آثارا أخرى غير مباشرة محتواة في حساب القابلية الوراثية، باعتبارها وراثية. إذن، فما ندخلـه في المغـايرة الوراثيـة (التي تزيد في القابلية الوراثية) يتعلق بأحكامنا التقويمية وبما نلمّ به حول الآثار عند بدء المغايرة. والملاحظ أن ذلك يجعل القابلية الوراثية مفهوما علميا سيئا جدا.

تقبّـل علم وراثة السلوك، كمسلّمة، الطرق الحالية التي تسمح بقياس القابلية الوراثية لنسبة الذكاء

بيد أن علم وراثة السلوك تقبّل، كمسلّمة، الطرق الحالية الـتي تسـمح بقيـاس القابلية الوراثية لنسبة الذكاء. وبدون هذه الفرضية، سيكون الاستنتاج الصحيح على

---

[1]. R.C. Roberts, « Some concepts and methods in quantitative genitics », Behavior-Genitics », Behavior-Genitics Analysis, Mc-Graw-Hill, J. Hirsch (ed.), New York, 1967, p.214-257; A.R. Jensen, Educability and Group Differences, Harper and Row, New York, 1973.

النحو التالي : بما أننا لا نستطيع فصل الآثار الوراثية غير المباشرة (بما في ذلك بعض أشكال التغاير مورّثات–بيئة) عن المغايرة الوراثية المحضة، فإنه من المستحيل أن نقوم بأي تقدير للقابلية الوراثية. لماذا يتقبّل علم وراثة السلوك هذه المسلّمة؟ إنه لا يمكنني ألا أفسر ذلك – جزئيا – بحداثة عهد هذا العلم، الذي يناضل من أجل كسب الاعتراف والتمويل؛ ومن ثم فهو يستعمل القابلية الوراثية كوسيلة لجلب الانتباه□.

لنعد إلى الفرضية القائلة إن القابلية الوراثية البالغة 60% التي لوحظت لدى البيض كلها غير مباشرة وترجع الى المعاملة التفضيلية للأطفال حسب مميزاتهم القابلة للوراثة. عندئذ تكون القابلية الوراثية المباشرة تعادل الصفر، وفي هذه الحالة لن يكون هناك ما يدعو للاعتقاد أن "مورّثات نسبة الذكاء" أو أي شيء آخر (مثل المورّثات المقنّنة لإمكانية معالجة المعلومات) يتغيّر في المجتمع الأبيض. كما أنه لا يوجد ما يدعو للبحث عن الفروق الوراثية لتفسير النقاط الخمس عشرة الممثلة للفارق بين السود والبيض. بل إن تفسير هذا الفارق يدعونا إلى البحث عن الفروق في الطريقة التي يتعامل بها الراشدون مع الأطفال. وبالتالي فإن القابلية الوراثية غير المباشرة تؤدي إلى صياغة فرضية بيئويّة تكون أساسا محتملا لسياسة اجتماعية. هل هناك ما يجعلنا ننتظر آثارا وراثية غير مباشرة تساهم في تفسير الفارق المسجّل بين السود والبيض؟ لقد أشرت إلى المثال البديهي المتعلق بالمورّثات المقنّنة للون البشرة. لكنه بالإمكان إيجاد آثار غير مباشرة أخرى، أقل بداهة. هناك أثر غير مباشر محتمل يتعلّق بالوزن عند الولادة. وهكذا فإن نسبة المواليد الذين يقل وزنهم، لحظة الولادة، عن المعتاد لدى السود تفوق كثيرا النسبة التي نجدها لدى البيض. ليس

□. أنظر : Plomin, Nature and Nurture, op.cit.

هناك ما يمنعنا من تقديم تفسير وراثي لهـذه الظـاهرة[□] . إذا كانـت للسـود مورّثـات تجعلهم عُرضة، أكثر من البيض، لنقص الوزن عند الولادة، فإن أثر تلـك المورّثـات قد يكون قابلا للزوال بتناول حمية غذائية مناسبة خـلال مـدة الحمـل أو بالخضـوع لعلاج طبي. إنه لا يخطر ببال أحد اعتبار المورّثات المحدّدة للوزن عنـد الـولادة كــ "مورّثات لنسبة الذكاء".

إن كل ما تطرقنا إليه بخصوص موضوع القابلية الوراثية غير المباشرة يبيّن بأنه من غير اللائق أن نستخلص وجود نقص وراثـي بالاعتمـاد علـى الإحصـائيات ذات الصلة بالقابلية الوراثية. وسيكون مثل هذا الاستنتاج معقولا لـو افترضـنا أن القابليـة الوراثية لنسبة الذكاء عند البيض تعكس فرقـا في نسـبة الـذكاء تسـبب فيـه فـرق في مورّثات نسبة الذكاء. غير أن تحليلنا للقابلية الوراثية غير المباشرة يبيّن بأننا لا نعلم ما إذا كان هناك قسط من التغير الموجود لدى البيض يرجع الى تغيّر مورّثـات نسـبة الذكاء. وطالما لم ندرك الآليات التي تحدّد الـ 60% من القابلية الوراثية لدى البيض فإننا لا نستطيع تقبّل أي شكل من أشكال التعميم التي تشمل السود.

دعنا نصف مجموعة مورّثات (Genome) فرد بأنها ناقصـة وراثيـا فيمـا يتعلـق بنسبة الذكاء عندما تنتج عن تلك المجموعة نسبة ذكاء ضـعيفة في بيئـة عاديـة. مـا الذي سنعتبره بيئة عادية ؟ في المثال الذي ناقشـناه أعـلاه، كانـت المورّثـات المقننـة للشعر الأشقر تنتج نسبة ذكاء ضعيفة ضـمن بيئـة نعتبرهـا عاديـة في هـذا المجتمـع الافتراضي، بينما لا نجد علاقة لمورّثات الشعر الأشقر مع نسبة الـذكاء في المجتمـع الذي نعتبره عاديا. ماذا يحدث الآن إن كانت القابلية الوراثيـة المسـجلة بخصـوص

□. E. Leiberman, New England Journal of Medicine, 332, 2, 117, 1995.

نسبة الذكاء هي نتيجة آثار مباشرة بمقدورنا تغييرها بإجراء تعديلات على الممارسات الاجتماعية ؟ ستكون عبارات مثل "ناقص وراثيا فيما يخص نسبة الذكاء" و"تضرر وراثي بخصوص نسبة الذكاء" قابلة للتطبيق فقط على مجموعات المورّثات التي تنتج عنها نسبة ذكاء ضعيفة مهما كانت الممارسة الاجتماعية – كحالة المنغولية (التريزوميا21 Trisomie).

نفس الاستدلال ينطبق على الاكتشاف (المحتمل) الحديث لمورّث خاص بالجنسية المِثلية

إن نفس الاستدلال ينطبق على الاكتشاف (المحتمل) الحديث لمورّث خاص بالجنسية المِثلية. لقد طالعتنا مثلا صحيفة النيويورك تايمز بالعنوان "برهان جديد لوجود مورّث 'gay' "□. إذا كان أخوان يتميزان بالجنسية المِثلية فإن لهما حظوظا أكثر ليشتركا في بعض خصوصيات الصبغية X. لكن هذه الخصوصيات قد تقنّن مميزات بدنية أو نفسية تتفاعل مع بنياتنا الاجتماعية – البالغة التغيّر – بشكل يزيد في احتمال انتماء مكتسبها إلى أصحاب الجنسية المثلية. وقد تؤدي تلك الخصوصيات بالأخوين إلى أن يصبحا أكثر جاذبية للآخرين؛ وربما تنمي فيهم الاهتمام بالثقافة البدنية، مما قد يجرّهما إلى الاحتكاك بثقافة الجنسية المِثلية التي تشاطرهما هذا الاهتمام. هذا إذا لم تكن تلك الخصوصيات بمثابة مورّث بلوغ مبكّر يجعل الأطفال يافعين في سنّ يمكنهم من ربط صلات بأطفال آخرين، دون البنات. فإذا كان الأثر غير مباشر، يكفي أن يتغيّر السياق الثقافي حتى يزول ذلك الأثر.

□. في مقال لـ :

Y. Michael & R. Pillard, «Agenitic Study of Male Sexual Orientation», Achives of General Psychiatry, 48, 189, 1991.

إن هذا النقاش حول القابلية الوراثية غير المباشرة يلوّح ببعض الشكوك في أفكار هيرنشتاين وموري المتعلقة بالترصيف الاجتماعي الوراثي الأصل لدى البيض. إن كانت الـ 60% من القابلية الوراثية لا تعكس مورّثات لنسبة الذكاء فإنه لا يوجد أي مبرر يدفعنا إلى الاعتقاد بأن هناك فروقا من هذا القبيل بين الطبقات الاجتماعية. ويبدي هيرنشتاين وموري قلقا بخصوص التلوث الذي أصاب التراث الوراثي القومي بسبب الهجرة وضخامة عدد الأطفال الذين لهم أولياء يتمتعون بنسبة ذكاء ضعيفة. لكن، إذا كانت القابلية الوراثية لنسبة الذكاء هي، أساسا، عاملا غير مباشر فهما يتيهان عندما يؤكدان على أهمية المورّثات. لو كنا نعيش ضمن ثقافة يتم فيها الحاق أضرار بأمخاخ الأطفال الشقر لكان من الضلال أن نشتكي من التلوّث الوراثي عندما نشاهد قدوم عدد كبير من المهاجرين الشقر. بل ينبغي علينا أن نحاول، حينئذ، تغيير ممارسة اجتماعية تحرم مالكي مورّث الشعر الأشقر من حق تكافؤ الفرص.■

* جنسني : المؤيد لأطروحات عالم النفس الأمريكي أرثر جنسن، الذي اقترح رؤية حتمية للشخصية البشرية ولتنظيم المجتمع.

** نقول عن مجتمع إنه صار عشوائيا ("مُعَشْوَأ") إن كان بالإمكان معالجته كعيّنة عشوائية دون تأثير على نتائج التحقيق.

*** الفعل الإيجابي(Affirmative Action) هو مجموعة التدابير، القسرية أحيانا، التي اتخذت في الولايات المتحدة لمحاولة الحد من "انعزالية ghettoïsation" الأقليات.

**** الوسيط : الواقع على الخط الذي يفصل مجتمع الى قسمين متساويين.

***** القابلية الوراثية غير المباشرة : عبارة ادخلها كاتب هذا المقال عام 1974[1]. يتحدث الآن بعض المؤلفين عن " القابلية الوراثية الإرتكاسية"[2].

[1]. N. Block & G. Dworkin, « IQ Heritability and Inequality », Part 2, Philosophy and Public Affairs, 4, 1, 49, 1974.

[2]. J. Tooby & L. Cosmides, Journal of Personnality, 58, 1, 17, 1990.

التجارب الراهنة حول حوسبة النصوص التي تعتمد اللغة العربية

أ. موسى زمولي
إطار في صندوق الإنماء الاقتصادي
والاجتماعي بالكويت

التجارب الراهنة حول حوسبة النصوص التي تعتمد اللغة العربية

موسى زمولي

الملخص

نطرح في هذا البحث – بعد التذكير بأهداف مشروع " حوسبة ذخيرة اللغة العربية " الذي يعتزم المجمع الجزائري للغة العربية إنجازه – إشكالية أهمية ومدى إمكانية إنجاز مثل هذا العمل الطموح، ونتطرق بعد ذلك إلى عرض وتقييم تجارب مماثلة تمت خلال العقدين الأخيرين، وكان من بين أهداف بعضها حيازة النصوص العربية في ذاكرة الحاسوب ونشرها عبر وسائط تكنولوجيا المعلومات، كما نسرد ما أنجز من أبحاث في مخابر فروع اللسانيات الحاسوبية خاصة منها التي تتعلق بموضوع معالجة اللغة العربية الطبيعية. ثم نتعرض من خلال هذا البحث إلى التطبيقات العملية المتمثلة في تجارب الشركة العالمية للإلكترونيات، والخطة المستقبلية للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ومشروع الورّاق الإماراتي، وفعاليات القسم الثقافي بالمركز الجهوي للبرمجيات وهندسة المعلومات. كما نقارن هذه التجارب بتجارب خاصة باللغة الإنجليزية وأخرى متعلقة بمشروع "حوسبة اللغة الفرنسية " لمجمع اللغة الفرنسية.

ونَخْلص في تقييمنا لهذه التجارب إلى أن فاعليتها، بصفة عامة، لازالت دون حاجات المستخدم العربي.

وفي الفقرة الأخيرة نقترح بعض التوصيات حول طريقة إنجاز وتطوير مشروع حوسبة اللغة العربية الرائد للمجمع الجزائري للغة العربية.

إطلالات أولية : ذخيرة اللغة العربية، حوسبة، توليد المعاجم حاسوبيا

1. مقدمة

إن التقدم السريع في تكنولوجيا المعلومات، بالإضافة إلى انتشار فكرة عولمة الثقافة، يملي على المؤسسات التي تعنى باللغة العربية أن تُعجِّل في ربط جسر التواصل بينها وبين بقية العالم في هذا المجال.

لقد أنجزت أعمال قيمة في ميدان معالجة اللغة العربية الطبيعية، منذ السبعينات من طرف الباحث د. حاج صالح و فريقه (1) و خبراء آخرين، إلى جانب شركات تجارية ذات الاهتمام بالقضايا العربية[1].

- التأكيد على تبوا اللغة العربية مرتبة هامة في صف اللغات المتطورة و ذلك بفضل مميزاتها المتمثلة خاصة في الاشتقاق والبنية المنطقية لقواعد الصرف والنحو وثراء مفرداتها ومرونة التعامل معها مع قابليتها لاستقبال أول توليد المصطلحات الحديثة.

- إنجاز أبحاث معتبرة غايتها تحويل قواعد علم اللغة العربية إلى خوارزميات قابلة للحوسبة.

- توفر برمجيات عربية في الأسواق تضاهي نظيراتها في اللغات الأجنبية.

---

[1]. نذكر من بينهم د. نبيل علي (العلمية الكويت) ود. عبد القادر الفهري بجامعة محمد الخامس.

في هذا الإطار قرر المجمع الجزائري للغة العربية إنجاز مشروع "حوسبة الذخيرة اللغوية العربية" و يهدف المشروع حيازة أهم نتاج اللغة العربية من أدب وعلوم، على وسائط حاسوبية، لتوفير بنك معطيات نصية عربية محوسب يمكن نشره عبر شبكة الانترنت ومن خلال وسائل رقمية أخرى ليتسنى لأي مستخدم الاطلاع عليه بكل يسر.

سنعرض فيما يلي بعض الأمثلة حول التجارب الحالية ذات العلاقة بموضوعنا ومن بينها تطبيقات عملية لنماذج حاسوبية.

لنبدأ أولا بتساؤلات حول جدوى و حظوظ إنجاز هذا المشروع الطموح.

2. الإشكالية

نرى أنه من الأجدر، في هذه المرحلة، أن نطرح ما يتراءى لنا من الأسئلة قبل الخوض في الأجوبة و اقتراح الحلول.

السؤال الأول : من أين نبدأ ؟

ج1 : لقد ترك موضوع المصطلحات الحديثة، جانبا، ولقرون عدة، ليخضع لاجتهادات وإرتجالات المستخدم العربي دون أي سند، لينتج عن ذلك تراكم الأعمال وتأخر كبير في تحديث اللغة العربية ولابد من مواجهة هذه الحقيقة قبل أو بالتوازي مع مشروع الحوسبة.

ولو طرح السؤال، حاليا، حول مفهوم عبارة اللغة العربية لكانت الردود مختلفة : هناك اللغة الفصحى المقررة في المدارس، وهناك ما يسمى "باللغة العربية العصرية" المستخدمة في مختلف وسائل الإعلام، ثم يأتي بعد ذلك دور اللهجات المتفرعة عنها.

السؤال الثاني : ما هي شروط انتقاء النصوص لضمها للذخيرة ؟ ومن هو المستخدم المستهدف لذخيرة اللغة العربية المحسوبة ؟

ج2 : تعج الساحة الآن بمواقع عربية كثيرة على شبكة الإنترنت تجعل بالإمكان الوصول إلى برمجيات عديدة مثل نظام القرآن الكريم بمختلف مزاياه ونظم المواريث والأحاديث النبوية الشريفة (الملحق 1). كما يمكن تصفح معظم الصحف العربية على الإنترنت في شكلها النصي، أو الاطلاع على الشعر الجاهلي والمعلقات، في إطار الوسائط المتعددة، كما يمكن كذلك زيارة مواقع عربية مخصصة للأطفال وأخرى للمرأة، وهناك مساحات على الشبكة للسياحة وغيرها (الملحق رقم 2). إلا أن المستخدم العادي للأنترنت في العالم العربي ما يزال، في نظرنا، في حاجة إلى معاجم عربية لتزويده بالمصطلحات العربية المرادفة لنظيرتها في الإنجليزية في ميادين التكنولوجيا والمالية ووسائل الإعلام وفي الطب وغيره، كما هو بحاجة كذلك إلى موسوعات باللغة العربية في كل المجالات. باختصار فإن المستخدم العربي يطالب بعمل شمولي ومهني.

السؤال الثالث : ضرورة التنسيق.

ج3 : لقد أثبتت التجربة فشل محاولة التنسيق حتى بين مراكز البحث في بلد عربي واحد بل حتى في نفس المؤسسة وذلك في معظم الحالات.

ويحضرني بهذه الخصوص قرارات، أخذت منذ عدة سنوات في إطار الجامعة العربية، تتعلق بإنشاء شبكة بيانات حاسوبية عربية (2)، مع تعيين لجنة متابعة ؛ ولحد الآن لا تزال حبرا على ورق وتنتظر من ينفض عنها غبار النسيان !

السؤال الرابع : ما هي العوائق الفنية التي تعترض حيازة ذخيرة اللغة العربية ؟

ج4 : حتى الآن وحسب علمنا توجد ثلاث طرائق للحصول على نص محوسب : إدخال كامل النص يدويا أو عن طريق المسح الضوئي للوثائق والتعرف عليها آليا، وأخيرا التعرف آليا على الكلام وتحويله إلى نص. ولا تزال هذه الطرائق الثلاث غير قادرة على الوفاء تماما بالغرض المنشود بسبب حجم ونوعية الوثائق المراد حيازتها. مما يستوجب الاستفادة من الوسائل الثلاث معا إلى أن يتوفر حل بديل مرض□ .

3. أمثلة من التطبيقات الحالية

انطلقت الأبحاث في ميدان اللسانيات الحاسوبية في نهاية السبعينات وبداية الثمانينات. وكان كل الباحثين من مشرق العالم العربي إلى مغربه يعملون تقريبا على نفس المواضيع. وكان همهم الأول توحيد المحارف العربية، أو العمل على إنجاز منسق كلمات ومعالج للجداول وتوفير قاعدة بيانات تتعامل مع اللغة العربية للاستخدامات المكتبية وتطوير كل ذلك. وفي نهاية الثمانينات شرع الباحثون في تطوير خوارزميات لمعالجة اللغات الطبيعية.

وفي هذا المجال قدمت هيئات علمية مثل مركز البحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية بالجزائر ومركز الحاسوب بجامعة محمد الخامس بالمغرب أعمالا نظرية

□. مثل نظام (Arabdox) الذي تقترحه شركة العالمية والذي ينطلق من المسح الضوئي للوثائق وفهرستها آليا مع إمكانية الربط بين الوثائق وإجراء بحوث موضوعية.

معتبرة. وحاولت تلك الهيئات وضع القواعد المناسبة بتطوير المحللات الصرفية والدلالية والمحللات النحوية التي تضبط اللغة العربية. وكمثال على ذلك يمكن الإشادة بالأبحاث المتعلقة بالمدرسة الخليلية الحديثة التي طورها د. حاج صالح وفريقه، كما سهر فريق المغرب والشركة العالمية وغيرهم على تحقيق تجربة التوليد الآلي للمعاجم والتعرف آليا على المحارف وعلى الكلام المنطوق وكذا الترجمة الألية، أما الشركات التجارية ومنها شركة العالمية الرائدة في هذا المجال وشركة (Alis) الكندية ومؤسسة ميكروسوف الأمريكية، فقد انحازت إلى الجانب العملي وأبلى بعضها فيه بلاء حسنا.

1.3. إنجازات شركة العالمية (3) و (4).

بدأت الشركة الكويتية "العالمية للالكترونيات" في الثمانينات بالاهتمام بالحاسوب العائلي (Home Computer) بتقديم برامج تثقيفية، تعليمية وترفيهية مثل برامج رحلة إلى مكة، تعلم الإنجليزية وكلمات ساحرة. وبداية من التسعينات حققت مؤسسة صخر (مجموعة مختصة بالبرمجيات تفرعت عن العالمية) نقلة نوعية بتوجهها نحو جيل جديد من البرمجيات يعتمد معالجة اللغات الطبيعية فطورت الشركة محللا صرفيا كان نواة لإنجاز برمجيات عربية مكتبية معتبرة (الملحق رقم 1)، على أقراص الليزر، مثل :

- برامج الناشر المكتبي والقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والمواريث
- المحلل النحوي
- المشكل الآلي
- المفهرس الآلي

- نظام الترجمة الآلية
- القارئ الآلي
- ونظام (Arabdox) الشامل لمعالجة الوثائق العربية مع فهرستها آليا وإمكانية الربط الموضوع كما أشرنا إلى ذلك سابقا.

وانتقلت الشركة في نهاية التسعينات إلى التركيز على شبكة الأنترنت كأكبر وسيلة متداولة في العالم. فأنشأت "السندباد" متصفح على موقع صخر (Sakhr.com) وخادوم عجيب (Ajeeb.com) الذي يسمح على سبيل المثال بتعريب بعض "البرتالز" وكان آخر منتجاتها الموقع الإعلامي المتميز (Johaina.com).

ولمجموعة صخر علاقات جيدة مع شركات تكنولوجيا المعلومات الدولية إذ تمثل الشركة العربية همزة الوصل بين العالم الغربي والمستخدم العربي. ولمزيد من المعلومات حول خدمات هذه الشركة يمكن الحصول على ذلك بتصفح المواقع التالية :

www.sakhr.com أو www.ajeeb.com أو www.johaina.com .

2.3. مشروع الوراق (www.alwaraq.com)

انتهى المجمع الثقافي بأبو ظبي من وضع الملامح الأساسية لمشروع الوراق وهو مشروع ثقافي رائد يستهدف إحياء التراث العربي من خلال نشر أبرز مقتنيات المكتبة العربية إلكترونيا على شبكة الأنترنت. وحسب تصريحات الشاعر نوري الجراح المشرف على المشروع فإن هذه الخطة تعتبر ثورة حقيقية بكل المقاييس، تهدف إلى تكوين أول موقع إستراتيجي من نوعه باللغة العربية على الأنترنت. فمن المعروف أن هناك أكثر من 2.5 مليار صفحة مكتوبة على الأنترنت في أكثر 200 مليون موقع، هي عبارة عن

معارف ووثائق وأفكار تتصارع فيما بينها، والأغلبية منها إلى الآن باللغة الإنجليزية التي تحتل 86٪ مقابل 2.1٪ للغة الفرنسية، ويبقى 12٪ لباقي لغات العالم.

قسم المشروع إلى ثلاث مراحل : الأولى لحيازة كتب التراث، والثانية للمؤلفات الموضوعة بعد الحملة الفرنسية على مصر، وخصصت المرحلة الأخيرة للمؤلفات التي تم وضعها بعد الحرب العالمية الأولى حتى اليوم.

ويقول الجراح رئيس المشروع أنه قد تم إنجاز المرحلة الأولى نهائيا، واستطاع المشروع نقل الثقافة العربية من عالم الورق إلى أفق الضوء عبر شبكة الأنترنت، لأن من لا موقع له على الأنترنت لا موقع له على الأرض. ويضيف الجراح : إنه تم نشر 600 كتابا على الشبكة الدولية، بلغ عدد صفحاتها أكثر من مليون صفحة ومن المنتظر أن يبلغ عدد الصفحات نحو 10 ملايين صفحة.

وعن كيفية اختيار الكتب المرشحة للنشر على الشبكة قال مسؤول المشروع : نحن نحاول تغليب تراثنا العقلاني عن تلك التي خوض في الغيبيات وسوف تدخل الكتب في شكل نصوص لا صور ليسهل التعامل معها سواء بالحفظ أو الأرشفة، وفي المرحلة الحالية يتم إدخال المجلات التنويرية التي ظهرت في النصف الأول من القرن العشرين مثل : المنار والمقتطف والعصور والرسالة. وانتهى الجراح إلى القول بأن المشروع يسعى إلى تكوين جمعية عربية للنشر الإلكتروني تضم كل المواقع العربية للتنسيق بينها لحماية حقوق الملكية الفكرية.

ويمكن للباحثين الدخول على موقع الوراق لتصفح العديد من الكتب التراثية ومن بينها : الأصمعيات والإمتاع والمؤانسة، رسالة الغفران، نهج البلاغة، تاريخ الطبري، عجائب الآثار للجبرتي، رحلة البلاغة وغيرها.

3.3. مشروع المركز الجهوي للبرمجيات وهندسة المعلومات (Ritsec.com.eg)

استفاد المركز من هبة قدرها 550000 د.ك. (1.650.000 دولار) قدمها له الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي في السنوات التالية 1993، 1994 و1997 لإنجاز نظام متكامل للمخطوطات العربية الإسلامية. في سنة 1995، صدر عن المركز مجموعة من الأقراص الضوئية بعنوان "ذخيرة الحضارة الإسلامية" (Treasure of Islamic civilization) وهي مجموعة صور لمخطوطات عربية محفوظة بجامعة برنستون الأمريكية. وفي سنة 1997 صدر عن المركز مجموعة أخرى من الأقراص الضوئية حول عينة من الصور لمخطوطات دار الكتب المصرية.

4.3. مشروع مركز مكي جمعة الماجد (الإمارات العربية المتحدة)

يعمل هذا المركز منذ سنوات عل إحياء التراث العربي وهو أيضا مركز توثيق ومعلومات. و من إنجازاته على سبيل الخصوص، تصوير بوساطة كاميرا رقمية، أكثر من 3000 مخطوط تابع للمكتبة الوطنية الجزائرية في سنة .2000

5.3. آفاق عمل المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (2010.2003)

في 16 يونيو (جوان) 2001، استضافت الكويت ملتقى خبراء للبحث في الخطة المستقبلية لعمل المنظمة وجاء الحاضرون بتوصيات أهم ماله صلة بموضوعنا ما يلي :

- العنايـة باللغـة العربيـة وتوظيـف أسـاليب واسـتراتيجيات جديـدة في تدريسها، مع الاهتمام بنشر القيم العربيـة واللغـة العربيـة في الـدول الإسـلامية مـن خلال تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها،
- المساهمة في إقامة البنية التحتية لصناعة ثقافة عربية،
- إحياء التراث العربي بمعناه المادي والمعنوي تقديما وصياغة و ترميما،
- دفع جهود التنظير اللغوي،
- توثيق التراث اللغوي والاستخدامات الحديثة للغة العربية،
- تطوير أساليب بناء المعاجم،
- العناية بالترجمة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية،
- التـأكيد على أن استخدام التقنيات الحديثة أصبح ضرورة ملحة ومدخلا رئيسا للاندماج في العصر،
- الاستفادة من شبكة الانترنت في التواصل بين الـدول العربيـة ومختلـف مؤسسات البحث العلمي، ومراكز الدراسات الاستراتيجية في الدول العربية،
- تحديث منهجيات تعلم وتعليم اللغة العربية،
- إقامة قاعدة ببلوغرافية للتنظير اللساني الحديث،
- تعميم النظم البرمجية لمعالجة اللغة العربية آليا،
- وضع القوانين اللازمة لحماية الملكية الفكرية.

6.3. شبكة بيانات المؤتمر الإسلامي (OICS – Net)[□]

□. Organisation of Islamic Conference Information System.

يعد مشروع منظمة المؤتمر الإسلامي من الشبكات الحاسوبية الرائدة في العالم الإسلامي حيث انطلق المشروع في منتصف الثمانينات باستخدام بنية الاتصالات التابعة لشركة (SITA)[] . و بدأت المنظمة بوضع محطات (Help desks) لشبكتها في بعض الدول الإسلامية والتنسيق مع البلدان الأخرى لتبادل المعلومات التي تهم العالم الإسلامي. وبعد ظهور شبكة الانترنت سعت المنظمة لإعادة تصميم شبكتها للاستفادة من البنية الجديدة لتقانة المعلومات ولجعل المعلومات المتعلقة بالعالم الإسلامي في متناول الجميع.

7.3. مركز التعريب التابع للجامعة العربية

يهتم المركز، الذي يوجد مقره الرباط، منذ سنوات بدراسة وتطوير المصطلحات العربية خاصة العلمية والتقنية منها. كما قام المركز بإصدار معاجم متخصصة. ومن المفترض أن يكون للمركز، الذي يمارس مهامه منذ حوالي 20 سنة، بنك بيانات بالمصطلحات العربية والأجنبية يمكن للمجمع الجزائري للغة العربية الفتي والمجلس الأعلى للغة العربية الاستفادة منه.

8.3. تجربة الكاتب الطاهر وطار (www.aljahidhiya.ass.dz)

قام الروائي الجزائري الطاهر وطار بتعلم لغة (Java Script)، بمفرده لإنجاز موقع للمؤسسة التي يرأسها. ونشر عبر صفحات هذا الموقع مجلة الجاحظية وأخبار الأدب والفنون بالإضافة إلى رواياته الشهيرة. وحسب علمنا فإن سي الطاهر روائي قدير ولكن لم يكن على دراية بتكنولوجيا المعلومات وحقق بمفرده هذا الإنجاز مما يعني أن ذلك سيشجع الكتاب والأدباء للاحتذاء به خاصة بعد قيام ميكروسفت

[]. Société Internationale de Télécommunications Aéronautiques.

بتحديث برنامج (Front Page)، في الإصدار الأخير : (Ms office XP) حيث وفرت قوالب لإنشاء مواقع على الانترنت بسهولة ويسر. كما لا يفوتنا هنا أن نشيد بدور مركز □ (CERIST) الذي استضاف موقع الجاحظية.

9.3. الصندوق العربي و مشروع " المعجم العربي الحديث "

في سنة 1987، خصص الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي، 100 ألف دينار كويتي (حوالي 300 ألف دولار) كقسط أول لإنجاز معجم عربي حديث واستقطب الصندوق خبراء وأعضاء في مجامع اللغة العربية، تحت إشراف د. عثمان سعدي (عضو مجلس إدارة الصندوق العربي آنذاك).

وقامت للجنة بتحديد أهداف المشروع ومراحل تنفيذه كما تم ضبط منهجية العمل. وكان المشروع يهدف في النهاية إلى إنشاء مؤسسة دائمة مستقلة، على غرار مؤسسة (لاروس)، لتحديث المعاجم العربية دوريا. وكان مقررا أن تتم حيازة البيانات على الحاسوب. وتم بالفعل إنجاز جزء من المشروع حسب المنهج العلمي الذي اعتمدته اللجنة. إلا أن العمل توقف بسبب حرب الخليج الثانية.

من جهة أخرى، وعلى سبيل المقارنة، نعرض في ما يلي تجربتين تخصان اللغتين الإنجليزية والفرنسية :

10.3. معجم (Colins Cobuild English Dictionary)

وهذا المعجم من إصدارات دار جامعة كولنز - برمنغهام، التي تتوفر بها قاعدة بيانات لغوية. وقد تم توليده حاسوبيا من هذه القاعدة. ومن أهداف هذا المعجم

□. Centre des Etudes et de Recherche en Information Scientifique et Technique.

مساعدة الطلبة والأساتذة في أبحاثهم وأعمالهم، ويعد ثمرة جهد فريق من خبراء جامعة برمنغهام الذي كرس سبع سنوات من العمل الدؤوب، بالاستعانة بكل خدمات الحاسوب لتحليل اللغة الإنجليزية المتداولة حاليا مستخدمين في ذلك ملايين النصوص ومختلف نماذج استخدام اللغة الإنجليزية.

11.3. المشروع الفرنسي "حوسبة ذخيرة اللغة الفرنسية"

(Trésor de la langue Française Informatisé)

ارتأينا أنه من اللائق عرض هذه التجربة للاطلاع على منهجية هذا العمل الذي تتقارب أهدافه مع مشروع المجمع الجزائري الفتي.

وللاطلاع على مراحل وأماكن إنجازه وعلى الصعوبات التي عانى منها اللسانيون والمؤسسات ذات العلاقة بالمشروع، يمكن تصفح الموقع التالي :

www.ciril.fr/~ mastina/ TLF ، وكذا الاطلاع على الملحق رقم 3.

4. تقييم هذه التجارب

بالاطلاع على قائمة البرمجيات (الملحق 1)، وباستثناء نظام القرآن الكريم والحديث الشريف، التي تمت الموافقة على نشره بعد فحص دقيق من طرف الجهات الإسلامية المعنية بالموضوع، فإن معظم باقي البرمجيات يمكن مناقشة محتواها ونوعيتها. وعلى سبيل المثال فإن نظام التعرف آليا على المحارف العربية (OCR) لا زالت نسبة جودته غير كافية للاستخدام المهني. وإذا كان بالإمكان تحسين منتوج الـ OCR عن طريق البرمجة، فإن قضية تحسين الترجمة الآلية، مثلا، تكمن في التحليل الضمني للكلمة المراد ترجمتها، وهذه قضية شائكة من قضايا

التحليل الدلالي. فعلى سبيل المثال نجد كلمة "علم" التي تشير إلى عدة معان من علم إلى علم. ولمعرفة معناها الدقيق في النص فليس لنا سوى اللجوء إلى التحليل الضمني أو تشكيل الكلمة. ويبدو أن شركة العالمية نجحت في إنجاز برمجيات لتشكيل النصوص العربية آليا.

أما بخصوص المواقع العربية (الملحق رقم 2)، فمعظمها لا يلبي الغرض المنشود لا من حيث شمولية المواضيع ولا من حيث نوعيتها وأغلبها يعالج مواضيع إسلامية تراثية بشكل سطحي أو تجاري إعلاني أو ترفيهي. أما مجموعة صخر التي أنجزت ثلاثة نظم : (ajeeb.com، Johaina.com و www.al-islam.com) فإنها توفر أدوات جيدة للهواة والمحترفين في آن واحد وتستحق الزيارة والتقييم. كما لنا وقفة بخصوص مشروع الوراق الطموح وهو أقرب عمل إلى مشروع المجمع الجزائري وللمشروع بداية حميدة لكن من الصعب الحكم له أو عليه حاليا.

وبخصوص مراكز اللسانيات ودور البحث النظري فلن يجدوا فرصة أحسن من مشروع حوسبة ذخيرة اللغة العربية لتطبق نظرياتهم وخدمة مستخدمي اللغة العربية.

5. التوصيات

مما لاشك فيه أن الهوة بين مجامع اللغة العربية وحاجة مستخدمي هذه اللغة، كبيرة وقائمة منذ قرون. ولذا يتحتم علينا إعادة النظر في المشاريع ذات العلاقة بموضوع توفير الذخيرة العربية على الانترنت ومنهجية البلوغ لهذه الغاية. ومن استقرائنا للتجارب السابقة والمتعلقة بالمبادرات والنوايا الحسنة لخدمة القارئ العربي خلصنا إلى أن هذه المحاولات لحوسبة التراث العربي، على سبيل الخصوص، لا زالت جنينية في بدايتها. وتبقى فردية دون أي تنسيق بين مختلف

الجهات مما يفقدها شيء من المصداقية مع مضرة عدم الاستفادة من أخطاء الآخرين. في هذا الإطار وبخصوص خطة تنفيذ مشروع "حوسبة ذخيرة اللغة العربية" نقترح ما يلي :

أولا : الجانب الأكاديمي

ـ **اختيار المؤلفات :** يجب أن يتم ذلك بوساطة فريق متخصص يشمل كل فروع المعرفة لمراجعة الحصيلة الموثقة للتراث العربي الإسلامي.

ـ **اختيار المنهجية :** حيث أن مصادر الذخيرة العربية مختلفة كماً ونوعاً ولأن الاختيار المتأني السليم في البداية سيعود على الجميع بالفائدة المؤكدة ولا يمكن استعمال طريقة الخطأ والتجريب في مثل هذا العمل الضخم، لذا يتحتم على أصحاب القرار، ومنذ البداية اختيار المنهجية اللائقة من أجل احازة الوثائق والأدوات المعلوماتية التي سترافق المشروع طول حياته والعمل على احترام هذه المنهجية مع احتمال مراجعتها، بالمشورة، إذا اقتضى الأمر لتتماشى مع التطور التكنولوجي.

ـ **تحديد الأولويات :** بما أن لكل مشروع قيود مادية أو زمنية فلا بد إذا من تحديد الأولويات وتخطيط مراحل تنفيذها. على سبيل المثال يمكن في مرحلة متوسطة المدى من المشروع العمل على حيازة الذخيرة واستخلاص مكنز يتم من خلاله التوليد الآلي لمعجم عربي حديث ينشر على شبكة الانترنت.

ـ **الاستناد على أبحاث اللسانيات :** إن أهم ما تميز به عصرنا، بعد تكنولوجيا المعلومات، هو تطور فرع اللسانيات ليصبح علما مستقلا من علوم المعرفة وإن النماذج

الرياضية التي وصلت إليها مراكز البحث كما أشرنا إليه سابقا لا يمكن إلا أن تخدم قضيتنا هذه وأن تضمن مصداقيتها. ولذا يجب أن تكون هذه النماذج الرياضية هي النواة التي يحيط بها باقي النسيج.

ثانيا : الجانب الفني

على خبراء تكنولوجيا المعلومات اختيار، قدر المستطاع، أحدث أدوات حاسوبية تم اختبارها وأكثرها تطابقا وتمشيا مع نظم التشغيل الحالية والمنظورة. أما ميكانزمات حيازة الذخيرة فيجب أن تكون مجزئة (Modular) ومرنة بحيث يمكن تحديث جزء من العملية دون المساس بالمشروع ككل، أو إضافة حصيلة قد تأتي من طرف آخر أو تجربة سابقة. كما يجب أن يكون هناك منذ البداية تصور للمنتوج النهائي حتى من حيث نوع وسائط نشره و توزيعه (ليس فقط على الانترنت بل لا بد و أن تراعي احتياجات المعوقين، مثلا).

ثالثا: أعمال التشغيل والصيانة

تحديث النظام وصيانته ليس بالأمر الهين مع تقدم أبحاث اللسانيات وتطور التكنولوجيا من جهة ومع توفر كم هائل من المعلومات التراكمية يوميا. ولضمان استمرارية المشروع وتجانس وحداته لا بد من تخصيص جهد كبير لهذا العمل كما يجب للمحافظة على سلامة المشروع اعتماد قواعد وقائية وأمنية مؤكدة تضمن استمرارية المشروع في كل مراحله.

رابعا : الموارد البشرية

لا يمكن أن يضمن نجاح مثل هذا العمل المضني والجاد إلا عن طريق فريق من مختلف فروع المعرفة مؤمن بأهمية هذه القضية ومتفرغ لها. وعلى أصحاب القرار توفير الجانب المادي لهذا الفريق وظروف عمل تشجع على خلق روح الإبداع والإنتاجية. وينطبق ذلك على كل المستويات سواء تعلق الأمر بخبراء أم بعمال بسطاء.

خامسا : الجانب المالي

لقد بات معروفا لدى الكثير بأن نسبة نجاح المشاريع الطموحة وذات المدى المتوسط أو البعيد، في محيطنا، ضعيفة وذلك بسبب الموارد المالية أو بسبب سوء استخدامها. ويجب تظافر الجهود لإنجاز المراحل الأولى من المشروع الذي قد تأتي بعوائد تسمح بالاستقلالية المالية للمشروع. علما بأن الغرض المنشود لا يمكن أن يكون تجاريا.

سادسا : الجانب التشريعي

على الجهات المعنية بالموضوع أن تعمل بالتكامل على سن القوانين التي تحث المثقفين على توفير إنتاجهم على وسائط رقمية لتسهيل مهمة الاستفادة منها.

وأخيرا يبقى الهدف المنشود هو إنجاز نظام يضمن إستمراريته وتطوره مستقبلا.

المراجع

1. المدرسة الخليلية الحديثة ومشاكل عـلاج العربيـة بالحاسـوب، Al Hadj Saleh, A, .
1989,
Proceedings of the International Conference on « Arabic computational linguitics, held in Kuwait Scientific Research Center, Kuwait, 1989.

2. Zemouli, M, 2000, Information technology in Arab Countries : Assessment and perspectives. International conference on '' *Arab Development Challenges of the new Millennium* '', organized by the Arab Planning Institute (API) in Kuwait and the Unversity of Mohammed V, June 26-28, 2000 in Rabat, Morocco.

3. Nabil, A, 1988, The Arabic Language and the Computer (اللغة العربية والحاسوب), Taarib.

4. Abu al-Azm, A. Arabic Language and Automatic Processing, '' اللغة العربية و المعالجة الآلية برنامج صخر نموذجا » Fikr wa naqd, n° 31, September 2000.

الملاحق

الملحق 1 : قائمة ببعض البرامج النصية العربية المحسوبة

تسمية المنتج	الجهة المصدرة للمنتج	ملاحظات
القرآن الكريم	شركة العالمية	عمل قيم يقدم النص الكامل للقرآن مع تفسيره وترجمته بعدة لغات وطريقة لتحفيظه.
المواريث	//	برامج شامل ودقيق لأحكام المواريث
الحديث	//	برنامج كامل للأحاديث النبوية الصحيحة
القاموس	//	إنجليزي عربي وناطق
الوافي	ATA (الكويت)	مليون كلمة، عربي – إنجليزي
لسان العرب	جمعية إحياء التراث الإسلامي (الكويت) 1999.	قاموس ابن منظور
المعلقات السبع	//	يقوم بإلقائها ممثلون مشهورون
أعمال ابن قيم الجوزي	مكتبة ابن قيم الجوزي، الكويت 1999	مجموع من مؤلفات ابن القيم
الموسوعة الفقهية	وزارة الأوقاف الكويت	في إطار الحوسبة

تاج العروس	وزارة الاعلام الكويتية	//
موسوعة الشعر العربي	مؤسسة عبد العزيـز البـابطين– الكويت	//

الملحق 2: عناوين بعض المواقع العربية على الانترنت

Portal Address	Portal Name
www.algeriainfo.com	Algerian General Information Database
www.arank.com/	One hundred Arab sites
www.aljahidhiya.ass.dz	Taher outar
www.naseej.com	Naseej
www.ayna.com	Ayna
www.4arabs.com	4Arabs
www.arabseek.net	Arabseek
www.konouz.com	Konouz
www.gulf-palace.com	Gulf Palace
www.alsaha.com	Al Saha
www.planetarabia.com	Planetarabia
www.moheet.com	Moheet
www.saudionline.com.sa	Saudi Online
www.middle-east-pages.com	Middle East Inernet Pages
www.arabia.com	Arabia Online
www.1001sites.com	1001sites
www.arab.net	Arab Net
www.homestead.com	Wahat
www.arabview.net	Arab View
www.maktoob.com	Maktoob
www.ihorizons.com	Horizons
www.dit.net	Dabbagh Information Technology
www.arab-business.com	Arab Business
www.i-cias.com	Lexic Orient Front Page
www.arabvista.com	Arabvista
www.aljareh.net	Al Jareh
Arabic2000.com	Arabic 2000
www.sitesforall.com	Sites for all
www.arabist.com	Arabist
www.all-saudi.com	All Saudi
yasalam.com	Ya Salam
bawaba.com	Bawaba
www.zorona.com	Zorona

www.nawal.com	Nawal
www.nana.co.il	Nana
www.arabji.com	Arabji
www.sinsal.com	Sinsal
www.arabcafe.com	Arabcafe
Zooloo.co.il/Arabic	Zooloo
Adleel.com	Daleel
www.kufta.com	Kufta
www.seek.com	Arabic Seek
www.fares.net	Fares
www.saudiland.com	Saudi Land
www.yalla.com	Yalla
www.raddadi.com	Raddadi
www.alaseel.net	Al Aseel
www.almultaga.com	Al Multaga
www.arabichat.net	Arabichat
www.arabianoasis.net	Arabian Oasis
www.kunoozy.com	Kunoozy
www.cafearabia.com	Cafearabia
www.kuwiatvoice.com	Kuwaitvoice
www.sandroses.com	Sandroses
www.qualitynet.net	Quality Net
www.jeeran.com	Jeeran
www.inter-nec.com	Inter Nec
www.mauje.com	Mauje
www.bayt.com	Bayt
www.khaleej.com	Khaleej
www.khayma.com	Khayma
www.yafea.com	Yafea
www.saudilinks.com	Saudi Links
www.eqla3.com	Eqla3
www.awalnet.com	Awalnet
www.lakianti.com	Lakianti
www.jahra.net	Jahra Net
www.arabna.com	Arabna
www.beseen.com	Beseen
www.dlala.com	Les enchères au Maroc
www.arabia.com	Arabia online Guernsey Ltd.
ajeeb.com	Al Alamiah
paintings.ajeeb.com	Al Alamiah
www.arabicnews.com/	Arabic news
www.hmnet.com/africa/libya.html	Lybia
tarjim.ajeeb.com/ajeeb/	Al Alahmiah
johaina.ajeeb.com	Al-Alamiah
www.amin.org-jourmag/	Arabic Media Internet Network
www.afrik.com/	African links

Egyptian children web	www.horus.org.eg
Inter-Arab Investment Guarantee corporation	www.iaigc.org
Qatar, Ministry of Awqaf and Islamic Affairs	www.Islamweb.net
Afkar Information Technology Ltd.	www.Islamonline.net
Kuwait Studies & Reseach Center	www.crk.org
Algerian newspaper	www.comfm.fr/presse/dz.html
Harf	www.al-islam.com

Annex 3 : French Automated Dictionary

Trésor de la langue Française informatisée, T.XIV, interrogeable sur internet à www.ciril.fr/~mastina/TLF.

Aspects de la base informatisée du Dictionnaire de l'Académie française de 1694 Russon Wooldrige, University of Toronto.

© R. Wooldrige, juin 1998

[Version révisée d'une conférence présentée à Paris, le 15 mai 1998, au Groupe d'études en Histoire de la langue française.]

1. Modalités de saisie
   1.1. Compétence du claviste
   1.2. Explicitation des co-vedettes elliptiques
2. Aspects de la genèse du dictionnaire
   2.1. Ordre alphabétique
   2.2. Renvoi et article
   2.3. Oublis rattrapés
   2.4. Regroupements étymologiques
3. Nomenclature dictionnairique et lexique réel
4. Nomenclature cachée et mots oubliés
5. Adéquation typographie / microstructure
6. Le texte comme dictionnaire et corpus
7. Conclusion

الملحق رقم 4 : تجربة برمجيات الترجمة

النص المراد ترجمته من الانجليزية إلى اللغتين العربية والفرنسية

Subject : CEO OF HEWLETT PACKARD one Islam ! ! !

- Dear friends,

- I have received this email from a friend and I am passing it to you.

- This is the best article I read after September 11 tragic events.

- When you read this article you know why Hewlett Packard, tha great global

- Techology company, is putting has lady, this lady in the world of men, have its

- CEO

- What has great business leader and thinker she is, and what has harmony between

- Business and ethics she has.

- You will enjoy reading the full article if you like reading, morale, ethics,

- Leadership, business, religion, and humanity.

- Moussa Zemouli

- Carly Fiorina, the CEO OF HEWLETT PACKARD , recently mountain stream has speech (september 26, 2001) defining the relevance of leadership in today world (‘’WHAT DOES FUTURE OUR DEMAND OF LEADERS TODAY ?’’). The example she used was Islam between 800 and 1600 It. This gives a look at Islam which is quite different from the ones we have seen /heard/ read in the media since September 11. The Raising (finding) part of her speech is quoted below. For the full speech, please go to : http://www.hp.com/hpinfo/execteam/speeches/fiorina/minnesota01.htm

of here the final leaves of Fiorina speech :

- Have business leaders, have we are faced with questions of life and death

- Rather than how much our stock is worth, the significance of our business

- Contribution to the world may be increased. And that is has good thing.

- I ll end by telling a story.

- There was ounce a civilization that was the greatest in the world.

- It was able to create has continental high-octane gasoline-state that stretched from ocean to ocean, and from northern climes to tropics and deserts. Within its Dominion.

- Lived hundreds of millions of people, of different creeds and Origins ethnic.

ترجمة النص بوساطة Ajeeb.com

الموضوع : سيو هوليت باكارد الإسلام واحد !!!

– الأصدقاء الأعزّاء

– قد تلقيت هذا البريد الإلكترونيّ من صديق و أناوله لك.

– هذه هي أفضل قطعة قرأتها بعد 11 سبتمبر أحداث مأساويّة.

– عندما تقرأ هذا المقال أنت تعرف لماذا هوليت باكارد، العظيم عالميّ.

– شركة التكنولوجيا، يضرب لدى سيّدة، هذه السيّدة في عالم الرجال،قدها.

– سيو.

– ما لدى قائد تجارة عظيم و مفكّر هي، و ما لدى ائتلاف بينهما.

– التجارة و الأخلاقيات هي قد

– سوف تستمتع بقراءة المقال الكامل إذا أحببت القراءة، الرّوح المعنويّة، الأخلاقيات.

– القيادة، التجارة، الدّين و البشرية.

– موسى زمولي

– كارلي فيورينا، سيو هوليت باكارد، حديثا لدى جدول الجبل خطبة (26 سبتمبر، 2001) تعريف صلة القيادة بالدّاخل اليوم عالم (ماذا مستقبل ملكنا يطلب من القادة اليوم ؟). كان المثال الذي استعملته الإسلام بين 800 و علـــى

1600 آي تي. هذا يعطي نظرة عن الإسلام المختلف إلى حدّ ما عن الذين قد رأينا/ سمع/ قرأ في الإعلام منذ 11 سبتمبر. الرّفع (تحقيقات) جزء خطبتها يستشهد إلى أسفل. للخطبة المتلئة، من فضلك اذهب إلى : http://www.hp.com/hexecteam/speeches/fiorina/minnesota01.htm . من هنا

الورق النهائي من خطبة فيورينا :

– لدى قادة تجارة، قد نواجه نحن مع/ ب أسئلة الحياة و الموت

– بدلا من كمّ سهمنا مستحق، مغزى تجارتنا

– قد تكون المساهمة إلى العالم.

ترجمة نفس الفقرة بوساطة برمجيات : Reverso Pro Softissimo

Sujet : PDG D'HEWLETT PACKARD un Islam ! ! !

- Chers amis

- J'ai reçu cet email d'un ami et je vous laisse le passe.

- C’est le meilleur article 1 lu après le 11 septembre ddes évènements tragiques.

- Quand vous lisez cet article vous savez pourquoi Hewlett-Packard, le grand global {*mondail*}.

- La société de technologie, met a la dame, cette dame dans le monde d’hommes, avoir son

- PDG

- Ce qui a le grand leader économique {* chef d’entreprise*} et le penseur elle est et ce qui a l’harmonie entre

- L’Affaire et l’éthique elle a.

- Vous aimerez lire le plein article si vous aimez lire, la morale, l’éthique,

- Direction, affaire, religion et humanité

- Moussa Zemouli

De voiturement Fiorina, le PDG d’HEWLETT PACKARD , récement le flot de montagne a le discours (le 26 septembre 2001) la définition de la pertinence de direction dans l’aujourd’hui monde (‘’ QU’EST-CE QUI FAIT L’AVENIR NOTRE DEMANDE DE LEADERS AUJOURD’HUI ?’’). L’exemple qu’elle a employé était l’Islam entre 800 et sur 1600 CELA. Cela jette un regard à l’Islam qui diffère tout à fait de ceux nous avons vu / a entendu/ lu dans les médias depuis le 11 septembre. Le levage (la découverte) la partie de son discours est cité ci-dessous . Pour le plein discours, allez s’il vous plait :
http://www.hp.com/hpinfo/execteam/speeches/fiorinaminesota01.htm

D’ici les feuilles {*congés*} finales de discours Fiorina:

- ‘’ Ayez des leaders économiques {*chefs d’entreprise*}, faites faites face nous sommes avec les questions de vie et la mort.

- Plutôt que combien de notre réserve {*valeur*}vaut, la signification de notre affaire.

- La contribution au monde peut être augmentée. Et c’est a la bonne chose.

- Je II fin en disant une histoire.
- Il y avait l'once une civilisation qui était la plus grande dans le monde.
- Il était capable de créer a l'essence d'octane haut continentale-déclarent que s'est étiré de l'océan à l'océan et de climats du nord aux tropiques et des déserts. Dans son Dominion.
- Vécu centaines de millions des gens, de credos différents et ethnique Origines.

الانترنيت : دراسة اتصالية ومصطلحية

د. محمود إبراقن
أستاذ بجامعة الجزائر

مقدّمة

يعني مصطلح "Internet" باللغـة الإنجليزيـة : "Interconnected Networks". وهي شبكة تقوم على ربط عدة شبكات معلوماتية réseaux informatiques فيما بينها لتسمح للمشتركين فيها، في كل أرجاء العالم، بالتحاور فيما بينهم وتبادل معلومات بعضهم البعض.

وهي بذلك تمكنهم من النفاذ إلى مختلف بنوك المعلومات العالمية(في ميادين: الصناعة، التجارة، الأسواق المالية، الصحة، الصحافة، الخ). إنها أحدث وسيلة اتصال تختزل الوقت والمسافات وتساهم في رفع مختلف الحواجز التي تحول دون المرور الحر للمعلومات إرسالا واستقبالا، سواء على مستوى الأفراد أم على مستوى المؤسسات أو الهيئات.

لمحة تاريخية

تعود جذور الأنترنيت إلى سنة 1969 حين أنشأت دائرة الدفاع التابعة للبانتاغون شبكة تدعى "الأربانيت" Arpanet (انظر هذا المصطلح) : وهي شبكة معلوماتية لا يمكن تخريبها في حالة تعرضها لهجوم نووي.

ونظرا لما حققته من نتائج جيدة تم توسيع شبكة الأربانيت إلى مؤسسات شبه عسكرية ثم إلى مؤسسات مدنية كالوزارات والسفارات. وفي الفترة الممتدة بين 1980 و 1988، سلّمت هذه الشبكة إلى العلماء، الباحثين، الهندسين والفنانين : من خلال ربط مختلف مراكز البحث، الجامعات والمعاهد بشبكة أصبحت تحمل اسم "إنترنيت"Internet.

وفي بداية التسعينيات، نتج عن التطور المذهل الذي شهده مجال المعلوماتية informatique ظهور حواسيب شخصية P.C (Personal Computers) أو micro-ordinateurs مجهزة بالوسائط الاتصالية المتعددة multimedia ومتداولة بأسعار معقولة، الأمر الذي شجع الكثير من الأفراد على الاشتراك في شبكة الأنترنيت.

وهكذا، تطورت شبكة الأنترنيت من شبكة تجريبية إلى شبكة في متناول الجميع. وحسب دراسة قامت بها مؤسسة "فيرم كمبيوتر أندوستري آلمناك" Computer Industrie Almanac بلغ عدد المشتركين في شبكة الأنترنيت، مع نهاية عام 1999، 259 مليون مشترك[1]. وبخصوص عدد الدول المرتبطة بالأنترنيت، فإنه يقدّر[2]، إلى غاية شهر أوت 1996 بـ: 186 دولة، مع بقاء 51 دولة : معظمها من قارتي آسيا وإفريقيا (وعلى رأسها ليبيا) بدون أي ربط. تجدر الإشارة، إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية، كندا، أستراليا وكل دول أوروبا (باستثناء البوسنة) كانت مرتبطة بالشبكة.

من استخدامات الأنترنيت، نذكر بأنه، في عام 1991، وعلى إثر محاولة الانقلاب بالرئيس الروسي بوريس يلتسين (التي تعطّلت أثناءها كل شبكات الاتصال الخارجي)، تمكّن هذا الأخير، بفضل الأنترنيت، من الاتصال بالعالم الخارجي وإعطاء تصريحات مهمّة إلى وسائل الإعلام الغربية[3].

---

[1]. BADRI Salim, «259 milions d'internautes dans le monde», journal «La Tribune», 8 mars 2000, p. 11.

[2]. حسب ما أفادنا به شفويا السيد موسى بن حمادي مدير "مركز البحث في الإعلام العلمي والتقني" CERIST (الجزائر).

[3]. حسب برقيات وكالة الأنباء الفرنسية (AFP) التي استندت إليها مختلف وسائل الإعلام، بشأن تلك المحاولة الانقلابية الفاشلة.

إن شبكة الأنترنيت، بوصفها وسيلة اتصال تختزل الوقت والمسافات هي التي ستجسّد، خلال الألفية الثالثة، في إطار العولمة Mondialisation المجتمع الاتصالي العالمي الذي يصبح بموجبه العالم ليس فقط قرية واحدة مترامية الأطراف بل :

<< القرية الصغيرة التي يعرف بعضها البعض الآخر>>. كما قال ذلك مارشال ماكلوهان[□].

شروط الاشتراك في الأنترنيت

يجب على كل راغب في الاشتراك في الأنترنيت أن تكون لديه الأجهزة والأدوات الآتية :

1. الحاسوب ordinateur : سواء كان ذلك من نوع "بي.سي" PC أم م نوع "ماكنتوش" Mac أم من الحواسيب المحمولة portables، الخ، على أن يكون مزوّدا ببرمجية إبحار logiciel de navigation، في شبكة الأنترنيت. مثل :

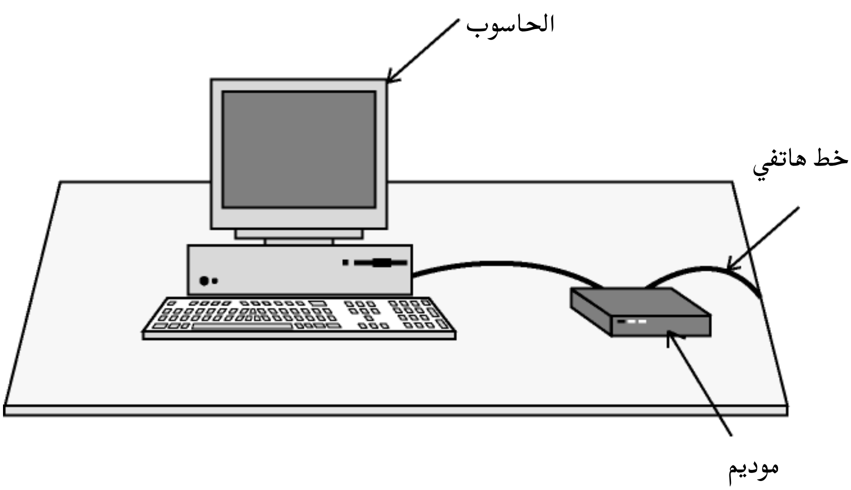
برمجية "نيتسكاب" Netscape أو برمجية "أنترنيت إكسبلورر" Internet Explorer أو برمجية سندباد Sindbad.

2. الموديم Modem : هو الجهاز الإلكتروني الذي يوضع بين الحاسوب والخط الهاتفي، للربط بينهما (انظر الشكل المرفق). ويقوم بتشكيل أرقام الهاتف ليسمح للحاسوب بإجراء الاتصال عبر خط هاتفي: بتحويل الإشارة الرقمية numérique (= المعلوماتية informatique) إلى الإشارة التماثلية analogique (= الهاتفية téléphonique). والعكس.

□. Mc LUHAN Marshall, Pour comprendre les média, Paris, Ed. Mame / Seuil, Coll. Points, 1977, 404 p.

3. الخط الهاتفي ligne téléphonique : الذي يربط بـالموديم. تجـدر الإشـارة، إلى أن الخط الهاتفي حال ربطـه بـالموديم لا يمكـن لصـاحبه أن يسـتعمله بالطريقـة العادية (إجراء الاتـصال الهاتفي أو تلقي مكالمات هاتفية).

4. إن أرقام الهاتف التي يقوم بتشـكيلها المـوديم هـي الـتي تسـمح للمشـترك بربطه بـ : "المؤسسة المانحة الـربط بالأنترنيـت" Fournisseur d'Accès à Internet. وهي المؤسّسـة التي يتعـيّـن على كل مشتـرك جديـد أن يفـتح فيهـا رقـم حسـاب خاص به يماثل رقـم الحسـاب المصـرفي Numéro de compte، حتـى يسـتطيع مـن خلاله الدخول، في شبكة الأنترنيت.



كيفية ربط الحاسوب بشبكة الانترنيت

ربط الجزائر بالأنترنيت

في سنة 1993، تم ربط الجزائر بالأنترنيت ، عن طريق : "خط هاتفي متخصص" par dialup. وفي مارس 1994، أقامت الجزائر "الربط الكامل" Full Connexion بشبكة الأنترنيت عن طريق كابل (من الليفة الضوئية Fibre optique.انظر هذا المصطلح) يربط "مركز البحث في الإعلام العلمي والتقني"□ بمدينة "بيز"Pise الإيطالية. وتقدّر طاقة هذا الربط بـ : 9.600 بايت bits□، في الثانية. ويندرج هذا الربط، في إطار مشروع تعاون مع اليونسكو الذي يهدف إلى إقامة شبكة معلوماتية، في قارة إفريقيا، تكون فيها الجزائر النقطة المحورية للشبكة، على مستوى شمال إفريقيا.

وفي ديسمبر 1997، وبالتعاون مع مصالح البريد والمواصلات، تم تدعيم هذا الكابل بخط متخصص liaison spécialisée يمر بمدينة باريس وتبلغ سرعته 256 كيلوبايت□، في الثانية.

□. Centre de Recherche sur l'Information Scientifique et Technique (CERIST)

أنشئ هذا المركز بموجب المرسوم 72-86 المؤرخ في 8 إبريل 1986، تحت وصاية المحافظة السامية للبحث HCR. وهو حاليا تابع لوزارة التعليم العالي والبحث العلمي. وقد أسندت إلى هذا المركز مهمة إقامة شبكة وطنية للإعلام العلمي والتقني وربطها بشبكات إقليمية ودولية.

□. يمكن أن يعادل مصطلح "بايت Bit" التعبير العربي "حرف ثنائي". يدلّ مصطلح "بايت" على كل رقم من الأرقام الثنائية التي يتضمّنها النظام الثنائي Système binaire .. وهي الأرقام المؤلفة على وجه الحصر من أصفار "0" وآحاد "1". انظر المصطلحين: Bit, Système binaire.

□. 1 كيلوبايت = 1.000 بايت bits.

في أكتوبر 1998، وبموجب اتفاقية أبرمت بين "مركز البحث في الإعلام العلمي والتقني" وهيئة "ناتسات" NetSat الأمريكية تم ربط هذا المركز بشبكة الإنترنيت بصفة مباشرة: بتشغيل محطة اتصال جديدة عن طريق الأقمار الصناعية. وتقدّر طاقة هذا الربط بـ : 1 ميغابايت[1]، في الثانية.

ونظرا لازدياد عدد المشتركين في شبكة الإنترنيت، عمد مسؤولو هذا المركز، في شهر إبريل 1999، إلى تطوير هذا الربط لتبلغ طاقته 2 ميغابت في الثانية.

ومن مزايا الاتصال عن طريق القمر الصناعي، مقارنة بالخطوط الهاتفية، أن العلاقة تكون مباشرة مع العمود الفقري للأنترنيت الموجود في الولايات المتحدة الأمريكية (بدلا من المرور بثلاثة متعاملين: مصالح البريد الجزائرية، مصالح البريد الفرنسية وشركة أوروبية للإنترنيت).

وتقدّر اليوم طاقة هذا الربط، حسب جريدة "لاتريبين"[2]، 5 ميغابت : فيما يخص "مركز البحث في الإعلام العلمي والتقني" (بوصفه مؤسسة عمومية تمنح الربط بشبكة الإنترنيت) و5 ميغابايت أخرى منحت لمؤسسة "أوباد"EEPAD (بوصفها مؤسسة خاصة تمنح الربط بشبكة الإنترنيت).

الإنترنيت: وسيلة اتصال متميزة

إن شبكة الأنترنيت نافذة على العالم. وهي عبارة عن محيط من المعلومات وكل فرد يصبح بإمكانه الإبحار بين مختلف "مواقع" sites "الشبكة العنكبوتية العالمية "WWW (انظر هذا المصطلح)، وبخاصة أن تكنولوجيا الأنترنيت بسيطة ولا تتطلب جهدا كبيرا.

---

[1]. 1 ميغابايت = 1.000 كيلوبايت = 1.000.000 بايتbits.

[2]. BADRI Salim, «L'internet en Algérie», journal «La Tribune», op. cit., p.11.

تتميز شبكة الأنترنيت بالخصائص الآتية :

1. هي عبارة عن شبكة مفتوحة réseau ouvert ليست ملكا لأي جهة، الأمر الذي يحول دون تمركز المعطيات centralisation des données في يد مؤسسة واحدة من جهة ويجنب السيطرة على الشبكة من قبل أي كان من جهة أخرى.

2. قدرة شبكة الأنترنيت على الوصول إلى أبعد نقطة في الكرة الأرضية، لتغطي بذلك مختلف المناطق الجغرافية وتفسح المجال أمام عولمة المعلومة mondialisation de l'information.

3. ضمان وصول المعلومة في الحين (= أي في زمن حدوثها Temps réel. انظر هذا المصطلح).

4. تمكن شبكة الأنترنيت المشتركين فيها من تبادل المعلومات بين بعضهم والبعض الآخر على نحو ما هو سائد في تجربة "فيديوتيكس" Vidéotex (انظر هذا المصطلح) : لأن تدفق المعلومات لا يتم من المرسل في اتجاه المتلقي فحسب، بل يتم كذلك من المتلقي إلى المرسل.

5. تسمح شبكة الأنترنيت –بفضل بعض البرمجيات الخاصة بالمهاتفة téléphonie (مثل: Microsoft Net-Meeting)– بنقل المعطيات الصوتية والصور المتحركة. وفي هذه الحالة، يمكن لأي مشترك في الأنترنيت من <<التحدث ومشاهدة المراسل correspondant الموجود على الخط، في أي نقطة من العالم>>[1] وتتطلب هذه العملية استخدام كاميرا خاصة (مثال : "كونيكتكس كيككام" Connectix QuickCam) تتلاءم مع تلك البرمجية.

□. RUDOLPH Mark Torben et BEYER Arne, Trucs, Astuces et Secrets Internet, 1ère éd, traduit par WOLF Pierre M, SERRI Laurence, Paris, Ed. Micro Application, 1997, p. 691.

انظر المصطلحين : HTTP, WWW.

6. يعدّ الاتصال، عن طريق شبكة الأنترنيت، اتصالا شخصيا يسمح للفرد الواحد بالاتصال مباشرة بمختلف الأفراد، في شتى أنحاء العالم. من هذا المنظور، يمكن لنا أن نضع الأنترنيت في مقابل وسائل الاتصال الجماهيري moyens de communication de masse التي تتمثل في الوسائل التقليدية الآتية : الصحافة المكتوبة، الإذاعة، التلفزة، السينما، المسرح، الفيديو، الخ.

خدمات شبكة الأنترنيت

من بين الخدمات التي تقدمها شبكة الأنترنيت نذكر ما يأتي :

أ. خدمات "بروتوكول نقل الملفات" FTP : على غرار "بروتوكول نقل النص الفائق المحتوى" //:HTTP (الذي يقوم بنقل صفحات "الشبكة العنكبوتية العالمية" WWW لعرضها على شاشة جهاز الحاسوب) توجد طرق أخرى للدخول في شبكة الأنترنيت يأتي في مقدمتها "بروتوكول نقل الملفات"//:FTP : الذي يعدّ الطريقة الأولى (انظر مصطلح FTP) المستخدمة من قبل مستعملي الأنترنيت لتبادل الملفات بين بعضهم والبعض الآخر. إنه البروتوكول الذي يسمح بالحصول على أي ملف مهما كان نوعه (بفضل الاستعانة ببرمجية "قائمة عناوين بروتوكول نقل الملفات" Archie : راجع هذا المصطلح) ونقله من الموقع الذي وجد فيه لجلبه إلى حاسوب المشترك، في الأنترنيت. ويتضمن هذا البروتوكول العديد من الملفات الاتصالية (من نوع "تفاعل تبادلي" Interactivité. انظر هذا المصطلح).

ب. البريد الإلكتروني (Electronic Mail (E-mail : يمكن الاشتراك، في شبكة الأنترنيت، للاستفادة فقط من خدمات البريد الإلكتروني (انظر

Courrier électronique). وهـو البريـد الـذي يسمـح بتبـادل الرسائـل إلكترونيـا بيـن كل المشتركين، مهما كانت المسافة الجغرافية التي تفصل بينهم.

ج. النقـاش الحـر : تضـمن شـبكة "يوزنـات" Usenet (انظـر هـذا المصـطلح) لمستعملي الأنترنيت التبـادل اليـومي للأخبـار ومناقشـة مختلـف الموضـوعات. إنهـا الشبكة التي تضم عدة "فرق نقاش" Newsgroups أصـبح مـن الصـعب وضـع قائمـة وافية لها لأنها موجودة، في مختلف أرجاء العالم، بشكل يكاد يكون فوضويا. لكن، يمكن تصنيف "فرق النقاش" المسجّلة في القوائم الرسمية لشبكة "يوزنـات" إلى سـبع مجموعات كـبرى تـدعى "بيـغ سيـبن" Big Seven (راجـع Newsgroups). تجـدر الإشارة، إلى أن كل مجموعة من هذه المجموعات متخصصـة في موضـوعات محـدّدة (ثقافية، فنية، علمية، سياسية، اقتصادية، الخ). وهي بذلك تعـدّ "فضـاءات حـرة للمناقشة" Forums de discussion، إذ يمكـن مـن خلالهـا لكـل مشـترك في شبكـة الأنترنيت، من المشاركة في نقاش أي موضوع يهمّه.

د. التجارة الإلكترونية Commerce électronique (انظر هـذا المصـطلح) : هـي التجـارة الـتي تسمـح للمنـتجين بعـرض منتجـاتهم (أو خـدماتهم) عـبر شـبكة الأنترنيت. وهي التجارة التي توفّر لأصحابها المجال الواسع لترويج بضائعهم. كما تسمح بتخفيض أسعار المعاملات الحالية، في التجارة العالمية.

هـ. التعلـيم عـن بعـد Téléenseignement : لقـد أدرك المربـون، منـذ ظهـور المعلوماتية informatique وتطورها، أن التعليم ليس شيئا ينجز في حجرة الدراسـة أو تحت إشراف المدرسين فقط. فإذا كان الإنسان يواجه حاليـا صعوبة في الحصول على المعلومـات المناسـبة، فـإن شـبكة الأنترنيـت ستوفـر لـه، بفضـل منظومـة

"واب" WWW، وصولا كاملا لمعلومات لا حصر لها. كما يمكن من خلالها لأي إنسان مشاهدة التلاميذ الصغار وهم يعملون معا حول جهاز حاسوب، أو أن يشارك في الحوارات التي تدور بين طلاب موجودين في حجرات دراسة تفصل، بين الواحدة والأخرى، البحار والمحيطات.

و. يمكن لمستعمل الأنترنيت، من الاستفادة من العلاج الطبي عن بعد Télémédecine : الأمر الذي يتم ذلك من خلال الاستشارة الطبية عن بعد Téléconsultation والتشخيص عن بعد Télédiagnostique وتبادل المعلومات والأشعة والصور بين المرضى والأطباء.

ز. تسمح شبكة الأنترنيت للمشتركين فيها بالإطلاع على الكثير من المعلومات المثيرة وتقديم عدة خدمات مهمّة. مثل: السياحة عن بعد Télétourisme، العمل عن بعد Télétravail (لاسيما بالنسبة للأشخاص المعوقين العاجزين عن التنقل إلى مكان عملهم)، الخ.

بخلاف الخدمات الثلاث الأولى (خدمات "بروتوكول نقل الملفات" FTP، البريد الإلكتروني والنقاش الحر) تعدّ التجارة الإلكترونية، التعليم عن بعد، العلاج الطبي عن بعد، السياحة عن بعد والعمل عن بعد خدمات تقدمها منظومة "واب" Web التي تدعى "الشبكة العنكبوتية العالمية" WWW (راجع هذا المصطلح).

كما يمكن للبلاد العربية أن تحقّق، من خلال شبكة الأنترنيت، الخدمات الآتية[*] :

---

[*]. ذكر هذه الخدمات السيد موسى بن حمادي مدير "مركز البحث في الإعلام العلمي والتقني"، في محاضرة بعنوان : "شبكة الأنترنيت والخدمات المعلوماتية". وهي المحاضرة التي ألقاها بالأكاديمية العسكرية بشرشال، إبريل 1998.

1. الوصول إلى مصادر المعلومات العالمية مهما كانت طبيعتها : علمية، ثقافية، فنية،اقتصادية وسياسية.

2. إخراج الإنسان العربي من عزلته الثقافية، بتمكينه من الانفتاح على مجالات العلم والمعرفة والتكنولوجيا.

3. التعريف بالتراث التاريخي والخصوصيات الثقافية لكل بلد.

4. إبراز الطاقات العلمية والتقنية، في كل بلد.

لكل هذه الاعتبارات، يتعين على البلاد العربية أن تقحم تكنولوجيا الأنترنيت : بإنتاج أقراص CD-ROM خاصة بها لتسوق محليا، عربيا وعالميا. وهي بذلك، تتيح الفرصة للمؤسسات العربية (الاقتصادية، الاجتماعية، الثقافية، العلمية، الإعلامية، الخ)، للتعريف بنفسها ومنتجاتها عربيا وعالميا.

نظّمت منظمة اليونسكو UNESCO، خلال عام 1999، "جائزة واب"Web Prix تقدّر قيمتها بـ 10 000 دولار أمريكي. يمكن للمبدعين المستعملين للأنترنيت أن يشاركوا، في هذه الجائزة، باقتراح مواقع "واب" Web جديدة.

ينبغي أن تندرج مضامين هذه المواقع، في إحدى الفئتين الآتيتين :

الفئة الأولى : تستدعي الفئة الأولى اقتراح مواقع تعكس مضامينها التعاون الدولي في المجال التربوي أو العلمي أو الثقافي أو الاتصالي. ولهذا الغرض، تشجع منظمة اليونسكو المواقع التي تخدم الفئات الاجتماعية الآتية: النساء، الشباب والتنمية. كما تشجع المواقع التي تتعلق بالتعددية اللغوية multilinguisme والتعددية الثقافية multiculture.

الفئة الثانية : ينبغي أن تسهم المواقع الجديدة المقدمة، ضمن هذه الفئة، في ضمان "النقل الحر للمعلومات" libre circulation de l'information وتيسير الخدمة العمومية service public : لتمكين أفراد مختلف المجتمعات من الحصول –بكل حرية وسهولة – على الوثائق النصية documents textuels، المقاطع الموسيقية، اللوحات الفنية، الخ.

كما تتضمن هذه الفئة تقديم اقتراحات لمواقع "واب" تسهم في مواكبة الرهانات الثقافية والاجتماعية التي يحدثها "الوصول الحر إلى مصادر المعلومات" l'accès à l'information.

إذا كان هدف "مجتمع المعلومات" société d'information يتمثل في جعل كل مواطن يتمكن من الوصول إلى مصادر العلم والمعرفة، فإن منظمة اليونسكو تسعى، بدورها، إلى ضمان "التداول الحر للمعلومات" libre circulation de l'information، وفق ما أصبح يسمى اليوم بـ "الإتاحة الدولية للمعلومات" l'accès universel à l'information.

تتمتع شبكة الأنترنيت –بوصفها وسيلة اتصال قائمة بذاتها– بعدة مصطلحات متخصصة أصبح من الضروري دراستها وفهمها بشكل دقيق تيسيرا لاستخدامها بالشكل الأمثل. لأهمية هذه المصطلحات نتناول، في هذا البحث، دراسة المصطلحات الأساسية التي تتطلبها عملية الاتصال عبر الأنترنيت.

معجم بأهم المصطلحات

عنوان : Adresse électonique

هو عبارة عن شفرة سرية خاصة بكل مشترك في شبكة الأنترنيت، تسمح لمختلف المستعملين internautesبمراسلته إلكترونيا.

مثال : iberraken_2000 @ yahoo.fr

مثال آخر : iberraken @ hotmail.com.

أمريكا أونلاين : America Online

هو اسم إحدى الشركات الأمريكية التي تختص في تقديم الخدمات العامة، عبر الأنترنيت، لصالح العائلات. نذكر من بين هذه الخدمات الخدمتين الآتيتين□ :

1. تمكين العائلات من قراءة مختلف الجرائد والمجلات.

2. منح الربط بـ "فرق النقاش" Newsgroups (انظر هذا المصطلح) : التي هي عبارة عن "فضاءات للمناقشة" forums de discussion، يمكن من خلالها لكل مشترك في شبكة الأنترنيت، من المشاركة في نقاش أي موضوع يهمّه.

بروتوكول نقل الملفات المجهولة الهوية : Anonymous FTP

هو البرمجية logiciel التي تسمح بالدخول، في أي موقعsite من مواقع شبكة الأنترنيت : لنقل ملفاته، دون استخدام رقم حساب ذلك الموقع أو أي "كلمة عبور" mot de passe خاصة به. وما ييسر هذه العملية هو أن كل مقدمي

□. RUDOLPH MARK Torben et BEYER Arne, Trucs, Astuces et Secrets Internet, 1ère éd, traduit par WOLF Pierre M., SERRI Laurence, op. cit., p. 38-39.

الخدمات serveurs المدرجين، في شبكة الأنترنيت، لهم كـذلك – إلى جانـب أرقـام الحساب وكلمات العبور التي يميز بعضهم عن البعض الآخر– أرقام حساب مجهولة الهوية comptes anonymous.

ويعادل هذا المصطلح الإنجليزي المصطلح الفرنسيanonyme FTP.

قائمة عناوين"بروتوكول نقل الملفات" : Archie

هي البرمجية logiciel التي تسمح بالعثور على الملفـات الاتصالية[□] المدرجـة في "بروتوكول نقل الملفات" FTP (انظر هذا المصطلح). وبمجرد العثور على أي ملف يقوم "بروتوكول نقل الملفات" FTP بنقله من "موقعه"(site)، لجلبه إلى حاسوب المستعمل.

شبكة الأربانيت : Arpanet

هي الاسـم الأول لشـبكة الأنترنيـت. ظهـرت شـبكة الأربانيـت الـتي تكفلـت وزارة الدفاع الأمريكية بتمويلها، عام 1969. وكانت تضم حينئـذ عـدة مؤسسـات علميـة نـذكر مـن بينهـا : جامعـة أوتـا Université de l'Utah ومعهـد البحـث لستاندفورد Institut de Recherche de Standford.

يعني مصطلح ARPANET، في اللغة الإنجليزية :

Advenced Reserch Projects Administration Network

قائمة المناقشة الآلية: Automatic Mailing List

هي برمجية خاصة بالمناقشات الإلكترونية الآلية. انظر Mailing List.

□. أي الملفات الاتصالية من نوع تفاعـل تبـادلي interactivité. وهـي لملفـات الـتي تهـدف إلى إقامة اتصال فعلي بين مخلف مستعملي الأنترنيت : بتبادل البرامج بين بعضهم والبعض الآخر، بوساطة أجهزة الكمبيوتر المرتبطة بشبكة الأنترنيت. راجع مصطلح Interactivité.

ويعادل هذا المصطلح الإنجليزي المصطلح الفرنسي :
.Liste de Discussion Automatique

الزبون : Client

هو برمجية Logiciel تسمح للمشترك، في شبكة الأنترنيت، بالاتصال عن طريقها، بمقدم الخدمات Serveur. انظر هذا المصطلحين.

وتمتاز برمجية الزبون بمهارة فائقة تجعلها لا تنقل إلى مقدم الخدمات إلا المعلومات اللازمة.

التجارة الإلكترونية : Commerce électronique

هي التجارة التي تسمح للمنتجين بعرض منتجاتهم أو خدماتهم، عبر شبكة الأنترنيت. وهي التي تضمن لأصحابها عرضا واسع النطاق وبإمكانها جلب عدد كبير من الزبائن. كما تسمح بتخفيض أسعار المعاملات الحالية، في التجارة العالمية، وتمكن من تحقيق اقتصاد في كلفة الهاتف والورق (المستعمل في المراسلات التقليدية).

لكن هذه التجارة لا تتمتع، إلى اليوم، بنصوص قانونية خاصة بها. لضمان أمن المعاملات، فإن التجارة الإلكترونية الحالية تستلزم إطارا قانونيا وتشريعا مناسبا لحماية حقوق المتعاملين، على الصعيد العالمي.

الربط بشبكة الأنترنيت : Connexion

يتطلب الربط بشبكة الأنترنيت المستلزمات الآتية: جهاز الحاسوب والخط الهاتفي والموديم. ويوضع جهاز الموديم بين الحاسوب والخط الهاتفي (انظر الشكل الموضح في مصطلح Internet).

البريد الإلكتروني : Courrier électronique

يدلّ هذا المصطلح على الخدمات البريدية التي تقدمها شبكة الأنترنيت للمشتركين فيهـــا. وتتجســـد هـــذه الخـــدمات في تبـــادل الرسائـــل إلكترونيـــا بـــين مختلـف الأشـخاص والمؤسســات، بشـرط أن يكـون لكـل مشـترك عنـوان إلكترونـي Adresse électronique (انظر هذا المصطـلح. مثال : HASSIB @ IST. CERIST. DZ).

تتكون الرسالة الإلكترونية E–mail، على غرار الرسالة التقليدية، مـن جـزأين أساسيين[1] :

1. الرأس Header (en–tête).
2. المتن Body (corps).

يتضمن الرأس العناصر الآتية: تـاريخ الرسـالة، عنـوان المرسـل from، عنـوان المرسل إليه to، موضوع الرسالة subject، الخ. أما المتن فإنه يتعلق بمضمون الرسالة.

تواجه مستعمل البريد الإلكتروني عقبة أساسية تتمثل في صعوبة الحصول علـى عناوين مختلف المراسلين. ولم يتم تذليل هذه العقبة إلا بعد اختراع محركات البحث المتخصصـة (مثــل : "هـوويــر" whowhere أو "فـور 11" Four 11[2]) الـتي تتـولى البحث عن عنوان المرسل إليـه، اسـتنادا إلى المعلومـات البسـيطة الـتي هـي بحـوزة المرسل. لكن، يعاب على هذه المحركات أنها لا تقبل إلا المشتركين الذين سبق لهم أن أعربوا عن رغبتهم في تسجيل عناوينهم ضمن دليل خاص.

---

[1]. RUDOLPH Mark Torben et BEYER Arne, Trucs, astuces et secrets Internet, op. cit., p. 648.

[2]. RUDOLPH Mark Torben et BEYER Arne, Trucs, astuces et secrets Internet, op. cit., p. 217.

ينفرد البريد الإلكتروني بالمزايا الآتية :

1. إنه أقل تكلفة مقارنة له بالفاكس والهاتف.

2. إنه أسرع بكثير من البريد العادي، بحيث لا تستغرق مدة إرسال أي رسالة إلا بضعة ثوانٍ.

3. إمكانية إلحاق الرسالة الإلكترونية بمختلف الملفات أو الوثائق (مثل : الصور، الرسوم، الموسيقى، الخ).

4. إن الرسالة الإلكترونية تبقى مخزنة في رقم الحساب Numéro de Compte (انظر هذا المصطلح)، طوال فترة غياب المرسل إليه. وتبقى محفوظة في مساحة خاصة، إلى حين قراءتها من قبل المستقبل الذي يمكن له حذفها إذا أراد ذلك. إذا كانت<< المحاورة التليفونية تتسم بأنها تزامنية synchrone[1]، إذ إن على كلا الطرفين أن يكون على الخط في اللحظة نفسها>>[2]، فإن الاتصال، عبر البريد الإلكتروني، يعدّ اتصالا "لا تزامنيا" communication à-synchrone. والواقع أن إيجاد وسائل لتحويل أشكال الاتصال التزامني إلى أشكال اتصال لا تزامني إنما هو جزء من الطبيعة البشرية : << فقبل اختراع الكتابة منذ خمسة آلاف عام مضت، كان الشكل الوحيد للاتصال بين البشر هو الكلمة المنطوقة، وكان على جمهور الناس أن يكونوا حاضرين أمام المتكلم وإلا فستفوتهم الرسالة. وما إن أصبح بالإمكان كتابة الرسالة حتى توفرت إمكانية تخزينها وقراءتها في وقت لاحق من قبل أي إنسان ووقتما رغب في ذلك>>[3].

---

1. اللهم إذا كان المشترك في الهاتف قد حرص على تسجيل جميع المكالمات الواردة إليه باستخدام جهاز "الآنسر ماشين" أو "المجيب الهاتفي" Répondeur automatique.

2. جيتس بيل، المعلوماتية بعد الأنترنيت (طريق المستقبل)، ترجمة : عبد السلام رضوان، عالم المعرفة، الكويت، 1998، ص. 114.

3. جيتس بيل، المرجع السابق، ص : 114.

5. إذا كان المتكلم في الهاتف يمكنه أن يخفي هويته عن متلقي المكالمة الهاتفية، فإن المستقبل المشترك، في البريد الإلكتروني، بإمكانه أن يعرف هوية المرسل حال تلقيه أي رسالة منه: لأن العنوان الإلكتروني [] يحتوي على قرائن indices تسمح بمعرفة البلد الذي وردت منه الرسالة، المنطقة الجغرافية التي يوجد فيها الموقع site) الذي أرسلت بوساطته تلك الرسالة، اسم الشخص الذي راسله، الخ. يقابل هذا المصطلح الفرنسي المصطلح الإنجليزي (Electronic Mail (E-mail.

البريد الإلكتروني : Electronic Mail (E-mail)

انظر Courrier électronique.

عالم الجوفر : Espace Gopher

انظر Gopher Space.

إيدورا : Eudorat

هو البرمجية الخاصة بتشغيل البريد الإلكتروني Courrier électronique (انظر هذا المصطلح).

ليفة بصرية (ج. ألياف) : Fibre optique

هي ليفة رقيقة جدا مصنوعة من زجاج أو من مادة لدنة (بلاستيك)، مؤلفة من قلب cœur وغلاف gaine.

[]. RUDOLPH Mark Torben et BEYER Arne, Trucs, astuces et secrets Internet, op. cit., p. 725

وقد شهدت الألياف البصرية، خلال السنوات الأخيرة، تطورا كبيرا إلى أن أصبحت وسيلة ناجعة في إرسال مختلف المعلومات (في شكل إشارات ضوئية).

وتمتاز الليفة البصرية، مقارنة لها بالسلك المعدني câble métallique، بسهولة نقلها.

تجدر الإشارة، إلى أن الجزائر قد أقامت "الربط الكامل" Full Connexion بشبكة الأنترنيت، في مارس 1994، عن طريق هذه الليفة الضوئية.

راجع مصطلح Internet.

ملفات: Fichiers

تستعمل أجهزة الكمبيوتر نوعين رئيسين من الملفات :

1. ملفات "آسكي" Fichiers ASCII،
2. الملفات الثنائية Fichiers binaires.

انظر هذين المصطلحين.

ملفات "آسكي": Fichiers ASCII

هي الملفات النصية المكتوبة بالحروف المطبعية التي تتلاءم مع "شفرات آسكي" codes ASCII. وتتجسد هذه الشفرات في مجموع الحروف التيبوغرافية caractères typographiques (راجع المصطلحين : Caractères d'imprimerie, Codes typographiques).

لنذكر بعض ملفات آسكي، بالنظر إلى تركيباتها formats المختلفة :

- تركيبة "دوك" Doc.

– تركيبة "بي.إس" PS (Post Script).

– تركيبة "الهيبرتاكست" HTML (Hypertext Markup Language).

– تركيبة "في.آر.إيم.أيـل" VRML (Virtual Reality Modeling Language):

الخاص بالواقع الافتراضي Réalité virtuelle (انظر هذا المصطلح).

راجع الجدول المرفـق.

الملفات الثنائية : Fichiers binaires

هي الملفـات الـتي تشـفّر معطياتهـا، وفـق النظـام الثنـائي Système binaire : بوصفه النظام الذي يقوم على ترجمة مختلف المعلومات وتخزينها داخل حاسـوب، باستخـدام الرقمين الأساسيين الآتيين: "0" وعدد "1".

وهي الملفات التي لا تقتصر على النصوص فحسب□، بل تتضمن كذلك الجـداول، الرسوم البيانيـة، البيـانات المكتوبـة mentions écrites، الصـور□ والأصوات□.

يمكن تصنيف الملفات الثنائية، وفق الوسـائط الاتصـالية المتعـددة multimedia الآتيـــة :

□. RUDOLPH Mark Torben et BEYER Arne Trucs, astuces et secrets internet, op. cit., p. 629.

□. يمكـن أن تكـون الصـور images ثابتـة fixes (مثـل : الصـور الفوتوغرافيـة) أو متحركـة animées (مثل: الصور السينمائية وصور الفيديو).

□. تتجسد الأصوات من المنظور السيميولوجي، من خلال العناصر الدالة الآتية :

– الصوت المنطوق به son phonique (مثال: صوت المتكلم من خلال حوار الممثـل السـينمائي أو التعليق السمعي– البصري أو أي محادثة عادية).

– الصوت الموسيقي son musical: أي الموسيقى الآلية musique instrumentale.

– الصوت التماثلي son analogique (مثل: الضجيج أو الضوضاء، دوي المدافع).

أ. الملفات النصية documents textuels :

نذكر من بينها الملفات الثلاثة ذات التركيبات المختلفة الآتية: تركيبـة "دوك" Doc، تركيبة "إتش.تي.إيم.آيل" HTML، تركيبة "إتش.تي.إيم" HTM.

الوسائط الاتصالية multimedia	ملفات آسكي Fichiers ASCII	الملفات الثنائية Fichiers binaires
الملفات النصية Documents textuelles	- ملف دوك DOC . - ملف "الهيبرتاكست" . HTML . HTM . SHTML (Hypertext Markup Language) - ملف "بي.إس" PS . EPS (PostScript) . - ملف " تي.إي. إكس" TEX . - ملف "تي.إكس.تي" TXT .	
الصور الثابتة Images		- ملف "جي.آي.آف" GIF (Graphics Interchange Format). - ملف "جي.بي.إي.جي" JPEG. JPG (Joint Photography Experts Group). - ملف "بي.إين.جي" PNG (Portable Network Graphics). - ملف "تي.آي.آف.آف" TIFF. TIF (Tagged Image File Format).
الأصوات Audio		- ملف " إيى. يو" AU . - ملف "إيى.آي.آف.آف" AIFF (Audio Interchange File Format). - ملف "إيم.آي.دي" MID (Music Instrument Digital Interface). - ملف "آر. إيى" RA (RealAudio) . - ملف "واف" WAV (Waveform Audio File Format) .
الصور المتحركة Vidéo		- ملف "إيى. بي. آي" AVI (Video For Windows) . - ملف "كويك تايم" MOV. QT (QuickTime Movie) . - ملف "إيم.بي.إي.جي" MPEG . MPG (Moving Pictures Expert Group) . - ملف "آر. إيى" RA (Real Audio) .
الواقع الافتراضي Réalité virtuelle		- ملف "بي.آر. إيم. أيل" VRML .WRL .WRZ .VRW (Virtual Reality Modeling Language).

ب. الملفات المتعلقة بالصور images :

مثال : لنذكر الملفين الآتيين :

1. ملف "جي.آي.آف" GIF (Graphics Interchange Format) : الخاص بالأيقونات وبعض أنواع الصور images.

2. ملف "جاي.بي.إي.جي" JPEG (Joint Photography Experts Group) : الخاص بالصور الفوتوغرافية.

ج. الملفات الصوتية Audio :

مثال : لنذكر الملفين الآتيين :

1. ملف "إيى.يو" AU (Audio).

2. ملف "إيم.آي.دي" MID (Music Instrument Digital Interface) : الخاص بالموسيقى.

د. الملفات المتعلقة بالصور المتحركة Vidéo :

نذكر من بينها الملفين الآتيين :

1. ملف "إيى.في.آي" AVI (Video for Windows).

2. ملف "آر.إيى" RA (Real Audio) : الخاص بالصور المتحركة الناطقة.

راجع الجدول المرفق.

الملفات الطباعية : Fichiers graphiques

هي الملفات التي تتضمن الجداول والرسوم البيانية.

"المؤسسة المانحة الربط بالأنترنيت" : Fournisseur d'Accès à Internet

هي المؤسسة التي يتعيّن على كل مشترك جديد، في الأنترنيت، أن يفتح فيها رقم حساب Numéro de compte (انظر هذا المصطلح) خاص به حتى يستطيع،

مــن خلالـه الـدخول، في شـبكة الأنترنيـت. مثـال: يعـــدّ، في الجزائــر، "مركـز البحـث في الإعلام العلمي والتقني"CERIST – إلى غاية مارس 2000 – "المؤسسة المانحــة الـربط بالأنترنيـت": سـواء بالنسـبة للأشـخاص الطبيعـيين أم الأشـخاص المعنويين.

بروتوكل نقل الملفات : FTP

على غرار "بروتوكول تقل النص الفائق المحتوى" //:HTTP الـذي يقـوم بنقـل صفحات "الشبكة العنكبوتية العالمية" WWW (انظـر هـذا المصـطلح) لعرضـها علـى شاشة جهاز الحاسوب، توجد عدة طرق أخرى للدخول في شبكة الأنترنيت يأتي في مقدمتها "بروتوكول نقل الملفات" //:FTP الذي يعـدّ الطريقة الأولى[] المسـتخدمة مـن قبل مستعملي الأنترنيت، لتبادل الملفات بين بعضهم والبعض الآخر.

يختص هـذا البروتـوكـول في نقـــل الملفـــات الاتصـاليـــة (مـن نـوع تفاعــل تبادلي interactivité) : لضمـــان تبـادل المعلومـــات والوثـــائق بيـــن المشـتركين، في شبكـــة الأنترنيت.

للحصول على هذه الملفـــات الاتصالية يمكن الاستعانة ببرمجيـــة "آرشـــــي" Archie (انظر هذا المصطلح). بمجرد العثور على أي ملف من قبل برمجية "آرشـي" يقوم "بروتوكول نقل الملفات" (FTP) بنقل ذلك الملف مـن "موقعـه"site، لجلبـه إلى حاسـوب المسـتعمل. والهـدف مـن ذلـك هـو تحقيـــق تبـــادل الملفـــات بـين

[]. Initiation à la navigation sur Internet, support de cours rédigé par les techniciens du Centre de Recherche sur l'Information Technique et Scientifique (CERIST), Alger, 1999, p. 17.

الزبائـــــن Clients ومقـدمي الخـدمات Serveurs بشـكل صـحيح. انظـر هـذين المصطلحين. وقد تكون هذه الملفات برمجيات logiciels[□] أو وثائق أخرى.

يعني مصطلح FTP باللغة الإنجليزية : File Transfer Protocol.

ويعني باللغة الفرنسية : Protocole de Transfert de Fichier.

بروتوكول تبادل الملفات من خلال البريد :

FTP à Travers Electronique le Courrier

انظر FTP-by-mail.

بروتوكول تبادل الملفات من خلال البريد : FTP-by–Mail

يسمـح "بروتوكول تبـادل الملفـات من خلال البريد" لكـل مشـترك، في شبكــة الأنترنيت، بإرسال رسالـة، عبر البريد الإلكتروني Electronic Mail (انظر مصـطلح Courrier électronique)، إلى أي مقــدّم خدمـــات اتصاليــة يتضمنـــه "بروتوكـول نقل الملفات"FTP، ليطلب منه فيها إفادتـه (عـن طريـق البريـد الإلكترونـي نفسـه) بالملفات التي تهمــه. في بعـض الأحيـان، يمكـن لمسـتعمل الأنترنيــت، أن يلاقـي صعوبات في الحصول على ملف معيـن، عن طريـق "بروتوكول نقــل الملفات" FTP، وبخاصـة أن هـــذا البروتوكول يشهد، مـن حـين إلى آخـر، فـترات ازدحـام لكثـرة الطلب عليه. أمام هـذه الوضـعية وربحـا للوقـت، يمكـن لهـذا المشـترك اللجـوء إلى

□. نـذكر مـن بينهـا البرمجيـات الآتيـة : برمجيـات ألعـاب الشـطرنج، برمجيـات خاصـة بالحسابات comptabilité، برمجيات متعلقة برقن النصوص Traitement de textes وبرمجيات خاصة بالصور.

"بروتوكول تبادل الملفات من خلال البريـد" Ftpmail : لـ << يتـولى جلـب ذلـك الملف، بوساطة البريد الإلكتروني، إلى جهاز الكمبيوتر الموجود في بيتـه >>□.

يعادل هذا المصطلح الإنجليزي المصطلح الفرنسي :

FTP à Travers Electronique le Courrier.

الجوفر : Gopher

برمجية logiciel تسمح بالعثور على مختلـف المصــادر والمعلومـات، بالاعتمـاد على القوائم menus (أي من غير تسجيل عناوين المواقع adresses des sites).

يعـني هـذا المصـطلح، في اللغـة الإنجليزيـة : "الحيـوان الصـغير مـن فصـيلة القوارض، الذي يكـدح كثيرا للحصول على قوت صغاره". وقد اشـتق مـن الكلمـتين الإنجليزيتين : go fer : أي "أذهب وأبحث".

إذن، فـإن برمجيـــة جوفـــر تشبـــه ذلـك الحيـوان مـن فصيلـــة الثـدييات mammifère التي تقرض شبكة الانترني.

عالم الجوفر : Gopher Space

يطلق هذا المصطلح على عملية الانتقال بين القوائم المدرجة في برمجيـة الجـوفر Gopher. وهـو ما يعني الإبحـار Navigation، في عـالــم الجوفـــر. انظـر هذيــن المصطلحين.

يعادل هذا المصطلح الإنجليزي المصطلح الفرنسي Espace Gopher.

□. RUDOLPH Mark Torben et BEYER Arne, Trucs, Astuces et Secrets Internet, op cit., p. 628.

المضيف : Host

هو كل جهاز كمبيوتر مرتبط بشبكة الأنترنيت يقع في مكان بعيد. ويمكن الدخول عليه باستخدام برمجية "الربط عن بعد" Telnet (انظر هذا المصطلح).

لغة إشارات النص الفائق المحتوى : HTML

هي لغة برمجة langage de programmation محتويات مختلف مواقع "الشبكة العنكبوتية العالمية" WWW (انظر هذا المصطلح). وهي كذلك اسم التركيبة format[] التي تتميز بها صفحات "الشبكة العنكبوتية العالمية" (من حيث التصميم، الكتابة، الطبع والعرض).

كما تمتاز هذه اللغة بشمولها العديد من الوسائط الاتصالية المتعددة multimédia (مثل : النصوص، الجداول، الرسوم البيانية، الصور والأصوات).

الرسوم البيانية، الصور والأصوات).

يعني هذا المصطلح باللغة الإنجليزية : Hyper Text Markup Protocol.

ويعادله المصطلح الفرنسي : Protocole de Balisage Hypertext.

بروتوكول نقل النص الفائق المحتوى : HTTP

هو البرمجية logiciel التي تسمح بنقل صفحات "الشبكة العنكبوتية العالمية" WWW (انظر هذا المصطلح) لعرضها على شاشة جهاز حاسوب المستعمل.

يعني مصطلح HTTP باللغة الإنجليزية : Hyper Text Transfer Protocol.

ويعادله المصطلح الفرنسي : Protocole de Transfert Hypertext.

[]. RUDOLPH Mark Torben et BEYER Arne, Trucs, astuces et secrets Internet, op.cit. p. 742.

النص الفائق المحتوى : Hypertexte

هو النص المدرج في "الشبكة العنكبوتية العالمية" WWW الذي تتشابك عناصره بين بعضها والبعض الآخر من خلال روابط منطقية liens logiques (راجع مصطلح WWW)، إذ تسمح لأي مشترك، في شبكة الأنترنيت، بالإبحار نحو نصوص أخرى.

وهو النص الذي يكون مسجلا في ملف يتضمن وسائط اتصالية متعددة multimédia (مثل: النص، الصورة، الصوت، الخ).

تفاعل تبادلي : Interactivité

هي الملفات الاتصالية التي يقترحها مقدمو الخدمات serveurs التابعين لـ : "بروتوكول نقل الملفات" FTP (انظر هذا المصطلح). وهي الملفات التي تهدف إلى إقامة اتصال فعلي بين مختلف مستعملي الأنترنيت.

كما يمكن أن تكون هذه الملفات عبارة عن برمجيات (مثال : برمجيات خاصة بألعاب الشطرنج أو برمجيات متعلقة بالحسابات comptabilités، الخ).

الأنترانيت : **Intranet**

إذا كانت شبكة الأنترنيت Iinternet (بوصفها "شبكة الشبكات" le réseau des réseaux) تجسد الاتصال ما بين مختلف الشبكات المعلوماتية العالمية المرتبطة بين بعضها والبعض الآخر، فإن شبكة الأنترانيت Intranet (بوصفها شبكة المؤسسة) هي التي تضمن الإعلام والاتصال داخل المؤسسة الواحدة.

قائمة المناقشة : Liste de discussion

انظر Mailing List.

قائمة المناقشة الآلية : Liste de discussion automatique

يعادل هذا المفهوم الفرنسي المفهوم الإنجليزي Automatic Mailing List (انظر هذا المصطلح).

قائمة المناقشة : Listes Mailing

انظر Mailing List.

قائمة المناقشة : Mailing List

هي برمجية logiciel تسمح لأي مشترك، في شبكة الأنترنيت، بأن يناقش إلكترونيا مختلف الموضوعات (الثقافية، الفنية، السياسية، الاقتصادية، الخ) مع مجموعة من المشتركين، في الشبكة. ولا يمكن إجراء هذه المناقشة الإلكترونية إلا للأشخاص الذين سبق لهم أن سجلوا أسماءهم ضمن قائمة خاصة.

كما يمكن لمستعملي البريد الإلكتروني Courrier électronique (انظر هذا المصطلح) من الاستفادة من هذه الخدمة. وهو ما يفسح المجال لهم من المشاركة في مثل هذه المناقشات أو المؤتمرات.

ويعادل هذا المصطلح الإنجليزي المصطلح الفرنسي : Liste de discussion.

انظر المصطلحين : Automatic Mailing List, Newsgroups.

النمط الطباعي : Mode graphique

– في الأنترنيت : هو النمط الذي يتم بوساطته الحصول على النص المكتوب texte (انظر Fichiers ASCII)، مرفقا بعدة وسائط اتصالية multimedia أخرى (مثل: الصورة، الرسوم البيانية، الصوت، الخ). انظر Fichiers binaires.

ويقابل النمط الطباعي النمط النصي Mode textuel (انظر هذا المصطلح).

الموديم : Modem

– في الأنترنيت : هو الجهاز الإلكتروني الذي يوضع بين الحاسوب والخط الهاتفي للربط بينهما. ويقوم بتشكيل أرقام الهاتف ليسمح للحاسوب بإجراء الاتصال عبر خط هاتفي: بتحويل الإشارة الرقمية numérique (= المعلوماتية informatique) إلى الإشارة التماثلية analogique (= الهاتفية téléphonique). والعكس.

النمط النصي : Mode textuel

– في الأنترنيت : هو النمط الذي يتم بوساطته الحصول على النصوص المكتوبة textes (انظرFichiers ASCII) فقط، دون الوسائط الاتصالية الأخرى.

ويقابل "النمط النصي" "النمط الطباعي" Mode graphique (انظر هذا المصطلح).

المبحر : Navigateur

هو البرمجية Logiciel التي تسمح بالانتقال (استنادا إلى روابط "النص الفائق المحتوى" liens Hypertextes) من "موقع" site إلى آخر، داخل "الشبكة العنكبوتية العالمية" WWW. كما تسمح هذه البرمجية بعرض صفحات "بروتوكول نقل النص

الفـائق المحتـوى" HTTP علـى شاشـة جهـاز الحاسـوب. انظـر مختلـف هـذه المصطلحات.

الإبحار : Navigation

يدل هـذا المصـطلح، في لغـة الأنترنيـت، علـى عمليـة الانتقـال بـين "مواقـع" sites "الشبكة العنكبوتية العالميـة" WWW (انظر هذا المصطلـح): لعـرض مختلـف الملفات fichiers المدرجـة، في شبكة الأنترنيت.

فرق النقاش : Newsgroups

هي فـرق النقـاش groupes de discussion التابعـة لشـبكة "يوزنـات" Usenet (انظر هذا المصطلح) . وتوجد عبر العالم عدة "فرق نقاش": بعضها مسجّل في القوائم الرسمية لشبكة "يوزنـات" والبعض الآخر غير مسجل وغير معروف.

يمكن تصنيف "فرق النقاش" المسجّلة في القوائم الرسمية لشبكة "يوزنات" إلى سبع فئـات كـبرى تـدعى "بيـغ سـيبن" Big Seven. وهـي: "كامـب" COMP، "مايســـك" MISC، "نيـــوز" NEWS، "راك" REC، "إس.ســـي.آي" SCI، "إس.أو.سي" SOC و"تولك" TALK.

تقترح مجموعة "نيوز" NEWS الموضـوعات الآتيـة : علـم الأحيـاء biologie، الطـــب médecine، الرياضـــيات mathématiques، المعلوماتيـــة informatique، علـم الاجتمـاع sociologie، القضايـا السياسيـــة la politique، الشـؤون الدينيـة la religion، الخ.

أما مجموعة "تولك" TALK فهي التي تسمح بإجــراء النقــاش الحــي (live) المبـاشر (en direct). وتسـتدعي تقنيـة المباشـر أن يكـون المتحـدثان علـى الخـط، في اللحظة نفسها.

تُعـدّ هذه المجموعات "فضاءات حرة للمناقشـة" discussion forums de يمكـن من خلالها لمستعملي الأنترنيت من نقـاش العديـد مـن الموضـوعات المهمّـة: ضـمانا لتبادل وجهات النظر بين بعضهم والبعض الآخر.

كما ترتبط هذه الخدمة أيضا بالبريد الإلكتروني Electronic Mail : فـإذا طـرح أحد المشتركين (المسجّل في فرقة نقاش معينة) أي سؤال يتعلـق بقضـية مـن القضـايا فإن ذلك السؤال يُستقبل بطريقة آلية من قبـل جميـع مشـتركي تلـك الفرقـة. انظـر Mailing List.

ومــن جهـــة أخـــرى، نلاحـــظ بــأن المؤسســـة الأمريكيـــة "أمريكـا أونلاين" America Online (انظـر هذا المصـطلح) هـي الـتي تمـنح الربــط بــ "فــرق النقـاش"، بمقابل أسعار معقولة[].

رقم حساب : Numéro de compte

عند الاشتراك في شبكة الأنترنيت، يتعين على كل مشترك فتح حساب يحمل رقما خاصا (يماثل رقم الحساب المصـرفي) لـدى : "المؤسسـة المانحـة الـربط بشـبكة الأنترنيت" Fournisseur d'accès à internet (انظر هذا المصطلح). وبفضل هـذا الـرقم الخاص يمكن التمييز بين مختلف مستعملي internautes شبكة الأنترنيت.

[]. RUDOLPH Mark Torben et BEYER Arne, Trucs, astuces et secrets Internet, op.cit. p. 249

بروتوكول مكتب البريد :POP

هو برمجية logiciel تسمح للمشتركين، في شبكة الأنترنيت، باستلام رسائلهم الإلكترونية المودعة في صناديق بريد B.P "المؤسسات المانحة الربط بشبكة الأنترنيت" Fournisseurs d'Accès à Internet (انظر هذا المصطلح).

يعني مصطلح POP، في اللغة الإنجليزية : Post Office Protocol.

ويعادله المصطلح الفرنسي : Serveur de Courrier Entrant.

الواقع الافتراضي : Réalité virtuelle

هو الواقع الذي يتكون من صور افتراضية images virtuelles يحصل عليها المبدع عن طريق الحاسوب. وهي صور اصطناعية ثلاثية الأبعاد تمتزج فيها الحقيقة بالخيال.

إذا كان مسؤولو القاعات السينمائية المختصة في عرض "الأفلام المجسَّمة ذات السطح البارز" films en relief يسلمون للمتفرجين نظاراتٍ خاصة تسمح لهم بمشاهدة هذا النوع من الأفلام، فإن تكنولوجيا الواقع الافتراضي تستدعي، هي كذلك، ارتداء خوذات (ذات نظارات خاصة) وقفازات، الأمر الذي يمكن مستخدم هذه التكنولوجيا من الغوص بكل حواسه في بيئة الكمبيوتر المصطنعة، لاستكشاف الصور المعروضة ومعايشة عالم المحاكاة أو الخيال كما لو كان واقعا فعليا.

تعد ملفات "آسكي" الآتية : VRW، WRZ، WRL، VRML (انظر الجدول المرفق بمصطلح Fichiers ASCII) ملفات قادرة على وصف الأشكال الثلاثية الأبعاد، في وسطها الفعلي. وهي الملفات المعلوماتية informatiques التي تستعمل كذلك، في الأنترنيت، وبالتحديد في منظومة "واب" WWW (انظر هذا المصطلح).

وتستعمل تكنولوجيا الواقع الافتراضي لعدة أغراض وتطبيقات عسكرية. وقد استخدمت، خلال السنوات الأخيرة (وبخاصة في حرب الخليج وخلال القصف الجوي الأمريكي على أفغانستان)، في تحديد الأهداف أثناء أي هجوم عسكري.

مُقدِّم الخدمات : Serveur

هو البرمجية logiciel التي تقدم خدمات محددة، في شبكة الأنترنيت. وهي الخدمات التي تنقل إلى الزبون Client (انظر هذا المصطلح)، في شكل رسائل messages إلكترونية.

الخط المتسلسل للأنترنيت : SLIP

هو البرمجية التي تسمح باستعمال شبكة "بروتوكول مراقبة النقل / بروتوكول الأنترنيت" TCP/ IP : لغرض ربط أي جهاز حاسوب بالأنترنيت عبر جهاز الموديم modem والخط الهاتفي.

يعني هذا المصطلح، باللغة الإنجليزية : Serial Line Internet Protocol .

ويعادله المصطلح الفرنسي : Protocole Internet pour les Lignes en Série.

بروتوكول مراقبة النقل / بروتوكول الأنترنيت : TCP/IP

يدل هذا المصطلح على الجزء الخفي partie cachée، في شبكة الأنترنيت. وهو الجزء الذي يتمثل في مجموعة من البرمجيات logiciels التي تسمح بربط الشبكات المعلوماتية الموجودة في شتى أنحاء العالم، بغرض إقامة الاتصال بين بعضها والبعض

الآخر، عبر شبكة الأنترنيت. بمعنى آخر، يعني هذا المصطلح : << اللغة المشتركة التي تتخاطب بوساطتها كل أجهزة الكمبيوتر المرتبطة بشبكة الأنترنيت>>[□].

يعني هذا المصطلح، في اللغة الإنجليزية :
Transmission Control Protocol / Internet Protocol.

ويعادل هذا المصطلح الإنجليزي المصطلح الفرنسي :
Protocole de Contrôle de Transmission / Protocole Internet.

الربط عن بعد : Telnet

هو برمجية logiciel تسمح بالاتصال مباشرة بالحواسيب البعيدة المرتبطة بشبكة الأنترنيت. ويمكن للمشترك، من خلال هذه البرمجية، من الاستفادة من عدة خدمات. مثل : الاتصال ببنك المعلومات الخاص بمختلف المؤسسات، الاطلاع على عناوين الكتب الموجودة في مختلف المكتبات العالمية، إمكانية الحصول على مضامين تلك الكتب، الخ.

ويعادل هذا المصطلح الإنجليزي المصطلح الفرنسي Machine Distante.

زمن الحدث : Temps réel

تتميز الأنترنيت، مقارنة بوسائل الإعلام والاتصال الجماهيري (Mass media)، أن الاتصال بين المرسل والمتلقي يمكن أن يكون سواء اتصالا "لا تزامنيا"(à-synchrone) أو اتصالا "مؤجّلا" différé (كما هو الحال، في نموذج البريد الإلكتروني Courrier électronique. انظر هذا المصطلح) أم اتصالا

□. RUDOLPH Mark Torben et BEYER Arne, Trucs, astuces et secrets Internet, op. cit. p. 73

"تـزامـنـيـــا" synchrone : وهــو الاتصــال الحـــي (live) أو المباشــر علــى الهــواء (en direct) الذي تعتمده "فـرق النقـاش" (وبخاصة فيما يتعلـق بمجمـوعــة "تولك" TALK. انظـــر Newsgroups)، الأمـــر الـذي يضمـــن وصــول المعلومـات -مـن المرسل إلى المتلقي- في زمن حدوثها.

شبكة الأخبار عبر الأنترنيت : Usenet

هــي إحــدى شــبكات الأنترنيــت المتخصصــة في الأخبــار ومناقشــة مختلـف الموضوعات. وهي شبكة تضم عدة "فرق نقـاش" Newsgroups (انظـر هـذا المصـطلح) تحظى بإقبال عدد كبير من المشتركيـن. وتصلـهم الأخبار، في شكل مقالات مكتوبـة تدعى news (nouvelles) لتسـمح لكـل مشـترك بقراءتهـا: سـواء للتعليـق عليهـا أم لإعادة كتابتها من جديد (إذا كان ذلك ضروريا).

من جهة أخرى، نلاحظ بأن عددا كبيرا من مستعملي الأنترنيت لا يتابعون إلا هذه الشبكـة المتخصصـة، وبخاصـة أنهــا تُعــدّ، منـذ ربطهــا بمختلـف شبكــات الأنترنيت، في نهاية الثمانينيات، وسيلة اتصال مهمّة (بوصفها منبرا حـرا) وشـبكة عالمية كبيـرة (بحيث تشغل حوالي 30.000 نظـام[1] قـادر علـى تحقيــق التبـادل اليومي للأخبار بين كل المشتركيين).

فيرونيكا : Veronica

برمجية logiciel تسمح بالبحث عن مختلف قوائم menus "الجوفــر" Gopher (انظـر هذا المصطلح).

---

[1]. RUDOLPH Mark Torben et BEYER Arne, Trucs, astuces et secrets Internet, op. cit. p. 670.

الواقع الافتراضي : Virtual reality

انظر Réalité virtuelle.

الشبكة العنكبوتية العالمية : WWW

تتميز نهاية القرن العشرين بالتطور المذهل الذي حدث في مجالي المعلوماتية informatique والاتصالات السلكية واللاسلكية télécommunications. وقد نجم عن الزواج السعيد لهذين المجالين ميلاد عدة شبكات معلوماتية réseaux informatiques تأتي في مقدمتها شبكة الأنترنيت Internet.

إذا كانت شبكة الأنترنيت، في الثمانينيات، وقفا على الباحثين والجامعيين فإنها أصبحت، في التسعينيات، وسيلة اتصال تختزل الوقت والمسافات لكثير من سكان العالم.

وقد أصبح هذا التواصل (بين مختلف الأفراد والمؤسسات) ممكنا بفضل :

<< منظومة "واب" Web (World Wide Web) >> [1]. تم اختراع هذه المنظومة، عام 1989، في سويسرا، من قبل "المركز الأوروبي للبحث النووي" CERN.

تُعدّ هذه المنظومة أداة طباعية outil graphique قوية بإمكانها الحصول على النص المرفق بعدة وسائط اتصالية (مثل: الجداول، الرسوم البيانية، الخرائط

[1]. OUAHES Karim, "Etude et conception d'une interface Web avec les SGBDS relationnels", CERIST (Revue d'Information Scientifique et Technique), Vol 7, n° 2, 1997, p. 11.

الجغرافيـة، الصـور والأصـوات). وهـي منظومـة سـهلة الاسـتعمال تمكـن مسـتعملي الأنترنيت، مـن الاطلاع على الكثير من المعلومات المثيرة وتحقق لهم الخدمات المهمة الآتية: التجارة عن بعد télécommerce، السياحة عـن بعـد télétourisme، العـلاج لطبـي عـن بعــد télémedecine، التعليـم عـن بعـد téléenseignement والعمــل عـن بعد télétravail.

وهكذا، أصبحت هذه المنظومة الإعلامية والاتصالية شـبكة عنكبوتيـة بكـل مـا تحمله الكلمة من معنى. وهـي تقوم على ربط مختلف مقـدمي الخـدمات Serveurs[1] بين بعضهم والبعض الآخر، من خلال روابط شكلية liens physiques (أي الشبكــة المؤلَّفـــة مـــن الأجهـــزة الإلكتـرونيـــة le résau matériel) وروابــط منطقيــة Liens logiques (أي روابط "النص الفائق المحتوى" liens Hypertextes).

تـتــم هــذه الخدمــة بفضــل : << "لغـة الهيبرتاكسـت"HTML (انظـر هـذا المصطلح)>>[2]. وهي لغة البرمجة langage de programmation الـتي تسـمح بهيكلـة structuration صفحات"الشبكة العنكبوتية العالمية" (من حيـث التصـميم، الكتابـة، الطبع والعرض). ويتم نقل هذه الصفحات لعرضها على شاشة جهاز الحاسوب، عن طريق "بروتوكول نقل النص الفائق المحتـوى"HTTP (انظر هذا المصطلح).

يعني تعبير Web "الشبكة العنكبوتية" Toile d'araignée.

ويعادل مصطلح "WWW" المصطلح الفرنسي:

«Toile d'araignée de documents couvrant le monde entier».

---

1. نذكر من بينهم : مقدم خـدمـات الجوفـر Gopher serveur، مقـدم خدمات بروتـــوكـــول نـقـل الملفات serveur FTP، مقدم خـدمات الربــط عـن بعـدTelnet serveur، مقـدم خـدمات بوتوكول نقل النص الفـائق المحتــوى serveur HTTP (الخـاص بمنظومـة "واب")، الخ. انظـر المصطلحين: Serveur, Client.

2. Idem., ibid., p. 12.

إكس موديم : X modem

هو إحدى البرمجيات logiciels الأولى المستعملة من قبل "بروتوكول نقل الملفات"FTP (انظر هذا المصطلح). ويُعاب على هذه البرمجية أنها بطيئة جدا ولا تسمح بنقل الملف دفعة واحدة وإنما يتم ذلك على عدة مراحل. وتستخدم لاكتشاف الأخطاء التي قد تحدث أثناء عملية النقل.

واي موديم : Y modem

هو إحدى برمجيات "بروتوكول نقل الملفات" FTP (انظر هذا المصطلح). وتستخدم لنقل الملفات بسرعة فائقة، وبخاصة أنها ترفق بعدة خصائص (مثال: تاريخ اليوم، الساعة، الخ).

زاد موديم : Z modem

هو إحدى برمجيات "بروتوكول نقل الملفات" FTP (انظر هذا المصطلح) التي تقوم بالنقل المتواصل لعدة ملفات (بمجرد إعطاء أمر واحد). كما تسمح بنقل أي فقرة من ملف ما (دون اللجوء إلى نقل ذلك الملف بكامله).

عنوان الدراسة باللغة الفرنسية :

"Internet : étude communicationnelle et terminologique»

Par : IBERRAKEN Mahmoud

الملخص باللغة الفرنسية Abstract :

Cette étude comporte deux parties. La première partie met en exergue les caractéristiques communicationnelles de l'internet : les origines et l'évolution de ce réseau , son usage dans les différents aspects de la vie, les procédures d'abonnement et son introduction en Algérie ainsi que les

différents services que propose l'internet à la société de communication d'aujourd'hui et de demain. La deuxième partie étant lexicologique passe en revue les principaux termes relatifs à l'internet, comme le courrier électronique, le commerce électronique Fichiers binaires, FTP, Newsgroups, Réalité virtuelle, WWW, etc.

عنوان الدراسة باللغة الإنجليزية :

″Internet : Communicational and Terminological Study″

تجربة المجلس الأعلى للغة العربية

في وضع المصطلحات

قراءة في معجم المصطلحات الإدارية

لعبيدي بوعبد الله

أستاذ مساعد بجامعة البليدة

إن أهم سمة يتسم بها هذا العنصر هي العلمية في تناول مختلف القضايا الإنسانية والاجتماعية، وتقتضي هذه العلمية استخدام الأسلوب العلمي، الذي هو عبارة عن عدد من المفردات مثل الأسلوب الأدبي أو الديني، إلخ، أضيفت عليه معان خاصة، تعارف عليها العلماء كل في مجال تخصصه" وهي ما تعرف بالمصطلحات العلمية.

وإذا كان الميل إلى دراسة المصطلحات بما يصحبه من استقراء وضبط وتحرّ وتحقيق وتحليل وتقييس وفهم للنظام الاصطلاحي وتخير لاستراتيجيات الوضع هو أهم ما يهدف إليه علم المصطلح (Therminologie)، فإن الخوض في موضوع هذا العلم ليس من السهولة بمكان؛ للمكانة التي يحتلها بين بقية العلوم، فهو علم العلوم بلا منازع، والرواق الذي نلج من خلاله في أغوار الحقول المعرفية المتعددة.

أضف إلى خطورة الموضوع إمكانية الفشل في اختيار المصطلحات المناسبة (التسمية) الدالة على المعاني المقصودة (المفهوم)، باعتبار أن المصطلحات تدخل ضمن الأرصدة اللغوية لمختلف الألسن البشرية، ومن ثم كان النظر الفاحص والتفكير المتريث والوعي بعملية ميلاد المصطلحات تلك أولى من محض التبني الذي قد يسيء إلى اللغة من حيث بنيتها وقواعدها وأنماطها الداخلية وفلسفتها ووظائفها أكثر مما يثريها ويطورها.

ذلك أن تطور الأمم مرهون بمدى استيعاب للعلوم وتطويرها للمفاهيم واعتناؤها بالتسمية يضمن لها تنمية لغوية وتواصلا ابستمولوجيا لا يمكن أن يستغني عنه تنمية جميع الأصعدة الفكرية والمناحي الحياتية.

وإذا عرفنا ما للجهاز المصطلحي من دور في إثراء اللغة والحفاظ على توازنها اللساني والاجتماعي والمعرفي أدركنا دافعية اهتمام العلماء اليوم البالغ بعلم المصطلح، وتخصيص المؤتمرات العلمية والدورات المنتظمة العديدة لوضع المصطلحات وتوحيدها والتنظير لها، وحل المعضلات التي تلحقها وقد تعيقها في شتى الميادين العلمية والفنية والتقنية، إلخ، على الرغم من أن للعرب السابقية في الاهتمام بهذا المجال.

فنظرة خاطفة على حركة الترجمة والنقل□ خلال عصر المأمون (170هـ-218هـ) تكشف أن مئات من العلماء قد بذلوا طاقات هائلة قصد تأدية المفاهيم العلمية، وبها حددوا مبادئ العلم الذي أتاح للأوربيين –فيما بعد– معايشتها بفضل ما نقل إلى اللاتنية وإلى لغات أخرى من كتب عربية□، وأورد في هذا الصدد ما قاله الجاحظ (162هـ/775م-255هـ/868م) حيث يقول : "وقد نقلت كتب الهند، وترجمت حكم اليونان، وحولت آداب الفرس، فبعضها ازداد حسنا، وبعضها ما انتقص شيئا"□.

□. ينظر بحث "حركة النقل والترجمة حتى العصر العباسي" : منجية منسية ضمن الترجمة ونظرياتها : لمجموعة من الأساتذة، بيت الحكمة، تونس، 1989 : 145 وما بعدها.

□. التعريب وتنسيقه في الوطن العربي : محمد المنجي الصيادي. مركز دراسات الوحدة العربية، ط5، بيروت، 1993 : 33-34.

□. كتاب الحيوان : الجاحظ، تح : عبد السلام هارون، ط1، 1938: 75/1.

وترجع بوادر المصطلحية (Terminographie) المعاصرة إلى بعض علماء الاختصاص في أوربا، ثم عند العلماء العرب بعد النهضة التي عاشتها مصر في عهد محمد علي (1183هـ/1769م-1266هـ/1849م)[1].

ثم رعيل آخر في نهايات القرن 19 وبداية القرن 20[2].

ولقد كان النشاط المصطلحي في البلاد العربية ولا يزال تنظيرا ووضعا في عدد من الاقطار كمصر وسوريا والعراق والأردن حيث المجامع اللغوية، ومكتب تنسيق التعريب في المغرب، وبعض المؤسسات الأخرى، وجهود بعض العلماء في المشرق والمغرب[3].

وفي الجزائر يعد معجم المصطلحات الإدارية الذي نشره المجلس الأعلى للغة العربية مبادرة رائدة –حسب علمي– ومحاولة تأسيسية حسنة لولا بعض النقائص التي يستحسن مراعاتها قصد استدراكها في الطبعات اللاحقة والمشاريع القادمة.

إنها قراءة متواضعة أحاول من خلالها الإشارة إلى أهم النقاط المتعلقة بجوانب نظرية تتعلق بعلم المصطلح "Terminologie" وأخرى إجرائية تتعلق بالمصطلحية "Terminographie".

أولا : معجم خاص أم معجم عام !

---

[1]. انظر : "من قضايا المنهج في نقل المصطلح العلمي ووضعه وتقسيمه في اللغة العربية" : إبراهيم بن مراد، ضمن : الثقافة بوصفها تعبيرا، مطبعة م ع ت ث ع، تونس، 1992 : 100 وما بعدها.

[2]. "المصطلحية العربية المعاصرة" : جواد حسني عبد الرحيم سماعنه، ضمن مجلة : اللسان العربي، العدد 37، 1993 : 163.

[3]. ينظر المرجع نفسه : 164.

إن أول ما يلفت نظر متصفح المعجم أنه يضم مصطلحات من شتى التخصصات "Multidisciplinaire" مما يجعله معجما عاما، وليس إداريا بالمفهوم الدقيق للفظ، أما باعتبار المفهوم الإجرائي أي واقع الاستعمال، فإن كثيرا من المصطلحات قد أغفل لأسباب لم يشر إليها في مقدمة المعجم، رغم كثرة استخدامها في مختلف إداراتنا ومؤسساتنا، وهي تنتمي إلى هذه الحقول المفهومية نفسها. وإلا كيف نفسر ورود مصطلح "الكلب–Rage" و"قرص مضغوط–Cd rom" و"سنة كبيسة – Année bissextile" و"رياضة الدراجات – Cyclisme" وأغفلت "Asthme" و"Fax" و"Clavier" و"Cadastre" و"Athlétisme" وغيرها من المصطلحات التي لا يمكن حصرها في هذا المقام مما لها نظيراتها في المعجم. والجدول الآتي يبرز عينة من هذه المجالات، وأمثلة عن مصطلحات كل مجال :

أ– المصطلحات الاقتصادية والفلاحية :

اللفظ العربي	المقابل الفرنسي	الصفحة	
		عربي فرنسي	فرنسي عربي
أزمات اقتصادية	Crises économiques	4	63
أعباء وتكاليف	Charges	5	37
أموال تجارية	Capitaux marchands	8	32
الصندوق الوطني	Caisse nationale	26	غير وارد
تضخم مالي	Inflation monétaire	49	107
تكلفة	Coût	56	61

حملة الحرث والبذر	Campagne labour-semaille	74	32
رسم إضافي	Surtaxe	88	194
زراعي	Champêtre	94	36
سقي أو ري	Irrigation	99	110
سوق حرة	Marché libre	102	121
صرف العملة	Change de monnaie	111	36

ب – الأدوات والآلات :

اللفظ العربي	المقابل الفرنسي	الصفحة	
		عربي فرنسي	فرنسي عربي
ثاقبة أو مثقاب يدوي	Chignole	63	38
حاضنة	Couveuse	68	61
سلك كهربائي	Cable secteur	99	34
عاكسة أو مرآة عاكسة	Reflecteur	122	غير وارد
عداد الغاز	Compteur gaz	122	49
عدسة بلورية	Cristallin de l’œil	123	93
قارورات الغاز	Bouteilles à gaz	138	29
ميزان إلكتروني	Balance électrique	193	25

جـ– المصطلحات الفنية والرياضية :

اللفظ العربي	المقابل الفرنسي	الصفحة	
		عربي فرنسي	فرنسي عربي
رياضة الدراجات	Cyclisme	93	65
رياضة الكرة الحديدية	Boulisme	93	29
سباق السرعة	Course de vitesse	96	61
سباق نصف الطويل	Cours de demi-fond	96	60
فن الخط	Calligraphie	135	32
فنون تشكيلية	Arts plastiques	135	18
فنون خطية	Arts graphiques	135	18
مقياس الرسم	Echelle de dessin	184	86

د- المعادن والأحجار :

اللفظ العربي	المقابل الفرنسي	الصفحة	
		عربي فرنسي	فرنسي عربي
رصة حصبوية	Ballast en gravier	91	25
رمل حجري	Sable caillouteuse	93	182
رمل خشن	Sable grossier	93	182
صخر حمضي	Roche acide	110	180
فولاذ مطرق	Acier laminable	136	6

هـ- المصطلحات الطبية والبيطرية والبيولوجية :

اللفظ العربي	المقابل الفرنسي	الصفحة	
		عربي فرنسي	فرنسي عربي

تعفن	Putréfaction	51	158
تغطية طبية	Couverture médicale	52	61
زكام	Rhume	94	180
علم البيئة الحيوية	Ecobiologie	127	86
غيبوبة	Coma	131	44
كلب	Rage	150	161
لجنة طبية	Commission médicale	153	45

و- مصطلحات الإعلام الآلي :

اللفظ العربي	المقابل الفرنسي	الصفحة	
		عربي فرنسي	فرنسي عربي
بوغ 2000	Bogue 2000	35	27
تطبيقات معلوماتية	Aplications informatiques	49	15
حاسوب	Ordinateur	68	132
شبكة معلوماتية محلية	Reseau local	104	176
فأرة الحاسوب	Souris	133	190
فهرس البطاقية	Répertoire de fichier	135	175
قرص مضغوط	Cd rom	142	34
محو ملف	Effacer un fichier	162	87
مفتاح وظيفي	Touche clavier	179	201
نقل بطاقية	Transferer un fichier	200	202

ز- المطلحات الكيميائية والفيزيائية:

اللفظ العربي	المقابل الفرنسي	الصفحة

		عربى فرنسى	فرنسى عربى
أميانت الإسمنت	Amiante Ciment	8	13
احتراق	Combustion	18	44
بيوتكنولوجيا	Biotechnologie	35	27
جهاز الاستقطاب البيانى	Polarographe	35	27
خصائص فيزيوكيميائية	Proprieté[s] physico-chimiques	78	155
ذوبان، أو انحلال	Solubilité	85	189
سكر القصب أوسكاروز	Sacharose	99	182
فيزيا[ء]	Physique	137	139
قطران	Brai	145	29
كيمياء	Chemie	151	39
كيمياء حيوية	Biochemie	151	27
مقاومة حرارية	Resistance thermique	180	178

ح- المصطلحات القانونية والسياسية :

اللفظ العربي	المقابل الفرنسي	الصفحة	
		عربي فرنسي	فرنسي عربي
أحكام قانونية	Dispositions statuaires	3	80
احتياط قانوني	Reserve légale	10	176
إصلاح القوانين الأساسية	Refonte des statuts	13	166
إطار قانوني	Cadre juridique	13	31
اتفاق دولي	Accord international	18	5
بروتوكول أو اتفاق	Protocole	32	156
تلفيق قانوني	Surjection canonique	58	194
حالة موضوع نزاع	Cas litigieux	69	33
دعوى قضائية	Action judiciaire	81	7

ط- المصطلحات الإدارية البحتة :

اللفظ العربي	المقابل الفرنسي	الصفحة	
		عربي فرنسي	فرنسي عربي
أمانة أوسكرتارية	Secretariat	7	184
إدارة أملاك الدولة	Domaines	10	82
إشعار بالوصول	Avis d'arrivée	12	24
استدعاء مجلس الإدارة	Convocation du conseil de direction	21	58
ترقية بالأقدمية	Promotion à l'ancienneté	44	154
توظيف	Recrutement	62	165
طلب مقابلة	Demande d'audience	119	66
عطلة سنوية	Congé annuel	125	51

ي- مصطلحات أخرى :

اللفظ العربي	المقابل الفرنسي	الصفحة	
		عربي فرنسي	فرنسي عربي
أخلاق حسنة	Bonnes mœurs	3	28
خيبة أمل	Déception	79	70
داكن أو مظلم أو قاتم	Sombre	80	189
رزمة أو حزمة	Paquet	88	135
سنة كبيسة	Année bissextile	101	14
سياج : بالأسلاك الشوكية	Clôture : en Zimerman	102	41
سيارة أجرة جماعية	Taxi collectif	103	198
ظاهرة عشوائية	Phenoméne à	121	139

	léatoire		
نقل عمومي للمسافرين	Transport public de voyageurs	200	203

لقد كان بالإمكان تفادي مثل هذا النقص وذلك الخلط لو خصص المجلس عدة لجان تتألف كل لجنة من لسانيين ومترجمين وإعلاميين ومختصين في مختلف المعارف والفنون، تهتم كل لجنة بتخصص معين، بحيث تستقصى فيه كل المصطلحات المستعملة بطريقة مسحية، ووفق المنهج العلمي الموافق للمناهج الحديثة لوضع المصطلحات والتقييس. ونثمر في النهاية هذه الجهود بطبع عدة معجمات خاصة يمكن بعد ذلك أن تشكل موسوعة للمصطلحات العلمية والفنية والتقنية، إلخ أو بنكا للمصطلحات.

ولعلّ هذا الذي أدى بالدكتور عبد الملك مرتاض أثناء تقديمه المعجم بوصفه دليلا في قوله "ذلك، وقد ارتأينا أن نصدر هذا "الدليل" أو هذا المعجم الإداري الصغير، تحت ثلاثة أشكال تيسيرا للاستعمال ..."[] والفرق واضح عند اللسانيين بين القاموس "Dictionnaire" والمعجم "Lexique" والملفظة "Vocabulaire" والملسنة "Glossaire" والدليل "Guide" ينظر في محله.

ثانيا : انتقاء المصطلحات

جمع أغلب علماء المصطلح على أن أفضل تعريف (أوربي) للمصطلح هو التعريف التالي : "الكلمة الاصطلاحية أو العبارة الاصطلاحية مفهوم مفرد أو عبارة

[]. معجم المصطلحات الإدارية : المجلس الأعلى للغة العربية، دار هومة، الجزائر، 2000 : (تقديم)، ب.

مركبة استقر معناها أو بالأحرى استخدامها، وحـدّد في وضـوح، هـو تعـبير خـاص ضيق في دلالته المتخصصة، وواضح إلى أقصى درجة ممكنة، وله ما يقابله في اللغات الأخرى، ويرد دائما في سياق النظام الخاص بمصطلحات فرع محدد فيتحقـق بـذلك وضوحه الضروري"□.

وإن النـاظر في المصـطلحات المتواجـدة في المعجـم ليطـرح عـدة تسـاؤلات حـول طبيعتها ومصداقية تواجدها ضمنه؛ ذلك أنها كونت حشدا اصطلاحيا أحدث بعـض الخلط المنافي للمفهوم السابق، ولبسا حول معايير الاختيار و/أو الانتقاء التي اعتمدها واضعوه، وبالتالي غموضا في سمات الوحدات الاصطلاحية الأساسية التي تشكل لنـا نظاما اصطلاحيا منسجما، آخذين بعين الاعتبار قواعـد الضـبط الاصـطلاحي. حتـى لتوجد بعض الألفاظ التي لا تعدو كونها ملفوظات لغوية تدخل في تركيب نظام أغلب الألسن البشرية، أي ما يتعلق باللغة العامة. والجدول الآتي يوضح عينة منها :

اللفظ العربي	المقابل الفرنسي	الصفحة	
		عربي فرنسي	فرنسي عربي
أقل من	Moins que	7	125
أكبر من	Plus grand que	7	142
إلا إذا	Moins que (à)	15	125
إلى حد ما	Plus au moins	15	141
إنه لمن الأرجح	Il est fort probable	16	105
ابتداءا من الآن، أو من	Dés à présent	17	78

□. التعريف وارد في : Linguistishes worterbuch لـ : Th.Lewandowski نقلا عن : الأسس اللغوية لعلم المصطلح لـ : محمود فهمي حجازي، دار غريب للطباعة، القاهر، ب ت : 11-12.

الآن فصاعدا			
ابتداء من	A partir de	17	1
ابتداء من	A compter de	17	1
التالى نصه	Dont la teneur suit	26	82
بحروف واضحة جدا	En caractéres trés apparents	31	90
بسبب	A cause de	33	1
بلا قيد ولا شرط	Purement et simplement	34	158
تبعا لـ	Suite à	37	193
تبعا لـ	Faisant suite	37	98
تحت	Au-dessous	39	21
تحسبا، أو احتياطا لـ	En prevision de	39	91
تطبيقا لـ	En application de	49	90
تقريبا	A peu ptés	54	1
تقريبا	Presque	54	147
حيث إن، أو بما أن	Considérant que	75	53
حيث ما كان	Partout	75	137
حينما، أو حينئذ	Au moment de	75	21
خلافا لـ	Contrairement	79	55
غير أن	Neanmoins	131	127
غير أن، أو إلا أن	Or	132	132
فقط، أو لا غير	Uniqement	135	204
في أسرع وقت	Au plus vite	136	21
في أي حال من الأحوال	Cas : en aucun cas	136	33
لـ، أو من أجل	Pour	153	145
مثال	Exemple	159	96

135	159	Par exemple	مثلا
82	187	Dorénavant	من الآن فصاعدا
105	187	Il est évident	من البديهي، أو من الواضح
105	188	Il est certain que	من المؤكد أن
68	189	Depuit	منذ
68	190	Depuis peu	منذ قليل أو حديثا
91	194	En conséquence	نتيجة لذلك، أو بالتالي
34	202	Ceci étant	هذا وإن
11	209	Ainsi que	وكذا
105	210	Il semble	يبدو
167	210	Relatif à	يتعلق بـ
49	210	Concernant	يتعلق بـ، أو فيما يخص
14	210	Apparaît	يتضح

إذا كان الشيء يستغرب إذا ظهر في غير موضعه، فإن الغرابة هنا تنتفي إذا علمنا أن انتقاء هذه المفاهيم كان من الوثائق الإدارية بشكل عشوائي مثلما ورد في التقديم : "... وإنما قام على جهود الهيئات الحكومية الجزائرية أمدتنا بوثائق تتعلق بالمصطلحات الإدارية كانت أصدرتها مثل وزارة الداخلية والجماعات المحلية والمديرية العامة للوظيف العمومي، وزارة الفلاحة والري، ووزارة التربية، ووزارة الشباب والرياضة"□.

إن هذه الملفوظات لا تحتاج إلى جهد كبير للبحث عن مقابلها الأجنبي من وإلى لغة ما. بل إن قاموسا ثنائي اللغة كفيل بأداء وظيفة الترجمة هذه التي صنف فيها

□. المعجم : (تقديم)، ج.

الكثير من المترجمين والمختصين في تعليم اللغات، أذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر :

– تعابير وترجمة من الفرنسية إلى العربية لإبراهيم أبو حميدة، طبع بالجزائر، ب ت.

– دليل تقنيات التحرير الإداري والمراسلة لرشيد حباني، Les belles imprissions، الجزائر، 2000م.

ولعل أحسن مثال على النزعة اللغوية –التعليمية لهذا المؤلف هو ما جاء في (ص 207/39) :

تجدون رفقة هذا ——————→ Veuillez trouver ci-joint

إن هذه العلامات اللغوية من ظروف وصفات وجمل فعلية واسمية مفيدة وغير مفيدة ومركبات اسمية إذا كانت تنتمي إلى اللغة كاصطلاح يعبر بها عن غرض ما في مجتمع ما، فهي لا تنتمي إلى الاصطلاح كلغة بين المختصين، بحيث إنها تستعمل في الخطاب الأدبي والديني، الخ بخلاف المصطلحات فإن ظهورها في اللغة العادية يشعر المرء أن هذه الكلمات تنتمي إلى مجال محدّد على نحو ما ذهب إليه كوبكى (1935) أحد اللغويين المنتمين إلى مدرسة براغ أثناء تعريفه للمصطلح[□].

لذلك يفترض عدم الحسم في "اصطلاحيتها" إلا بعد دراستها علامة علامة، بالكشف عن نوع العلاقات التي تربطها بالمجال الاصطلاحي عاما كان أو خاصا،

□. الأسس اللغوية : 11.

بشكل يضمن لها –فيما بعد– اتساقا داخليا وتماسكا مفهوميا، ويرفعها إلى رتبة المصطلح العلمي لأنها تتصف بسماته[1].

ثالثا : استراتيجيات الوضع

إن هذا المعجم يستوقف قارئه في عدة حالات تتعلق بعملية وضع المقابلات للمصطلح الأجنبي، ويمكننا الإشارة إلى حالتين منها :

الحالة الأولى : ما يتعلق بوضع عدة مقابلات لمصطلح واحد: وتنقسم هذه الحالة إلى :

أ/ ما يتعلق باللغة العامة :

- داكن أو مظلم أو قاتم Sombre 189/80
- سكة، مسلك، سبيل Voie 207/99
- قطعة، وثيقة، حجرة Piece 139/145
- كلي، شامل، تام، مجموع Total 201/151

وهذه سمة طبيعية بالنسبة لقاموس عام فيما يتعلق بمفهوم عام تتحدد الفروق فيه حسب الاستعمال والسياق والمقام...

وينبغي هنا أن لا ننسى أن اللغة العامة تستسيغ هذا الترادف، وتستسيغ أيضا من الاشتراك والزخرف اللفظي وحتى الغموض أحيانا ما يساعد على تلوين المعاني وتنويع الأساليب الشاعرية والبلاغية وغيرها مما يضمن لها الفعالية اللغوية "L éfficacité langagiere" وهذا خارج نطاق المعجم كما سبق.

ب/ ما يتعلق بالمصطلحات: وهو نوعان :

---

[1]. انظر المرجع نفسه : 14-15.

1. تسمية واحدة لعدة مفاهيم : ومن أمثلة ذلك :

– تحويل :	Tranfert	202/40
	Conversion	57/ 40
	Transformation	202/40
– تخفيض	Remise	168/41
	Abaissement	2/41
	Rabais	161/41
– تداول	Manupulation□	42/ غير وارد
	Circulation	40/42
	Alternance	12/42
– تمديد	Prolongation	154/58
	Allongement	12/58
	Prorogation	155/58
	Reconduction	164/58
	Prolongement	154/58

2. عدة تسميات لمفهوم واحد: ومن أمثلة ذلك :

تحقيق

□. إن مصطلح "Manupilation" غير وارد في القسم (فرنسي عربي) بمفهوم "التداول" بل "المعالجة باليد" وفي هذا من الاختلاف ما لا يخفى لأنّ الفرق بين المفهومين بين.

مراقبة فحص	Vérification	207/40
توحيد ضبط تقييس	Normalisation	128/61
شهادة ليسانس إجازة رخصة	Licence (Diplôme)	116/107
قرار ... مقرر ...	Arrêté	17/143
ميناء مرفأ مرسى	Port	144/193

إن وضع المصطلحات يفرض التعامل مع مفهوم واحد وفي مجال واحد باختيار تسمية واحدة، بعيدا — ما أمكن ذلك – عن الاعتباطية في العلاقة. وعند الضرورة القصوى يمكن اختيار أكثر من لفظ — وهو المطرد في المعجم – ولكن ذلك يقتضي وضع شروح لهذه التسميات، ونقسيمها إلى معالم ومداخل، وتفريعها وفق ضوابط منهجية محددة، وكذلك توضيح الفروق بينها، ومجالات استعمالها، ومرجعياتها كما هو الشأن في (قرار–مقرر)، (توحيد—ضبط–تقييس) و(Transformation-conversion-transfert)

و(Circulation-Manumulation-Alternance). وذلك حتى نتفادى الدخول في حقول دلالية مرتبكة.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن اللفظ "Interpréte" وضع مقابله "مترجم"، في حين أن واقع الاستعمال يحدده بـ"ترجمان" والحق أن لفظ "مترجم" يقابل "Traducteur"؛ للتفريق بين الترجمة الكتابية "Traduction" والترجمة الفورية الشفوية "Interprétation" التي تحمل معاني التفسير والتأويل. وإلى هذا أشار المتنبي في قوله :

ملاعب جنّة لو سار فيها سليمان لسار بترجمان[1]

[وافر]

وفي اللسان : الترجمان : المفسر للسان[2].

الحالة الثانية : ما يتعلق بطرق الوضع :

لقد وظف القائمون على المعجم الطرق المعروفة في وضع المصطلحات من اشتقاق وترجمة ونحت واقتراض وغيرها[3].

---

[1]. العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب : ناصيف اليازجي، دار صادر، بيروت، ب ت : 452/2.

[2]. لسان العرب : ابن منظور، ب ت، مادة (ترج).

[3]. لوضع المصطلحات شروط وضوابط حددتها المجامع العربية وبعض الدراسات الفردية، ينظر مثلا : دور المؤسسات الثقافية في تنمية اللغة العربية : صالح بلعيد، 1993، (مخطوط).

أ/ فمن أمثلة الاشتقاق :

– تبرشم (تبرشمات) Rivure 180/37

– برشام (براشيم) Rivet(s) 180/34

– رخصة صرافة Autorisation de change 22/87

على أن الاشتقاق مع ما يقدمه من إثراء اللغة العربية ينبغي أن يراعي فيه الابتعاد عن الصيغ الغريبة التي لا تنسجم مع المجال المعرفي المحدد، ويستحسن وضع تعريف يحدد معناه ومظانه، ومجال استخدام كل مصطلح، بشكل يضمن له التداول وعدم الهجران، ومن أمثلة ذلك :

اللفظ العربي	المقابل الفرنسي	الصفحة	
		عربي فرنسي	فرنسي عربي
برشمة	Rivetage	34	180
ترقنة	Transcodage	44	202
حابسة	Chicane	68	38
سجح...	Abrasion	97	3
مبرقة	Telautographe	157	199

و"اللغة العربية في مواكبة الفكر العلمي" : محمد سويسي، ضمن : من قضايا اللغة العربية المعاصرة لـ : مجموعة من الأساتذة. مطبعة م ع ت ث ع، تونس، 1990 : 140 وما بعدها.

مرتفق البريد	Usager de la poste	168	205
مضبور	Broché	176	29
نبيضة ...	Dispositif	194	79

ب/ ومن أمثلة النحت :

اللفظ العربي	المقابل الفرنسي	الصفحة	
		عربي فرنسي	فرنسي عربي
برشمة	Rivetage	34	180
بيوتكنولوجيا	Biotechnologie	35	27
جزرأة	Algérianisation	65	11
جمركة	Dédouanement	66	73
خصائص فيزيوكيمياوية	Propriété physico-chimiques	78	155
قوة كهرومغنطيسية	Puissance électromagnétique	146	156
مسافة أورتودرومية	Distance orthodromique	171	81
مكننة	Mécanisation	185	123

ويمكن ملاحظة عدم التـوافق في طريقـة وضـع المقـابل للفـظ "Mécanisation" و"Automatisation" بحيث وضع للفظ الأول مصطلح "مكننة" والثاني "أداء تلقائي" مع وجود مصطلح "تأليـة" المستعمل في كـثير مـن البحـوث والدراسـات الإعلاميـة والاقتصادية. فقد وقفت على بعض مذكرات التخرج في المدرسة العليا للتجارة وقسم الإعلام الآلي للتسيير أذكر منها : – تألية تسـيير المـوارد البشـرية — دراسـة حالـة

شركة سوناطراك (مديرية الخدمات الاجتماعية). إعداد : موسى بوسربة وآسيا عدّار، إشراف : مصطفى شلبي وسعيدة زيروني (1999).

– تألية حساب سعر التكلفة —دراسة حالة مؤسسة النسيج الجزائري (Etexal)، إعداد مونية بوذراع وأحمد عيادن وكمال بوخاري، إشراف لخضر لعلام (1999).

وكذا مصطلح "Biochimie" فإن مقابله "كيمياء حيوية"[□] ومصطلح "Biotechnologie" مقابله "بيوتكنولوجيا"، فالملاحظ أن السابقة "Bio" قوبلت مرة بالصفة "حيوية" ومرة بالترجمة اللفظية "بيو" وغيرها من الأمثلة. والأفضل اتباع منهج واحد.

على أنني أرى في هذه الحالة استعمال المقابل "بيو" مع ما يحدثه من مخالفة قانون الاتساق (Cohérence) بين الصفة والموصوف في "كيمياء حيوية" فإنه يجعل المقابل لفظا واحدا، أخصر، منحوتا، سهل النطق، واضح الدلالة ؛ باعتبار سابقية اللفظ الواحد على أكثر من لفظ، إذ من شأن العرب أن تقلل الكثير إذا عرف المعنى. ونظير هذا مصطلح "ربع سنوي" مقابل "Trimestriel" مع وجود لفظ "فصلي" الأخصر والأشيع.

ومن أمثلة الاقتراض :

اللفظ العربي	المقابل الفرنسي	الصفحة	
		عربي فرنسي	فرنسي عربي
استراتيجية	Stratégie	22	192
الاعتراف بالشهادة أو الدبلوم	Reconnaissance de diplôme	24	165

□. المعجم : 27/151.

باريت	Baryte	30	غير وارد
بريد الكتروني	Courier électronique	32	60
بروتوكول	Protocole	32	156
بوغ 2000	Bogue 2000	35	27
بوكسيت	Bauxite	35	غير وارد
ترانزيت عند الاستيراد	Transit importation	43	202
خرطوشة الطابعة	Cartouche imprimante	77	33
دزينة	Douzaine	81	84
دليل التلكس	Indicatif telex	82	107
ديموغرافيا	Demographie	83	75
أمانة أو سكرتارية	Secretariat	7	184
سكر القصب أو سكاروز	Sacharose	99	182
شيك اسمي	Cheque nominatif	108	38
شيك السفر	Cheque de voyage		
شيك مصرفي	Cheque		
فاتورة	Facture	133	98
فيزيا[ء]	Physique	137	139
قاعة الأرشيف	Salle d'archive	139	183
قوة ميكانيكية	Puissance mécanique	147	157
كيمياء	Chimie	151	39
مراجع ببليوغرافية	References bibliographiques	166	174
مسافة أورتودرومية	Distance orthodromique	171	81

بنك	Banque	175	25
مقاومة ديناميكية	Résistance Dynamique	180	177
ميزان إلكتروني	Balance électrique	193	25

لن أدخل في تفاصيل دراسة هذه المصطلحات الأجنبية من حيث أصولها ومجالات استعمالها، إلاّ أن الملاحظ هو وجود بعض التسرع في وضع المقابل العربي، ذلك أن وضع المصطلح وحسن اختياره يقتضيان حسب علماء المصطلح ودارسي اللغات الانقياد بضوابط لغوية تتعلق ببنية اللغة وخصائصها وقواعدها وفلسفتها وضوابط لسانية –اجتماعية (Sociolinguistique) وأخرى عقلية – معرفية (Cognitif).

فإذا كانت اللغة العربية – كبقية اللغات العالمية– تقترض من غيرها، فإن هذا يأتي في مرحلة متأخرة بعد عدم وجود اللفظ العربي في التراث العربي – وهذا يتطلب تحريا دقيقا – أو استحالة الاشتقاق. وهذه الضوابط اللغوية هي باختصار :

– الابتعاد عن الاقتراض قدر الإمكان.

– الابتعاد عن اللفظ الذي له صيغة إقليمية ضيقة.

– تفضيل اللفظ الذي يمكن الاشتقاق منه على غيره.

– اختيار اللفظ الذي يخضع لصيغة عربية□.

وغيرها من الضوابط.

والضوابط اللسانية والاجتماعية :

□. ينظر : "التعريب ووسائل تحقيقه" : محمد الفاسي، ضمن : مجلة "الأصالة" العدد 17، 18، السنة 1974/73 : 116

1. استعمال اللفظ العربي المفرد خير من اللفظ النادر الاستعمال أو الغريب في حروفه أو صيغة، وهو ما يعبر عنه البلاغيون بفصاحة المفرد.

2. الابتعاد عن الألفاظ ذات المفاهيم الخاصة أو الفاحشة في بعض الاستعمالات الدارجة أو الإقليمية بحيث لا يستنكف منها الذوق السليم□.

وأما الضوابط العقلية —المعرفية : أن يضمن المصطلح التعرف عليه وحسن تخزينه في الذاكرة وضمان عملية الاسترجاع وغير ذلك من العمليات العقلية المعرفية□.

وضوابط دلالية وبنيوية وجمالية لا يسع المجال لذكرها□.

ويمكن في هذا الصدد الإشارة إلى أن كثيرا من المقابلات العربية (في المعجم) لم تكن خاضعة لهذه المقاييس، واكتفي ببعض الأمثلة.

إن مصطلح "Cheque" ورد مقابله "شيك" في عدة مواضع رغم وجود اللفظ العربي الشائع "صك" الوارد مرة واحدة□.

– ومصطلح "Transit" مقابله "ترانزيت" رغم وجود الألفاظ العربية عبور، مرور، مجاز، وساطة... وغيرها.

□. التعريب وتنسيقه : 33 وما بعدها.

□. "التعرف على النمط" : محمد العربي بدرينة.

□. ينظر المنهجية العامة للتعريب المواكب، مشاكله اللسانية والطباعية واصطلاحيته المزدوجة، تقنياته ومشاكله : أحمد الأخضر غزال، معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، الرباط، 1977 م : 59–61.

□. المعجم : 67/119.

– مصطلح "Archive" مقابله "أرشيف" رغم وجود اللفظ العربي "الربائد" على نحو ما ذكره محمّد الأخضر غزال[□].

وفي الأخير يمكننا القول بأن البحث حول السجل الاصطلاحي للغة ما يقتضي الاحتكام إلى قواعد الضبط الاصطلاحي من نظريات متعددة ومناهج مختلفة، ووفق مبادئ الاتساق الداخلي والتماسك المفهومي، ومراعاة شيوع المصطلح وغير ذلك من الأسس النظرية والعمليات الإجرائية.

كما يمكننا القول أيضا، أن فكرة هذا العمل الاصطلاحي في حد ذاتها وإن جاءت متأخرة فإنها جهد محمود اتضحت من خلالها رغبة لسانيين ومختصين من القائمين على المجلس الأعلى للغة العربية الصادقة في مواصلة جهود التعريب التي بدأت بعد الاستقلال، وهو لبنة تنضاف بسور الحركة العلمية في الجزائر. وبها يفتح المجال على مصراعيه أمام جميع المختصين في مختلف الحقول المعرفية لبذل الوسع في سبيل الحفاظ على حسن استخدام اللغة العربية ورعايتها وترقيتها حسب متطلبات العصر ومقتضيات العلم.

□. المنهجية الجديدة لوضع المصطلحات العربية : أحمد الأخضر غزال، معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، الرباط، ب ت : 21.

إن تراث الجزائر الثقافي بكل ألوانه وتعبيراته هو كلّ لا يتجزأ من منظور الذات الوطنية الواحدة، نستمدّ منه العزة والهمة ونستلهم منه المعالم، ونسترشد به للسير نحو الأمام، لخوض غمار العصر بثقة في النفس وطموح وثاب وواقعية متبصرة وحكيمة، بعيدة عن التعصب المقيت، والمزايدات الجوفاء وسلبيات النكوص إلى الخلف، إلى الماضي، خوفا من المستقبل، أو القفز في الفراغ والمجهول، بسبب كراهية الذات والسخط الانفعالي على الماضي، بدون نقد وتمحيص ومقارنة مع غيرنا الذين يعيشون عصر ما بعد الحداثة وما بعد التصنيع، ولكنهم يعتزون بتراثهم التقليدي ويعيدون إحياءه ويباهون به الأمم.

إن تراث الجزائر الثقافي ملكية لكل الجزائريين، لا يقبل الاحتكار والخوصصة والاستخدام كغطاء سياسي أو لمناورات هدفها الضغط والابتزاز، وهو أيضا لا يقبل التجزئة المغرضة والتقسيم. إن الجزائريين مسلمون منذ مئات السنين وهم أمازيغ عرب وعرب أمازيغ يتساوون أمام قوانين الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، لا فرق بينهم سوى بالكفاءة والاستحقاق والبرّ بوطننا المفدى.

من خطاب فخامة رئيس الجمهورية، السيد عبدالعزيز بوتفليقة، في الملتقى الوطني حول :
" مظاهر وحدة المجتمع الجزائري من خلال فنون القول الشعبية ". تيارت 13و14 أكتوبر 2002.



المجلس الأعلى للغة العربية

06 ، شارع العقيد أحمد بوقرة، الجزائر
الهاتف: 23.07.24 / 021 23.07.25 الفاكس: 021 23.07.07
ص.ب. 575 الجزائر، ديدوش مراد
www.csla.dz